بسم الله الرحمن الرحيم

توحيد الأمـــــة الإسـلامية

أمـــــر إلـــــهى

وتكليـــف قـــــرآنى

اعداد
مصطفى محمد لطفى القطان

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين صلوات ربى وسلامه عليه إلى يوم الدين

أما بعد

لقد يسر الله بفضله ومنه هذا الكتاب وألهم به من عطائه وجزيل نعمه وأسأل الله أن يتقبل هذا العمل وأن يكون خالصا لوجهه سبحانه وأن ينفع من يقرأه وأن يكون حجة لنا لا علينا إنه نعمى المولى ونعمى النصير ولقد إخترت مقدمة هذا الكتاب من كتاب الأستاذ الدكتور زمحمد عمارة فتنة التكفير لما له من أثر بليغ ونصيحة جزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء وجميع من نقلنا من كتبهم وألفناه فى هذا الكتاب .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

مصطفى محمد لطفى القطان

إهـــــــــــداء

إلى الأمة الإسلامية وأصحاب الحضارة الإسلامية ومشاعلها التى أضاءت أرجاء الأرض وحملت النور إلى جميع ربوعها فاهتدوا بهديها وإستضاءوا بنورها وذلك يوم أن كانت أمة واحدة كما ذكرها ربها عزوجل ويوم أن كانت يد واحدة لم يفرق بينها أى شيء لا عصبيات ولا قبليات ولا مذهبيات وكانت على صراط الله المستقيم مستمسكة بقوله : تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا)

أسأل الله تعالى أن يعيد لهذه الأمة أمرها ولتكون كما أراد الله أمة واحدة (إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)(وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) .

مقدمة الكتاب

مقدمة الأستاذ الدكتور: محمد عمارة من كتابه فتنة التكفير

علـى النطـاق العـالمى وفـى مختلـف القـارات تتوجـه الأمـم والشـعوب إلـى التقـارب والتسـاند والتضـامن والإتحـاد وذلـك إنطلاقـا مـن الضـرورات الحياتيـة لهـذه الأمـم والشـعوب وإسـتجابة للحاجـات الماديـة التـى تسـتلزم تكامـل الإمكانـات والثـروات ومشروعات التنمية ولمواجهة التحديات الداخليـة والخارجيـة التـى تواجـه هـذه الأمـم والشـعوب سـواء فـى مجـالات الأمـن أو فـى مجـالات الإقتصـاد وإذا كانـت هـذه الضرورات والحاجيات المادية والدنيويـة هـى التـى تـدفع هـذه الأمـم والشـعوب إلـى التقارب والتضامن والتساند والإتحـاد رغـم مـا بينهـا مـن إختلافـات وتباينـات دينيـة وثقافيـة ولغويـة وقوميـة بـل ورغـم مـا فـى تاريخهـا البعيـد والقريـب مـن حـروب وصراعات فإن الحال مع شعوب الأمة الإسلامية فـى ضـوء هـذه الظـاهرة العالميـة يدعو إلى الأسى والإستغراب فالمسلمون أمة واحدة قرر ذلك قرآنهم الكريم الـذى هـو البلاغ الإلهى الذى يحفظونه ويقدسونه وهم يتلونه فى صـلواتهم آنـاء الليـل وأطـراف النهار يقول سبحانه وتعالى

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) الأنبياء 92

ويقول : تعالى (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) المؤمنون 52

ووحدة هذه الأمـة ومـا تثمرهـا مـن ألفـة وإئـتلاف هـى إرادة إلهيـة وصـناعة ربانيـة وليست مجرد نزوع بشرى دنيوى وتاريخ هـذه الأمـة شـاهد صـدق يعلـن بكـل ألسـنة الحال والمقال أن وحدتها هى التى جعلتها حتـى عنـدما كانـت قلـة قليلـة تزيـل القـوى العظمى وهذه الوحدة هى ذاتها التى مكنت هذه الأمـة مـن قهـر التتـار ومـع الفريضـة الإلهية ومع شهادة التاريخ فإن واقع هـذه الأمـة الإسـلامية يصـرخ بـأعلى صـوت إن تمزق هذه الأمة وغيبة التضامن والتساند والتكامـل والإتحـاد عـن شـعوبها وأوطانهـا هو الذى مكن ويمكن منهـا الأعـداء وشـذاذ الأفـاق فثروتهـا منهوبـة وأرضـها تـرزخ تحت نيران القواعـد العسـكرية الأجنبيـة وبحارهـا ومحيطاتهـا تسـبح فيهـا الأسـاطيل

المعادية فإن على أولى العزم والهمة من العلماء والمفكرين المرابطين على ثغور الإسلام أن يجاهدوا فى سبيل توحيد أمة الإسلام وإذا كانت التعددية وكان التمايز والإختلاف هى نعمة من نعم الله التى جاء بها الإسلام فإن النقمة إنما تتجسد فى الخلاف الذى يجعل بأس المسلمين بينهم شديد وفى مقدمة أسباب هذه النقمة نزعة التكفير التى تقصم وحدة الأمة وتفصم العرى والوشائج التى ألف بها الإسلام بين قلوب المسلمين ولمعالجة هذه النزعة التدميرية نزعة التكفير لأهل القبلة ولمواجهة هذه الفتنة التى كانت قابعة فى بطون بعض الكتب المذهبية وفى عقول بعض الذين يرتزقون من التعصب المذهبى والتى أشاع الإعلام المعاصر بثورة الإتصالات فاحشتها بين العامة والجمهور ولمعالجة هذه النزعة وهذه الفتنة يجب أن يتداعى العلماء والمفكرون المرابطون على ثغور وحدة الإسلام وأمته وحضارته .

الباب الأول

الوحدة العربية

تحدث عن الوحدة داعية العروبة والإسلام المرحوم الأمير :شكيب أرسلان فى سنة 1929م قال : إن الأمة العربية سائرة إلى الوحدة مهما عارض فى ذلك اللئام من أعدئها والمتفلسفون من أبنائها وإن هذه الوحدة آتية لا ريب فيها ولو بعد مائة سنة

ولقد تلمس الأمير شكيب كل طريق وكل أسلوب فى الدعوة إلى الوحدة العربية وذكر كتابا ورد إليه من المرحوم : الملك فيصل يقول أشهد أنك أول عربى تكلم معى عن الوحدة العربية وأراد أن تكون عملية ثم قال كينا حتى عمينا على أن نرى تحقيق المشروع الحلف العربى وأجمعنا كلنا على أنه لا حياة للعرب فى هذ العصر وما يليه إلا به لأنه الوسيلة الوحيدة لصد الإستعمار الذى أنشب براثنه بقسم من بلداتنا وهو يتهدد القسم الثانى منها فإذا أنشب براثنه بجزيرة العرب كما أنشبها فى البلاد العربية الأخرى لم يبق عربى على وجه البسيطة حرا وبعد أن يفند الشبهات التى تثار حول فكرة الحلف العربى يقول الوحدة العربية يجب تأسيسها منذ الآن وإلا ندم جميع العرب ولات ساعة ندم وقد سئل لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم ؟فسارع بالإجابة على ذلك وامتدت نفسه بالجواب حتى تكون منه كتابا عنوانه هو هذا السؤال نفسه وصفحات هذا الكتاب المشهور تفيض بدلائل الغيرة على المسلمين وحسرته على ما أصاب أبناء هذا الدين العظيم من ضعف وعسف حين تباعدوا عن دينهم وفقدوا مكانتهم وعزتهم فى حياتهم .

أمراض الأمة الإسلامية وعللها

أمراض الأمة الإسلامية وعللها وكان بعيد النظر خبيرا بأمراض الأمة الإسلامية وأسباب عللها وكان يرى أن تألب أوروبا ضد الإسلام هو أكبر خطر على المسلمين ولذلك يسمى هذا التألب الحملة اللاتينية ضد الإسلام ويذكر أن الدول الأوروبية تختلف فى كل شىء إلا فى عداوة الإسلام فالإسلام عندهم العدو العام وأن أسبانيا وفرنسا تتعاونان على قهر المغرب مع ما بينهما من أحقاد وخلافات والإنجليز يرون

أن الإسلام أخطر عليهم من البلشفية وفرنس وإيطاليا وأسبانيا متمالئات على الإسلام يهتضمنه من كل ناحية على الرغم ما بينهما من خلاف وإذا فالدول اللاتينية الثلاث حاملة على الإسلام كدين بعد أن حملت عليه كدنيا ويعلن الأمير : شكيب ويكررأن من لم تكن له دنيا لم يكن له دين وأن من لم يكن له سلطان فليس له قرآن وكان فى هذا الرأى ينظر من بعد إلى الأثر الإسلامى " إن الله ليزغ بالسلطان ما لا يزغ بالقرآن " . ومن بعد نظره فى الشئون الإسلامية أنه يرى أن الإسلام لم ينتشر إلا بالقرآن وعمارة الصدور به إلى أن بلغ قراؤه المهتدون به من القوة المعنوية الدرجة القصوى التى مكنتهم من قيادة الأمم وهذه القوة المعنوية هى الأصل وهى التى بدونها لا تنهض أمة وما القوة المادية مهما وفت أو غلظت إلا تبع للقوة المعنوية وهى بالنسبة لها كالبدن بالنسبة للروح ويدرك الأمير : شكيب أن الله هيأ للمسلمين بالقرآن كتابا ما فرط فيه من شىء وأمرهم أن يتدبروه وأن يعملوا به وبهذا التدبر وبهذا العمل حقق المسلمون فى صدور الإسلام ما حققوه من فتح ومجد وقوة ولكنهم حينما أهملوه ولم يعملوا به وجعلوه لمجرد الترنم فقط كما صنعوا فى القرون الأخيرة لم يصبح أمامهم إلا العذاب الأليم والأغلال فى أعناقهم ويحاول الأمير شكيب تشخيص العلة فى جسم الأمة الإسلامية على عهده كما يحاول أن يطب لها وأن يرسم طريق شفائها فيقرر أن الأزمة الحقيقية الحاضرة فى أمة الإسلام هى أزمة التعليم يقول : وإذا كان هناك من يقول إن من أسباب تكالب الغرب على العالم الإسلامى الحرص على الإستعمار أو الإستمرار فى الحملات الصليبية أو نشر الثقافة الغربية أو الحرص على منافذ التجارة فهذه كلها عنده أقل خطرا وأخف ضررا من طريقة التعليم التى جرت عليها الحكومات الإسلامية والمسلمون فى عصره وهى الطريقة التى ستكون نتيجتها أشر ويلا على المسلمين من الإستعمار ومن الحروب الصليبية ومن الغارات الإقتصادية ومن كل مصيبة وداهية وهذه الطريقة أن ينشأ الفتى المسلم دون عقيدة من الصغر تنقش فى لوح صدره وأن لا يكون له نصيب من حفظ القرآن الكريم ولا من قواعد العربية ويقول : ولن ننجح ولن نفلح إلا إذا أخذنا العبرة والعظة من أمم أوروبا الناهضة فهى مع تبحرها فى العلوم الطبيعية والمادية لا تزال تبنى

ثقافتها على أساس ديانة مضى عليها أكثر من تسعة عشر قرنا وعلى لغات وآداب مضى عليها أكثر من ثلاثين قرنا وهى مع ولوعها بالجديد لم تنسى الإحتفاظ بالقديم .

المحافظة على الأمة الإسلامية

المحافظة على الأمة الإسلامية : ويتمثل فى نظر الأمير : شكيب فى محافظة الأمة الإسلامية على عاداتها وتقاليدها حتى لا تضيع ولا تنماع فى غيرها من الأمم وتحتاج إلى إقبالها على قرآنها وتمسكها بدينها ومقاطعتها لأعدائها وتجميعها لقواها وحسن جمعها بين الدين والدنيا وبين الروح والمادة وتحتاج أيضا إلى علماء يكونوا بحق وصدق هداة الأنام مصابيح الظلام ويكونون على صلة بالحياة ودراية بالمجتمع حتى يقدموا إليه من زادهم وعلمهم ما يصلحه ويتفاعل معه .

قوة العرب ونهضتهم فى إتحادهم

لا قوة ولا نهضة ولا نجاة بغير اتحاد يقول الأمير شكيب هل للعرب نجاة بغير إتحاد ؟ وهل الدول العربية التى تنزع إليها نفوسنا غير دولة الإتحاد أو الممالك العربية المتحدة ؟ ولقد أخذ يدعوا لنهضة العرب ووحدتهم يقول رأس نهضة العرب هو أن نجزم بالإستقلال والإتحاد اللذين نريدهما واللذين لا حياة لنا فى المستقبل بدونهما فى عصر القوميات هذا ولقد ظل فى الحديث عن الوحدة العربية والدعوة إليها والتحريض عليها فى وقت مبكر عقب الحرب العالمية الأولى وبقى ينادى بهذه الوحدة ولا يترك مناسبة للحديث عنها فهو فى سنة 1929 يتحدث عن الصهيونية وخطرها وممالأة إنجلترا لها وإستخفافها بالعرب فيشير إلى علة العرب فى التفكك والتمزق وأن سبب تغلب أعدائها عليها هو إختلافها فيما بينها وعدم إلتقائها على كلمة واحدة وهدف واحد يقول : وأما سبب إستخفاف الإنجليز بالعرب فيرجع إلى أمور كثيرة يطول شرحها ونجتزىء منها بذكرما تراه إنجلترا بين العرب من النزاع الدائم والخصام المستمر فهى تجد أمة كثيرة العدد شديدة البأس متوقدة الذكاء إلا أنها مع كثرة العدد شديدة البأس مقطعة الأوصال حتى إن بعضها لا علم له ببعض وهى تجد أمة شديدة البأس لكن بأسها واقع فيما بينها وشاغل لها عن الخارج بالكلية وهى تجد أمة متوقدة الذكاءئ إلا أن ذكاءها مصروف إلى كيد بعضها لبعض .

حديث الأمير : شكيب عن الوحدة ولقد ألقى هذه المحاضرة فى النادى العربى بدمشق يوم 20 سبتمبر 1937 وفى هذه المحاضرة يقول إنه إذا أمعنا النظر فى حالة العرب ومواقعهم الجغرافية ومطامع الدول المحيطة بهم سواء فى الشرق أو الغرب وجدنا وحدة العرب ضرورة من الضرورات الحيوية حتى يعيشوا آمنيذ وحتى يستوثقوا من مستقبلهم ولا يتعرضوا للمصائب التى ستحدثنها لهم بقاؤهم مفككين مبعثرين ويشير إلى أن جشع الأمم الأمم القوية لا يترك الأمم الضعيفة المفككة تعيش فى إطمئنان ولا أمل فى ثبات العرب أمام دول كهذه إلا إذا كانوا متحدين جبهة واحدة فى وجه الأجنبى الطامع وهو يرى أن تكون الوحدة إتحادا عسكريا وإقتصاديا وسياسيا يضمن لنا البقاء ويقف أمام أطماع الطامعين فينا وهو يرى أن وحدة العرب لا يمكن أن تقع دفعة واحدة بل هى كسائر المشروعات العظيمة غير قابلة للتحقيق إلا تدريجيا (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) (الأحزاب 62)

وهذا التدرج فى إتمام الوحدة لا يقتصر على الكمية بل يشمل الكيفية أيضا ثم ينهى محاضرته بهذه العبارة قال : وبهذا أختم كلامى راجيا أن هذا المشروع المقدس الذى نحن بصدده يتم وأن تقر به عيوننا ونحن فى هذه الحياة الدنيا وإذا لم أعش حتى أراه حقيقة مجسمة فيوشك أن أبشر به وأنا تحت التراب فليست العبرة فى حياة الأفراد إذا كانوا وإنما العبرة فى حياة الأمم فلتكن إذا كلمتنا لتحيى أمتنا العربية .

وحدة العرب آتية لأنهم أمة واحدة

إن حدة العرب آتية لأنهم أمة واحدة : وقد صرح أكثر من مرة بأن العرب سائرون حتما إلى الوحدة لأن أمتهم واحدة ويلوح بالإتحاد الكامل أو الوحدة الجامعة بالإتحاد ففى سنة 1931 يقول الوقت مخيف جدا والمستقبل مظلم حالك الظلام والحروب الأوروبية مهما تأخرت فهى آتية لا ريب فيها وقد ينشأ عنها تقاسم بلدان الضعفاء ومن المعاوضات والمبادلات ما نشأ فى الحروب الماضية فالبلدان العربية تحت الخطر الشديد إنى لأعلن للعرب هذه الحقيقة الآن وليس أمامهم لدرء الخطر إلا

الإتحاد ظاهرا وباطنا إنه إذا نشبت حرب أوروبة تفلت كل من قيده وقد ينتهى الأمر بالإتفاق لكن على ظهر الضعيف .

دعوة الأمير شكيب إلى الوحدة والإتحاد بإنشاء الجامعة العربية

دعوة الأمير شكيب إلى الوحدة والإتحاد بإنشاءالجامعة العربية والأمير شكيب حينما يدعوا إلى الوحدة وهو أول من دعا إلى إنشاء جامعة عربية بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة ويقترح لذلك عدة أمور منها **أنه** سئل سنة 1929 عما يشير به على أبناء الأمة العربية ؟

فأجاب بأنه يوصيهم بتكوين فكرة عامة عربية يخدمونها ولا يبالون بسواها حتى إذا إعترضتها إنقسامات داخلية وأهواء شخصية تمشى تلك الفكرة من فوق رءوسهم شاءوا أم أبوا .

النهضة العلمية وعوامل الوحدة

والأمير شكيب يجعل للنهضة العلمية مكانة ملحوظة بين حوافز التجمع وعوامل الوحدة فيقول لا نهضة للأمم سوى النهضة العلمية فإذا وجدت هذه جاءت سائر النهضات من سياسية وعسكرية وإجتماعية وإقتصادية وغيرها آخذا بعضها برقاب بعض والنهضة العلمية للأمة لا بد أن تكون فى إطار لغتها وتاريخها وعقيدتها وشخصيتها ولذلك يقول : التجارب من قديم أثبتت أن التربية العلمية لا تنهض بالأمة نهوضا حقيقيا إلا إذاحصلت ضمن دائرة لغتها وتاريخها وعقيدتها ومشربها وهو يوصى بنسيان الطائفية والتعصب ويدعوا إلى المساواة بين جميع أبناء الأمة العربية ولذا قال : أثناء الحرب العالمية الثانية عن قومه (سوريا) وأهم قرار يجب أن يتخذوه بعد قرار الإستقلال التام هو قرار المساواة التامة بين الأهالى من جميع الطوائف والمذاهب وأن البلاد هى لأهلها ومن كل فريق منهم ويمضى قائلا : ولن ينهض الشرق الأدنى بدون نهضة العرب والمدنية العربية بواسطة الدين الإسلامى العربى واشجة العروق فى النصف من آسيا وفى أكثر أفريقيا وفى جزء من أوروبا

النهضة لن تتم إلا بالجمع بين العقيدة الإسلامية

والعلوم الطبيعية

يقول ولن يفلح المسلمون إلا إذا إتبعوا هذه السبيل وهى بناء ثقافتهم على الجمع بين العقيدة الإسلامية والعلوم الطبيعية وكما إتسق هذا الجمع لغيرهم يتسق لهم .

الإرتباط الوثيق بين الإسلام والعروبة

يرى الأمير شكيب أن الدين عامل مهم فى التقريب بين الجموع وإن كان معه عوامل أخرى **ويرى** أنه إذا اجتمعت الوطنية مع الدين كان الإتحاد بين الجموع أقوى وأبقى ويؤمن بالإرتباط الوثيق بين الإسلام والعروبة يقول : فى رسالة بعث بها إلى أخيه رحمه الله الشيخ محمد رشيد رضا بتاريخ 9 أيلول سنة1923م وفيها تكلم عن مآسى الإستعمار فى أفريقية والمستعمرات قال : فليس الإسلام مهددا فقط بل العربية ولعمرى هل يعيش هذا بدون هذه وهو يدرك الفضل الكثير الذى أضفاه الإسلام على الأمة العربية التى يؤمن بعظمتها وسموها فيقول نعتقد أن العرب خير أمة أخرجت للناس نسبا وحسبا وصفاء قريحة ووفاء سجية وعلو همة ولولا الإسلام لبقوا ممزقين كل ممزق .

العروبة والإسلام جامعة كلية

العروبة والإسلام جامعة كلية ثم يقول إن العرب سواء كانوا مسلمين أو نصارى هم عرب لا يقدرون أن يتبرأوا من أصلهم ولا أن ينسلخوا عن أرومتهم (أصلهم) العربية ولا نزاع أن رابطة الدم كانت ولا تزال من أقوى الروابط الجامعة بين الشعوب ولا نزاع أيضا فى أن رابطة العقيدة ذات تأثير عميق فى إجتماع الشعوب وإفتراقها ولكنها لا تنفى رابطة الدم ولا تمحوها من الوجود لا سيما إذا كانت رابطة الدم معززة برابطة الجوار ومقتضيات المصلحة المادية المشتركة ولقد أثبتت التجربة أن رابطة اللغة ورابطة الدم كان لهما فى جانبها مكان مع البال لا يقل عنها وفى بعض الأحيان جاءت رابطة الجوار مع رابطة المصالح المادية فإذا كانت سائر الأمم تجتمع على كلمة الوطن حفظ لمصالحها المادية وكرامتها الأدبية وإن المصالح لا تعمر والخيرات لا تدر والأوطان لا تصير عزيزة والأقوام لا تكون محترمة إلا إذا نبتت الإدارة على أساس العدل ودارت السياسة على محور العقل .

فصل

الدين والعصبيات

إن العصبيات لا يعنيها أن تجيب لأن العصبيات لا تعرف منطق العقل المعتاد إن العصبية حماس يشتعل وليست حقا يضىء هذه العصبيات هى فى نظر الدين حماقة كبرى والإعتراف بها هدم للأركان الأولى من الرسالات التى أنزلها الله عزوجل هداية للعالمين . إذ قوام هذه الرسالات أن الإنسان مسئول بنفسه عن نفسه يقدمه ما إكتسب من خير فحسب ويؤخره ما إكتسب من شر فحسب وقد أوضح الله هذه المبادىء لا فى القرآن فحسب بل فى كتب الأولين كذلك قال : تعالى (أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) (النجم 36-41)

وتلك قاعدة تمليها العدالة المجردة ومن ثم فهى قديمة مع الأزل مسترسلة مع الأبد لا يلحقها نسخ ولا يخدشها إستثناء قال : تعالى (مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا) (الإسراء 15) .

ولما كان الظن قد يسبق إلى أن إصطفاء الله عزوجل لبشر ما كيما يحمل أعباء الدعوة إليه ربما أشعر بإختصاص يخرجه عن هذه القاعدة **فإن** الله كذب هذه الظنون وبين أن المرسلين كغيرهم أمام هذا القانون العام قال : تعالى (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا) (الأحزاب 7-8)

وحدد الله عزوجل صلة الأتباع المستجيبين بالنبى الذى علمهم فكان هذا التحديد القاطع ردا للأقارب والأباعد إلى القانون الذى لا يهتم بقربى ولا قرابة قانون العمل والجزاء الذى لا يستطيع نبى أن يغير من نتائجه وإيماء لهذه الحقائق أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتلو (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الاعراف 188)

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) (الأنعام 50)

(قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ) (الأحقاف9)

هذه الأوامر الصريحة تهدف إلى إفهام كل البشر أين كان ومتى كان إلى أن تحليقه أو إسفافه طوع إرادته الحرة وأنه وغيره سواسية فى جو طليق رحب وأن كافة ما إختلقه الدجالون من تفاضل بأوطان أو أنساب أو ألوان هراء فى هراء .

هذا هو الحق فى حساب المثوبة أو العقوبة يوم الدين وهو الحق فى مقياس الرذيلة أو الفضيلة فى الدنيا ولا تحسبن ذلك مقياسا خاصا لضبط أعمال الأفراد وتسجيل ما تبلغه الأنفس من نقص أو كمال .

أما سياسة المجتمعات والدول فلها قانون آخر ذلك هو الضلال البعيد .

إن الله عزوجل شرع دينه نظاما للنفس والمجتمع والدول جميعا وما إعتبره شرا فى أحوال النفس هو شر مضاعف يوم يقوم عليه مجتمع وتبنى عليه حكومة وما دام قد أهدر الأنساب والألوان والأوطان فى تقدير الدول والشعوب ومن ثم فأساس الدول المحترمة عنده **أن** تنهض على دعائم من الخير والصلاحية لا على مزاعم من

الإنتفاخ الأجوف والعصبية العمياء فالمبدأ والتعارف عليه والإقتراب منه هو أساس الحكم لا قطعة من الأرض والمعيشة عليها والجوار فيها والحق الذى تكمل بإعتناقه وأنت فرد هو الذى تكمل بإعتناقه وأنت دولة إن الحق ليس الشمعة التى تضيئك من الداخل فقط بل هو الشعاع الذى تبصر عليه طريقك فى الحياة كذلك وقد جعل الله من دينه رابطة تقرب البعيد ورحما تعطف الأفئدة

فقال : تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات 10)

وقال : تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران 103)

وترابط الجماعة المؤمنة ليس عصبية من النوع الذى يغيناه وحاشا يكون كذلك

أول خصائص المجتمعين على الحق أن يسوسوا به أنفسهم وغيرهم

إن الإسلام عروة وثقى بين أتباعه جميعا فإن ذلك التناصر فى حدود دستور الإسلام القائل (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (المائدة 2)

وأى مسلك ينافى ذلك من المنتسبين إلى الإسلام فهو خروج على الإسلام إنما إحتقرنا العصبيات كلها لأن قانونها الهوى وإحتفينا بالدين لأن الذى شرعه أخذ به أتباعه أولا فهم محكومون به قبل غيرهم من الناس ومن المؤمنين بالإسلام على اختلاف منازعهم الأولى قامت به دولته الكبرى قامت على أساس الإنخلاع التام من دعوات الجاهلية .

العصبيات فى بلاد الإسلام

تكونت فى بلاد الإسلام عقدتان شنيعتان كأثر رجعى لتغلغل العصبيات فى كيانه وهيمنتها على مقدراته : -

الأولى : هو أن الكفايات الخاصة وكساد سوقها . إحساس الكثير أنها لن تصل فى جدواها إلى ما يصل إليه الحظ المواتى يمده بنسب عريق أو جاه وثيق .

الثانية : التواطؤ على كتمان الحق والحقائق . وتضخيم التوافه وتعميم الفساد ففى كنف هذه العصبيات تفهم الأمة الأمور فهما مقلوبا فإن الله عزوجل لما أثنى على اللمسلمين بخير ما فيهم قال : تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (آل عمران 110)

أى أن إحقاق الحق وإزهاق الباطل وإقرار الإيمان هى صفاتنا التى نتميز بها وإن المراحل شاسعة جدا بين (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وبين الأوضاع التى تضطرب فيها أمة تقسمتها العصبيات وأنامتها تحت وطأة رجعية مخرفة ملتاثة .

فصل

الإسلام ومثله الأعلى فى بناء الأمم

ليس المدار فى قيمة الأصول والتعاليم على أنها بالغة المدى بعيدة عن الكمال ولكن على تطبيقها والعمل بها والإصداق عليها المثل بأنها مجرد حبر على ورق والقرآن الكريم دعا إلى الألفة العامة بين الشعوب لا فرق بين أبعدها وأقربها ولا بين أسودها وأبيضها مقررا أن مدار الكرامة ليست بالإعتزاز إلى هذه الأمة أو تلك ولا بالإنتساب لهذا البيت أو ذاك ولكن بالمميزات الأدبية والمزايا النفسية فأشعر بذلك أنه لا يرمى إلى تأليف أمة على مبدأ الجنسية كما رمى بذلك جميع المصلحين قبله ولكن إلى تأليف أمة عالمية تذوب فيها الجنسيات والفوارق الإجتماعية ليتألف من مجموعها أمة تكون المثل الأعلى لما يجب أن يكون عليه الناس يوم تسقط من رءوسهم الأوهام القومية والأهواء الجنسية التى تفرق بينهم وتجعل من بعضهم أعداء لبعض وتؤجج بينهم نيران الحروب والغارات وهى حال تنافى الغرض السامى الذى خلق الإنسان لتحقيقه فى هذا العالم .

الدين يقوم على أصلين عظيمين الفطرة وسلطان العقل

إن هذه لمعجزة من معجزات الإسلام الخالدة وهذا الدين الذى يقوم على أصلين عظيمين هما إقامة الفطرة وسلطان العقل فإن الإسلام بدعوته إلى إقامة الفطرة طالب الأخذ به وأن يتخلى أولا عن جميع ما ورثه من التقاليد والأوهام وأن يكون أمام الحقائق كيوم ولدته أمه خالى الذهن من كل صورة خيالية أو وراثة تقليدية ومتى تم له إحداث هذه التخلية الذهنية طالبه بالأخذ بحكم العقل لا بحكم الهوى والوهم ومتى كان الحكم للعقل سهل إقناعه بكل جميل وحق فإن قيل أليس الناس كلهم أولاد أب وأم وأن أجناسهم وألوانهم أمور إعتبارية لا تمنع أن يكون بعضهم إخوان بعض لم يجد مناصا من الإذعان إلى هذا الأصل والتسليم به وإذا قيل له ألا يجب أن يكون تفاوتهم فى الأقدار والمراتب تبعا لمميزاتهم العلمية وميزاتهم الأدبية لا تبعا لإعتزائهم لجنس ولا تميزهم بلون أو لإنتسابهم لطبقة من طبقات الغنى والفقر لم يجد عليه إعتراضا

هذه الحقائق الكبرى التى لا يزال المتمدنون يعجزون عن الأخذ بها تعتبر لدى الذى تجرد من أوهامه وأهوائه بإقامة الفطرة على شرط الإسلام من الأمور البديهية فيندفع إلى الأخذ بها محفوزا بالقوى الأدبية المغروزة فى جبلته الأصلية هذا هو السر فى نجاح القرآن فى غرسها فى نفوس الآخذين به ولكنك لو توجهت بها إلى قوم مهما ضربوا من المعارف الكونية بأوفر السهوم ولم يكلفوا أنفسهم أن يكونوا من التجرد الذهنى على ما شرطه الإسلام فى أول أصوله لعجزوا عن تسويغها لنفوسهم فإلى أى مدى طبقت الأصول القرآنية العالية على المجتمع الإسلامى طبقت إلى آخر مدى يمكن أن تبلغه أصول فى أمة .

أكبر ما يصد الناس عن الإتفاق ويحول بينهم وبين نعمة التعاون العام هى روح القومية

هذا الإجتماع العالمى الذى طبع به الإسلام أهله الأولين صورة مصغرة لما ستكون عليه الحال حين يعرف الإسلام معرفة عامة ويصبح بعد أن تدرس أصوله على نور العلم دين البشرية كلها فى مشارق الأرض ومغاربها فإن أكبر ما يصد الناس عن الإتفاق ويحول بينهم وبين نعمة التعاون العام ويجعل من بعضهم أعداء لبعض هى روح القومية التى توهم ذويها أن قومها خير الأقوام وأنها إختصت من جانب العزة الإلهية بمميزات تجعل لها السيادة على العالم كله وأن جميع الأمم تقصر أن تصل إلى مستواها الأرفع بل منها ما تخيل لها تلك الروح أن نسبها يتصل بخالق الكون نفسه فلا عجب أن تتربص بعض هذه الأمم ببعضها الدوائر وأن تكون البقاع الأرضية فى نظرها ساحات حروب ترتكب فيها أشنع القساوات البربرية .

الروح الإسلامى الأقدس إذا حل ارتفعت الأوهام الشيطانية

ولكن اليوم الذى يحل فيه الروح الإسلامى الأقدس بما يقتضيه من العدل والمساواة والإخاء ترتفع من بينهما هذه الأوهام الشيطانية فيعيش الكافة إخوانا مترابطين بأشرف الروابط الأدبية وينفتح المجال أمامها للعمل على ما ينفع الناس على السواء

ويأخذه الناس عنهم غير متأثرين بروح الأنفة الجاهلية فيحل الوفاق بينهم محل الشقاق وتبطل من بينهم الحروب والغارات والمزاحمات الحيوانية .

الإسلام إذا أعلن الإخوة العامة والمساواة بين الناس إعترف بضرورة الطبقات الإجتماعية

مما يجدر بنا أن نزيده على هذا أن الإسلام وإن كان أعلن الأخوة العامة والمساواة بين الناس فقد إعترف بضرورة وجود الطبقات الإجتماعية فى الأمة ليقوم صرح الإجتماع على أمتن القواعد فلا تتسرب إليه الفوضى من ناحية من نواحيه وكل ما شرطه فى تأليف تلك الطبقات أن تكون بحسب المؤهلات العلمية والمزايا الأدبية قياما على سنة إسناد كل أمر إلى أهله الذين يستطيعون أن يقوموا بمهامه على أكمل حال وقد وجدت فيه هذه الطبقات منذ وجوده الأول فهو دين مدنى من كل وجه .

فصل

الإسلام ودعوته إلى وحدة العقيدة الدينية

من جهة أن الأصل واحد

من المسائل الإنسانية الكبرى التى تجعل للإسلام أثرا خالدا مستمرا وحقا تاريخيا ثابتا فى الإتصال بالشعوب المختلفة ما أتى به من الدعوة إلى الوحدة الدينية من ناحية أن أصل الأديان واحد وإنما تعددت الأديان وإختلفت بسبب ما أدخل على الدين الأول من الزيادة والنقص والتحريف هذه الدعوة كانت تعتبر لو خطرت فى ذهن رجل من الأقدمين من المحالات العقلية بسبب الإختلافات الكلية التى كان يراها بين الأديان ولا تزال تعتبر فى نظر المشتغلين بالشئون الإجتماعية ممن لا يعرفون الإسلام من الأمانى البعيدة التحقيق بسبب ما إختلطت به الأديان من الشئون القومية والتقليد الجنسية فجعلوا جهدهم موجها إلى عزلها جميعا عن مجال المعاملات المادية وإلى إبطال تأثيرها فى تكييف المجتمعات حتى يتم للإنسانية ما تعمل للوصول إليه من السلام العام والتعارف المتبادل دون أن يقف فى طريقها مانع من أى نوع كان ولكن لو تأمل هؤلاء المشتغلون بالشئون الإنسانية فى القواعد التى بنى عليها الإسلام هذه الدعوة وفى الحقائق التاريخية التى إستند إليها لرأو أنها أسرع فعلا فى جميع الأمم من كل الوسائل التى يستخدمونها لذلك وقد ظهر تأثير أسلوبه هذا فى جميع الأمم لأول عهده رغما عما كان للفوارق القومية بين الأمم من السلطان المطلق على عقولها فما ظنك اليوم وقد رقت حواشى هذه الفوارق فى نظر الشعوب إلى حد أنها تعتبر وهمية محضة وذلك بسبب ما إنتشر بينهما من التعاليم الفلسفية وما ذاع فيها من الآراء العلمية بالرجوع اليوم إلى أسلوب الإسلام فى جمعها من الناحية الدينية يكون له أضعاف ما كان له من قوة التأثير فى الشعوب الطفلة البعيدة عن كل ثقافة عقلية .

القواعد التى بنى الإسلام عليها دعوته فى

توحيد العقيدة الدينية

فلننظر الآن فى القواعد التى بنى عليها الإسلام دعوته فى توحيد العقيدة الدينية وفى الحقائق التاريخية التى إستند إليها لجعل تلك الدعوة سائغة فى العقول تصل منها إلى مواطن الإقتناع وتصبح فى نظرها من البديهيات التى لا يجوز التردد فيها : -

أولا : قرر الإسلام أنه دين الله واحد فى جميع العصور . وأنه أوحاه إلى أول رسول أرسله للبشر ثم وآلى إنزاله على المرسلين فى فترات من تاريخ الأمم تجديدا لما طمس من معالمه وبيانا لما أغمض من أصوله وتصحيحا لما حرف من آدابه

قال : تعالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) (الشورى 13)

ثانيا : أن الدين وضع إلهى . غرزه الله فى صميم الفطرة البشرية لا تشذ عنه نفس إنسانية وأنه بهذا الإعتبار أصبح فى حكم جميع الغرائز الجبلية التلا يختلف فيها إثنان من الناس قال : تعالى

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم 30)

وقال : تعالى (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (الأنعام 159)

والمراد بتفريق الدين الخلاف فى أصوله لا فى فروعه .

ثالثا : أنه نصب العقل الكامل علما . للإستهداء به فى كل خلاف تحت نور الوحى الإلهى .

رابعا : أن منشأ كل خلاف يشق عصا الناس فى أمر الدين . عليهم إرادة التفرق هو إرادة البغى وإهمال العقل والتقليد الأعمى قال : تعالى (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ) (الشورى 14)

وقال : تعالى (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (الملك 10)

وقال : تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة 170)

خامسا : أن الإسلام الذى أوحاه الله عزوجل إلى خاتم أنبيائه محمد صلى الله عليه وسلم . هو ذلك الدين الأول أرسله الله به على فترة من الرسل إلى الناس كافة ليبلغهم هذه الحقائق ويرفع من بينهم الخلافات التى قضت عليهم بها أهواؤهم وليست من مقتضيات العقل ولا من حقائق العلم فى شىء

قال : تعالى

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (آل عمران 19)

وقال : تعالى (أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) (آل عمران 83)

ولأجل أن يجعل الله لهذه الأمة الوحدة الدينية الإعتبار فى الأذهان جعل آية الإيمان مشتملة عليه فى عبارة تفصيلية لا يتسرب إليها أى تأويل قال : تعالى (قُولُوا آَمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ

مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (136) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) (البقرة 136-138)

فهذه القواعد التى أبانت أن أصل الأديان واحد يقبلها العقل بمجرد التأمل فيها لأنها من بداهاته الأولية **فإما** أن أصول دين الله كانت واحدة فى جميع العصور فأمر لا يسيغ العقل الكامل سواه لأن الحق لا يتعدد **وأما** أنه وضع إلهى فى مستوى الغرائز الفطرية فأمر لا يمكن التردد فيه لأن النفوس مفطورة على طلب الحق والإذعان لحكمه والخضوع له ما دام يهديها إليه نور العقل السليم .

منشأ الخلافات تفرق الشعوب

وأما منشأ الخلافات فى الأصول : التى تفرق الشعوب هو إرادة البغى وإغفال حكم العقل والتقليد الأعمى لما كان عليه الأسلاف فحقيقة لا يمكن إنكارها والتاريخ أصدق شاهد على صحتها فإذا تجرد الإنسان من هذه النقائص كلها وترك للعقل الصحيح الحكم فى إدراك الدين الحق أفضى به إلى الإسلام لا محالة وأخذ الناس بهذه القواعد فى العصر الحاضر أصبح من أيسر الأمور فإن إنتشار العلم فى طبقات الناس وكثرة ما يصادفونه فى مطالعاتهم من وجوب الإستقلال فى الفكر والنظر وتكوين الأحكام الخاصة قد مهد الطريق لهذه القواعد الإسلامية وإنما المدار على تقديمها للناس فى أسلوب جدير بجلالتها وبيان خليق بقيمتها .

سلامة الأمم تتوقف على التعارف

إن العقائد الدينية المنتشرة بين الأمم قد إختلطت بكيانها القومى فأصبحت عنصرا من عناصرها حتى إنك لترى كثيرا من الأمم مع إعتقادها بطلان أديانها تتمسك بها إبقاءا على قومياتها ولكن مبدأ القومية أخذ ينحل بما تنفثه الحوادث فى روع الأمم من روح

التقرب بينها وإعتقاد أن سلامتها جميعا تتوقف علـى التعـارف الـذى يفضـى بهـا إلـى العيش كأمة عالمية واحدة .

فصل

وحدة الأمة من الأهداف الرئيسية للإسلام

من الأهداف الرئسية التى سعى الإسلام إلى تحيقيقها المحافظة على وحدة الأمة الإسلامية ولعل هذا الهدف هو أهم الأهداف على الإطلاق فالله سبحانه وتعالى يريد لنا أن نكون متحدين متحابين لا يفرقنا شىء وشرع لنا من أمور الدين ما يرسخ فينا الإحساس بالوحدة فجعل لنا رموزا تعلمنا كيف نكون متحدين فمثلا شرع لنا الله الصلاة وكان يمكن أن يؤدى كل مسلم الصلاة وحده إلا أن الله سبحانه وتعالى حبب إلينا أن نجتمع للصلاة وجعل ثواب صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة فالله سبحانه وتعالى شرع للمسلمين خمس صلوات ورغبهم فى آدائها فى المسجد ليجتمع الناس فى كل بلد فى وقت واحد خمس مرات فى اليوم لتتعمق فيهم أحاسيس الوحدة ثم إن المسلمين جميعا يتوجهون فى صلاتهم إلى مكان واحد وهو الكعبة المشرفة ثم شرع لنا الصيام ووحد المسلمين جميعا فيه فالمسلمون جميعا يصومون فى شهر واحد هو شهر رمضان ويبدأ صيام المسلمين فى وقت واحد تقريبا وإفطارهم فى وقت واحد وأعيادهم واحدة ثم شرع لنا الحج ليلتقى فيه كل المسلمين من جميع أقطار الأرض فى وقت واحد ويقفون على عرفات جميعا فى وقت واحد ومكان واحد يقولون كلاما واحدا **وهكذا** فإن الله سبحانه وتعالى يذكرنا دائما فيما شرع لنا من عبادات بهذه الحقيقة حتى لا ننساها .

آيات القرآن الكريم تحث على الوحدة وعدم التفرقة

هناك آيات عديدة فى القرآن الكريم كثيرة تحث المسلمين على الوحدة وعدم التفرقة فالله سبحانه وتعالى يخاطبنا على أننا أمة واحدة لا أفراد ولا جماعات ولا فرق

يقول : تعالى (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء 92)

ويقول : سبحانه للنبى صلى الله عليه وسلم(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (الأنعام 159)

ففى هذه الآية يخبر الله النبى صلى الله عليه وسلم بأن الذين يفرقون شمل المسلمين ويجعلون الناس شيعا أى فرقا وجماعات مختلفة فإنهم بعيدون عن الدين والنبى يجب عليه أن يتبرأ منهم ويقول : تعالى (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران 105)

فالله سبحانه وتعالى يخاطب المسلمين ويطلب منهم أن لا يكونوا مثل أصحاب الديانات الأخرى الذين تفرقوا وإختلفوا فيما بينهم ووضح أن الذين يفرقون شمل الأمة سينالهم عذاب عظيم .

التفرق فى الدين عمل من أعمال الشرك

والله سبحانه وتعالى يخبرنا أن التفرق فى الدين عمل من أعمال الشرك يقول : تعالى (وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ) (الروم 31-32)

أى كل فرقة تتفرق وتقول إنها على الحق وأن غيرها على الباطل فهى تقع فى عمل من أعمال الشرك وكلنا يعلم أن الشرك هو أعظم ذنب فهو الذنب الذى لا يغفره الله أبدا حتى يتوب منه صاحبه .

الأحاديث النبوية تحذر من تفريق الأمة

وأما الأحاديث النبوية التى تحذر من تفريق الأمة فكثيرة فالنبى صلى الله عليه وسلم وهو على فراش الموت كان يقول " عليكم بالجماعة أى حافظوا على جماعة المسلمين ولا تفرقوا وحدتهم فإن من حاد عن الجماعة قيد أنملة فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه " رواه الترمذى

ومعنى ذلك أن من إبتعد عن جماعة المسلمين وإعتزلهم ولو فى شىء بسيط فكأنما خرج من الإسلام وابتعد عنه ويقول صلى الله عليه وسلم " تفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار إلا واحدة قالوا وما هى يا رسول الله قال ما أنا عليه وأصحابى " رواه الحاكم فى المستدرك

فالنبى صلى الله عليه وسلم خبرنا بأن من يقوم بعمل فرقة أو جماعة فإن مصيره إلى النار وأنه لن ينجو من النار إلا الذين صاروا على نهج النبى صلى الله عليه وسلم من عدم الفرقة والتمسك بالوحدة

لا سبيل إلى عزة المسلمين وإنتصارهم إلا بأن يتحدوا ويبتعدوا عن الإختلاف

لكن بعد كل هذه النصوص التى تحذر من التفرق نجد أن المسلمين اليوم قد أصابهم هذا الداء وأصبحوا فرقا وجماعات مختلفة يصارع بعضها بعضا ويكفر بعضها بعضا ونسوا كل هذه الأمور ولذلك أصبح المسلمون الآن فى حالة يرثى لها وذلك لأنهم تفرقوا وإختلفوا ولا سبيل إلى عزة المسلمين وإنتصارهم إلا بأن يتحدوا ويبتعدوا عن الخلاف خاصة أن هناك عوامل كثيرة تجمعنا فالدين واحد والتاريخ واحد والقرآن واحد والسنة بيننا وحضارتنا وثقافتنا واحدة وهذه أمور لا تتوافر لغيرنا فكم من أمم توحدت وليس بينها ما يجمع شملها لا لغة ولا ثقافة ولا تاريخ بل تاريخهم مختلف والعداوة بينهم كانت كبيرة فى الماضى فأوروبا مثلا توحدت رغم الحروب القاسية التى حدثت فنحن أولى بالوحدة من غيرنا خاصة أننا نعيش فى عالم لا يعرف إلا القوة ولا قوة بغير إتحاد .

الإسلام والوحدة الدينية

الإسلام دين الوحدة لا التوحد فقط

الإسلام دين الوحدة لا التوحد فقط : فقد أخذت كلمة التوحيد معنى خالصا لا تعدوه وهو القول بإله واحد خلق السماوات والأرض وما بينهما وإليه يرجع الأمر كله والإسلام لا يدعوا إلى توحيد الخالق فحسب بل إنه قام على الوحدة فى كل أمر وشىء من الناحية الإلهية والناحية السياسية والناحية الإجتماعية إلى غير ذلك من نواحى العالم والحياة ولم يكتف الإسلام بتقرير هذه الوحدة فى الإله الذى يستحق العبادة بل يبين لنا أنه وسائر ما سبقه من أديان سماوية وحدة واحدة ورسالة من الله تعالى للبشرية عامة بعضها يكمل بعضا طبقا لسنة التدرج فى التعلم والتربية وكلها تهدف إلى غاية واحدة وإن اختلفت وسائل الوصول إليها بإختلاف الأزمان والناس **والإسلام** يعتبر رسالات الأنبياء جميعا واحدة لا تحتمل التفرقة وأن من لم يؤمن بأحدهما لا يكون مسلما قط .

نتيجة لذلك يكون الناس جميعا أمام هذه الديانات والشرائع وأمام الله سواء بلا تفرقة بين أتباع هذا أو ذاك من الرسل ما داموا يؤمنون برسالة خاتم الأنبياء والرسل عليه وعليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام .

الفكر الإسلامى لم يعرف مصطلح الأقلية وإنما عرف مصطلح الأمة الواحدة

إن تاريخ الفكر الإسلامى لم يعرف مصطلح الأقلية وإنما عرف مصطلح الأمة الواحدة التى جعل الإسلام تنوعها وإختلافها وفى الشعوب والقبائل وفى الألوان والأجناس والألسنة واللغات وفى العادات والتقاليد سنة من سنن الله الثابتة التى لا تبديل لها ولا تحويل

فصل

لتـــــــــــــــعارفـــــوا

رؤية المعرفة

يقول : تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات 13)

يا أيها الناس خطابا للبشرية كلها بتنوعها وتعددها وإختلاف ألسنتها وألوانها وهو نداء يخاطب الكينونة الإنسانية فى جميع البشر ولازم ذلك تساويهم فى المقام والكرامة والتكريم ومن ثم فهو خطاب عالمى وإنسانى التوجه والتوجيه (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) تذكير بحقيقة وحدة الأصل الإنسانى للبشرية جمعاء رغم إختلاف الناس وتعددهم فى المكان والزمان والأفكار فهم رغم كل شىء أسرة واحدة ممتدة زمانيا ومكانيا ووحدة الأصل هذه تستلزم فى المقام والكرامة والتكريم وتنفى تحت أى دعوى من الدعاوى أوهام الإستعلاء لبعض الأجناس أو القوميات أو الأعراف أو الشعوب على بعض وتذكير كذلك بعنصر الزوجية والثنائية والتعددية التى قام ويقوم عليها الكون بكل ما فيه فلا إنفراد ولا إستفراد بل إجتماع ومجامعة وجماعية فتصور الوجود فى الإسلام قائم على واحدية وأحدية ووحدانية الله تعالى وزوجية وثنائية وتعددية كل ما عداه (وجعلناكم شعوبا وقبائل) إقرار وتذكير بحقيقة التنوع الإنسانى العرقى والإجتماعى والتاريخى ومن ثم الفكرى فالتنوع فى الألسن والألوان والأعراف يؤول ولا بد إلى تنوع فى الدين والمذاهب والمرجعية والرؤية الفلسفية والنظم السياسية والإقتصادية والإجتماعية والتعليمية ,

(لتعارفوا) فى اللغة العرف الرائحة الطيبة العطرة الزكية وعرفت الشخص أى أصبت عرفه أى رائحته وأعرف الطعام **أى** طاب عرفه أى رائحته وعرفه **أى** طيبه وحسنه **.** يقول : تعالى (وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ) (محمد 6)

طيبها وحسنها وزينها لهم وشوقهم إليها **ومن ثم** فالمعروف هو المستحسن غير القبيح

وهو الأمر بين الناس إذا رأوه لا ينكرونه أى لطيبه وحسنه والمعروف اسم لكل أمر يعرف بالعقل أو بالشرع حسنه والمعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره وهو تعريف منبثق عن إدراك وجود الشيء الطيب بوجود أثر رائحته طيبة له أى العلم المتوصل إليه بتفكر وتعارفوا أى تعرف بعضهم إلى بعض وفيه إدراك متبادل للوجود والماهية فى جو طيب معطر زكى يغلف المكان وعرف بعضهم بعضا

فالتعارف تفاعل فى المعروف تفاعل فيما هو معروف ومتعارف عليه **أى** إقامة علاقات بين الناس بالمعروف ووفق ما يتعارف عليه الناس **أى** إقامة العلاقات بين الناس بالحسنى وفيما هو مستحسن .

التعارف يقابل التناكر ويستلزم التآلف

التعارف يقابل التناكر يقول : تعالى (فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ) (يوسف 58)

ويقول : صلى الله عليه وسلم " الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها إئتلف وما تناكر منها إختلف " رواه الإمام أحمد

ومن ثم فالتعارف يستلزم التآلف بينما التناكر يستلزم التخالف ومن هنا تكتمل منظومة التعارف فالتآلف فالتفاعل فالتعاون والتكامل لتعارفوا إذ هو تنوع العلاقة التى يجب أن تكون بين البشر المتنوعين بالضرورة كما أكد الوحى والتاريخ والواقع ماديا ومعنويا معرفيا وإجتماعيا ليتم إعمار الأرض وإكتشاف كنوزها وخيراتها وتبادل منافعها بأن تكون بيتا تعارفيا تآلفيا تعاونيا مشتركا عامرا آمنا حاضنا للجميع.

عالمية التوجه التعارفى

إن عالمية التوجه التعارفى هذه من خصائص الإسلام فرب الرسول صلى الله عليه وسلم هو رب العالمين كل العالمين ورب الناس وكل الناس ورسول هذا الدين ذاته ما أرسله ربه إلا رحمة للعالمين وكان النبى صلى الله عليه وسلم بعثه إلى الناس كافة وكل نبى يبعث فى قومه خاصة وكتاب هذا الدين القرآن الكريم ليس للعرب وحدهم قال : تعالى (إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ) (الأنعام 90)

فهذه هى طبيعة الدين نفسه فهو ليس دعوة عربية ولا شرقية ولا غربية ولا عرقية ولا إقليمية بل هو دعوة للعالمين كل العالمين فكيف يكون رب العالمين وكتابه للعالمين ودينه للعالمين دون أن يدعوا هذا الدين للتفاعل مع العالمين ولا يكون تفاعل إلا بعد تعارف بكل ما يستلزمه هذا التعارف .

المعرفة تستلزم الإستماع والحوار لا التصادم

فالصدام مآله إلى فناء

المعرفة تستلزم الإستماع والحوار لا التصادمفالصدام مآله إلى فناء : والمعرفة والتى لا تكون إلا فى جو معطر طيب ذكى لا يمكن بضرورة التعريف والمنطق مع أن تقوم على النار وإنما تستلزم النور ولا يمكن أن تقوم على السيف وإنما تستلزم الإستماع والحوار ولا يمكن أن تكون صدامية فالصداه مآله الإفناء ومن ثم فعلى من ومع نتعارف **وإنما** تستلزم أن تكون تآلفية تعاونية تبادلية ومن ثم تكاملية ولا يمكن أن تتم فة جو مشحون بالكراهية وضيق الصدر وإنما تستلزم المودة واللطف ورحابة الصدر .

قيام التعارف الصحيح

إن القيام بالتعارف الصحيح يستلزم إنتفاء نية النزاع والصدام وإنتفاء النزعة الإستعلائية وشهوات الهيمنة وإنتفاء ازدواجية المعايير فى التعامل ونفى أى إدعاء بتجمع الشرور والرذائل فى قطاع بعينه دون غيره من البشر وذلك أن الفضائل والرذائل مشاع بين الأمم والشعوب تتفاوت أرصدتها فيها بالكسب والتدافع فتتعدل مواريثها منها وتتفاوت أرصدتها فيها دون أن تكون حظوظها منها طبعا وجبلة يستعصيان على التعديل والتغيير .

ما يستلزمه التعارف الإيجابى

الإعتراف المتبادل بالحق فى الوجود والتنوع والإختلاف أى قبول التعددية والإستماع المتبادل للأفكار والتصورات والتعاون المشترك على فض مغاليق الحياة والكون المادية والمعنوية وبتعبير آخر فالتعارف يستلزم الرغبة فى اللقيا والتفاعل الحنون معنويا وماديا وهذا الإستلزام يستبطن ويؤول معا إلى التآلف الذى يبقى على

ذاتية العناصر التى تم التآلف بينها ويحافظ عليها لتتفاعل معا دون نفى لأى منها أو تذوب لأحدهما فى الآخر .

مـــــــــآل التعارف

الإدراك الواقعى للآخرين أفكار وأشخاصا وذوات وماهيات دون وسائط أو حواجز ومن ثم تصحيح الصورة النمطية عنهم مما يفضى إلى إحسان التعامل معهم ومآل التعارف يؤدى إلى الحوار حول الأفكار مما يؤدى إلى تبادل للخيرات والتعاون والتكامل والتساند فى الإنتاج والأعمار .

بقيام التعارف يكون استباق الخيرات

بقيام التعارف الذى يستلزم إنتفاء نزعة الإستعلاء والإستنكار التى تجمد مبدأ الإستباق ينفتح الباب على مصراعيه للإستباق خاصة وأن التنوع والتعدد والإختلاف والتمايز هو المحفز الأكفأ ودواعى التدافع الأعظم على خوض إختبارات المنافسة والإستباق فى ميادين الإبداع والإرتقاء بين الفرقاء المتمايزين المختلفين

قال : تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) (المائدة 48)

وقال : تعالى (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) (البقرة 148)

لولا التعددية والتنوع والإختلاف لضمرت

أسباب التنافس

لولا التعددية والتنوع والإختلاف فى إطار التعارف لا التجارب لضمرت حوافو الإستباق ودواعى التدافع وأسباب التنافس بين الأفراد والأمم والشعوب والأفكار والمذاهب والديانات والفلسفات والحضارات ولأضحت الحياة سكونا آسنا متعفنا ومواتا لا حيوية فيه ولا تجدد ولا نماء وجماع الأمر كله أن التعارف تواصل تفاعلى حنون فى المعرفة والإجتماع معا لا إستئصال عدوانى ولا سكون سلبى لا إنغلاق فيه ولا ذوبان .

فلسفة التعارف

فلسفة التعارف رؤية ربانية المصدر أرشد الوحى إليها وأكد عليها إنسانية الوجهة تعيد الإعتبار للإنسان وتؤكد على كرامته ومحوريته سيدا فى الكون لا سيد عليه مستخلفا فيه لا قاهرا فوقه تدعوا إلى التفاعل بين الحضارات والتلاقح بين الثقافات والمقارنة بين الأنساق الفكرية والتآلف والتعاون والتساند والتكامل بين الأمم والشعوب والدول ترى العالم منتدى حضارات بين أعضائه مساحات كبيرة من المشترك الإنسانى العام يمكن التعارف فيها والبناء عليها لكل منهم هوية حضارية وخصوصية ثقافية يتميز ويتفرد بها ومصالح وطنية وقومية وحضارية وإقتصادية وأمنية تخصه لا بد من مراعاتها فى إطار من تكامل المصالح وإرتفاقها وتوازنها لا تضادها وتنافيها وصراعها وعلى قاعدة المساواة فى الكرامة والعدالة فى تبادل المنافع بلا طغيان ولا إخسار بدلا من فلسفات ونزعات الصراع والصدام والهيمنة والقهر والإستغلال .

الباب الثانى

وحدة الأمة الإسلامية

المسلمون أمة واحدة قرر ذلك القرآن الكريم الذى هو البلاغ الإلهى الذى يحفظونه ويقدسونه وهم يتلونه فى صلواتهم آناء الليل وأطراف النهار يقول : سبحانه وتعالى

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء 92)

ويقول : سبحانه

(وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (المؤمنون 52)

ووحدة هذه الأمة وما تثمرها من ألفة وإئتلاف هى إرادة إلهية وصناعة ربانية وليست مجرد نزوع بشرى دنيوى

قال : تعالى (وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال 62-63)

وتاريخ هذه الأمة الإسلامية شاهد بصدق يعلن بكل ألسنة الحال والمقال أن وحدتها هى التى جعلتها حتى عندما كلنت قلة قليلة تزيل القوى العظمى وتفتح فى ثمانين عاما أوسع مما فتحه الرومان فى ثمانية قرون وتبنى الحضارة الوسطية المتوازنة التى أنارت الدنيا وعلمت الشعوب وجعلت المسلمين العالم الأول على ظهر هذا الكوكب لأكثر من ثمانية قرون ومع هذه الفريضة الإلهية ومع شهادة التاريخ فإن واقع هذه الأمة الإسلامية يصرخ بأعلى صوت .

إن تمزق هذه الأمة وغيبة التضامن والتساند والتكافل والإتحاد عن شعوبها وأوطانها هو الذى مكن ويمكن الأعداء وشذاذ الأفاق فثرواتها منهوبة وأرضها ترزخ تحت نيران القواعد العسكرية الأجنبية وبحارها ومحيطاتها تسرح وتسرح فيها الأساطيل المعادية

التداول سنة من سنن الله فى الإجتماع الإنسانى

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد علمنا فى قرآنه الكريم أن التداول سنة من سنن الله فى الإجتماع الإنسانى وعبر تاريخ الأمم والحضارات(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) (آل عمران 140-141)

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (محمد 38)

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علمنا أن هذا التداول هو الذى يجعل خط سير التاريخ يأخذ شكل الدورات فكما يتم التداول بين الليل والنهار كذلك يتم التداول بين العدل والجور وبين الصعود والهبوط وبين التقدم والتخلف وبين النهوض والانحطاط وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : " لا يلبث الجور بعدى إلا قليلا حتى يطلع فكلما طلع من الجور شىء ذهب من العدل مثله حتى يولد فى الجور من لا يعرف غيره ثم يأتى الله تبارك وتعالى بالعدل فكلما جاء من العدل شىء ذهب من الجور مثله حتى يولد فى العدل من لا يعرف غيره " رواه الإمام أحمد

إذا كان كذلك الحال وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد علمنا أن الخير فيه وفى أمته إلى يوم القيامة وأن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة قال : صلى الله عليه وسلم " لا تجتمع أمتى على ضلالة " رواه الدارمى

فإن على أولى العزم والهمة من العلماء المفكرين المرابطين على ثغور الإسلام أن يجاهدوا فى سبيل توحيد أمة الإسلام لتتكامل أوطان دار الإسلام ويمنحون كامل الولاء لهذا الدين الذى جمع المؤمنين به على هذه الجوامع الخمسة وحدة العقيدة ووحدة الشريعة ووحدة الحضارة ووحدة الأمة ووحدة دار الإسلام .

التعددية والتمايز والإختلاف من نعم الإسلام

إذا كانت التعددية وكان التمايز والإختلاف فى إطار هذه الجوامع الخمسة هى نعمة من نعم الله التى جاء بها الإسلام فإن النقمة إنما تتجسد فى الخلاف الذى يجعل بأس

المسلمين بينهم شديد وفى مقدمة أسباب هذه النقمة نزعة التكفير التى تقصم وحدة الأمة وتقصم العرى والوشائج التى ألف بها الإسلام بين قلوب المسلمين ولقد رسم القرآن الكريم صورة هذه الأمة كما أرادها الله سبحانه وتعالى عندما قال : تعالى

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (الفتح 29)

أما إذا شاعت نزعة التكفير : بين مذاهب الأمة وفرقها وتياراتها فإن هذا الباب سينفتح واسعا أمام الإختراقات المعادية التى نشهد الكثير منها هذه الأيام فى العديد من بلاد الإسلام **بل** سيصبح فرقاء هذه الأمة أشداء على أمتهم رحماء على أعدائها ومتحالفين مع هؤلاء الأعداء .

إن سفينة الأمة الإسلامية تتناوشها الأمواج العاصفة فى محيط عالمى أعلنت الفرعونية والقارونية الغربية فيه الحرب الصليبية على الإسلام وحضارته وعالمه وإن مذاهب هذه الأمة الإسلامية هى الألواح المونة لهذه السفينة فهى لبنات عقل الأمة ووجدانها المحركة لعامتها وجمهورها وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يعلمنا منهاج الحفاظ على سفينة الأمة فيقول : " مثل القائم على حدود الله والمداهن فيها كمثل قوم إستهموا سفينة فى البحر فأصاب بعضهم أسفلها وأصاب بعضهم أعلاها فكان الذين فى أسفلها يصعدون فيسقون الماء فيصيبون على الذين فى أعلاها فقال الذين فى أعلاها لا ندعكم تصعدون فتؤذوننا فقال الذين فى أسفلها فإننا ننقبها من أسفلها فنسقى فقال : الرسول صلى الله عليه وسلم فإن أخذوا على أيديهم فمنعوهم نجوا جميعا وإن تركوهم غرقوا جميعا " رواه البخارى والترمذى وأحمد

وهكذا يصنع التفكير عندما يخرق وحدة الأمة ويفكك مكونات سفينتها بينما تتناوشها الأمواج والعواصف فى محيط قد أعلنت قواه الكبرى الحرب الضروس على الإسلام والمسلمين (وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) (الكهف 79)

معالجة هذه النزعة التدميرية وهذه الفتنة

معالجة هذه النزعة التدميرية وهذه الفتنة : لمعالجة هذه النزعة التدميرية نزعة التكفير لأهل القبلة ولمواجهة هذه الفتنة التى كانت قابعة فى بطون بعض الكتب

المذهبية وفى عقول بعض الذين يرتزقون من التعصب المذهبى والتى أشاع الإعلام المعاصر بثورة الإتصالات فاحشة بين العامة والجمهور يجب أن يتداعى العلماء والمفكرون والمرابطون على ثغور وحدة الإسلام وأمته وحضارته .

وحدة المجتمع الإسلامى ترجع إلى الإسلام

إن وحدة المجتمع الإسلامى : ترجع إلى الإسلام ووحدة المجتمع الإسلامى ترجع إلى قيام القواعد والنظم الإجتماعية على مفاهيم ومعطيات الإسلام وقد ظلت وحدة المحتمع الإسلامى قائمة سواء كان العالم الإسلامى دولة واحدة أو دولا متعددة لأن المجتمعات الإسلامية ظلت محتفظة بقواعدها ونظمها الإسلامية على مفاهيم الإسلام ومعطياته ظلت وحدة المجتمع الإسلامى قائمة حتى أواخر القرن الماضى وهو الوقت الذى إحتل فيه الإستعمار معظم الأراضى والبلاد الإسلامية وبدأ الغزو الفكرى الإستعمارى العلمانى للمجالات الثقافية والإقتصادية والسياسية والتربوية والتعليمية وغيرها .

تغيير النظم والقواعد الإسلامية

أدى إلى التشتت والتمزق

إن تغيير كثير من النظم والقواعد الإسلامية وإحلال محلها نظم وقواعد مستوردة من الغرب تحمل المفاهيم الغربية أدى ذلك إلى هذا التشتت والتمزق الذى يهدد وحدة المجتمعات الإسلامية لأن النظم والقواعد المستوردة تخص المجتمعات الغربية وتاريخا ومفاهيمها الدينية والثقافية والحضارية فهى مختلفة عن النظم والقواعد الخاصة بالمجتمعات الإسلامية بدينها الإسلامى وتاريخها ومفاهيمها الدينية والثقافية والحضارية الإسلامية ويجب أن نفرز ونغربل وننقى نظمنا وقواعدنا وقوانيننا الإسلامية مما أصابها من النظم والقواعد الدخيلة فى شتى المجالات الإقتصادية والسياسية والثقافية والإجتماعية وغيرها حتى تشفى مجتمعاتنا الإسلامية من هذا التمزق الذى تعيشه والذى يهدد وحدتها .

الإسلام يدعوا إلى الألفة العامة بين الشعوب

بعد أن أعلن الإسلام أنه الدين الحق وبين الأساس الذى يقوم عليه من الفطرة السليمة والعقل الكامل شرع فى إحداث اصلاح إجتماعى تستدعيه مدنية فاضلة أراد الله تعالى أن يكون الدين الإسلامى مفتتح عهدها وواضع أساسها هذا الإصلاح الإجتماعى الخطير هو دعوة الشعوب كافة إلى التآلف العام بين جميع الأجناس هذه الألفة العامة التى أعلنها الإسلام تعتبر فاتحة لعصر جديد ستدخل فيه الأمم ومقدمة لما سيعقبها من الأصول القرآنية العالمية التى قصد بها إلى توحيد الوجهات والغايات البشرية .

إن الله جعل الناس شعوبا وقبائل ليعرف بعضهم بعضا ويقوموا على سنة التآلف والتواد والتعاون على تذليل عقبات الحياة وتوفير وسائل العمران ليكون ذلك ماحيا للتناكر الذى جر إلى الحروب ويؤدى إلى الدمار فإن الحرب فى العادة سجال والنصر دولة بين الناس وهى إذا كانت للأغراض المادية البحتة أوغرت الصدور وملأت القلوب بالسخائم وإستدعت الإنتقام وكل ذلك يقوض أركان النظم ويحطم صروح الإجتماع ويستنفذ قوى الشعوب فى كيد بعضها البعض وتربص بعضها الدوائر ببعض وإذا تخيلت عالما كل ما فيع من الجماعات متأثر بهذا الروح ظهر لك كأنه ساحة حرب لا يقر فيها السيف فى قرابة ولا يثوب فيها الإنسان إلى رشده تجرى فيها الدماء أنهارا وتسيل فيها المهج إسرافا وبدارا وماذا كنت رائيا لو كانت تتبدل هذه الحال المنكرة بألفة عامة بين الشعوب والقبائل وسلام يضرب سرادقه عليها جميعا .

أما : كانت تتحول قواها الأدبية إلى ما خلقت له من إقامة صرح الخير العام فى العالم هنا تشعر النفس بسمو هذا الأصل شعورا يكاد يدفعها إلى الأخذ به دون أن تتردد فيه لولا ما يثور فيها من بقايا العصبية التقليدية من إدعاء كل قبيل بأنه أولى بالزعامة والأحق بالكرامة محتجا بأن جنسه أشرف الأجناس البشرية وأن من عداه فأجدر به أن يبقى فى العبودية وأن يحمل له نير التبعية وهنا يتلقاه الأصل الكريم الثانى وهو قوله : تعالى (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

(الحجرات 13)

أتقاكم أى أخوفكم لله وأعملكم بمحابه من العدل والإنصاف والمساواة والوفاء بالعهد ومكافحة الشهوات والخضوع لسلطان العقل والخروج من طاعة الهوى والإنتداب لإحقاق الحق وإزهاق الباطل والتخلق بأخلاق الله والإضطلاع بخلافته فى الأرض بهذاالأصل السامى أصيبت العصبية فى مقتلها وجدع أنف الجنسية من منبته وسقطت جميع الخلافات الإجتماعية فلم يبقى ما يمنع أن يعيش الناس إخولنا متعاطفين متكافلين غير ما علق فى النفوس من إيثار الفرقة وأصبح من غرائزها بسبب أخذها بتعاليم ضالة وتقاليد ضارة يجب العمل على إجتثاث أصولها وتطهيرالصدور من آثارها وهوالأمرالذى نيط بالإسلام أن يقوم به عن طريق بث تعاليمه ونشر أصوله وتعميم مبادئه بكل وسيلة من الوسائل المشروعة .

الأمة الإسلامية خير الأمم

صرح القرآن الكريم بأن الأمة الإسلامية خير الأمم ولكنه علل هذه الخيرية بما إتخذته لنفسها من جليل المهام وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله ولم يعللها بتفوقها فى الجنسية ولا بقهرها للأمم الأجنبية قال : تعالى (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ)

(آل عمران 110)

فلو تنافست الأمم كلها لإستحقاق هذه الخيرية لكان أثر ذلك خير وبركة على الكافة ولتحابت الأمم وتعاونت على البر والتقوى فإن التنافس فى هذا المجال يؤدى إلى التكافل والتساند يقول قائل إنك تكلف الناس اليوم ما لا طاقة لهم به فأين تلك هى النفوس التى تنزهت عن السفاسف لتجرد أعمالها لوجه الله وهى فى معمعان فتنة صماء من قشور هذه المدنية وهل أبقت المطالب الشهوانية من أفئدتها مكانا لمثل هذه الوجهة العلوية ؟ نقول : هم بين أمرين فإما أن يبقوا على ما هم عليه فلا تنقطع من بينهم العداوة والبغضاء والتحاسد والتحاقد وما يجرانهم إليه من فتن كقطع الليل المظلم تدع الحليم حيران وإما أن يعملوا على حسم مادة هذه العوامل الموبقة برفع

مثلهم الأعلى إلى الأوج الذى رفعه إليه الإسلام فينعموا بسعادة الحياتين وينالوا الحسنيين .

دعوة الإسلام لتطهير القلوب

إن للإنسان عقل وقلب وهما وإن كانا مظهرين لروحه فإنهما لإختلاف إختصاصيهما فى حياته الأدبية قد يعتبران مستقلين لكل منهما مقوماته خاصة وسلطان خاص فمقومات العقل العلوم ومهمته النظر والتمحيص والإدراك للواقع ومقومات القلب الشعور الفياض والعواطف الكريمة ومهمته تجلية الجمال فى كل شىء وإقامة الجمال كغاية قصوى للحياة والإنسان بين هذين المظهرين الروحيين يطلب إليه أن يقوم على حال تمكنه من الإستفادة منهما وتجنبه التدافع بينهما ليصل إلى أرقى ما أعد له من منازل الكرامة ومكانات الرفعة وليعيش عيشة الحاصلين على السعادتين معا .

الأمم لا تقوم على جادة الحياة الصحيحة إلا إذا تعادل فيها المظهران

قد شوهد من إستقراء أحوال المجتمعات المختلفة فى خلال العصور أن الأم لا تقوم على جادة الحياة الصحيحة إلا إذا تعادل فيها هذان المظهران الروحيان فإن طغى أحدهما على الآخر اضطربت أحوالها على نسبة ذلك الطغيان وتعرضت للمثلات الإلهية فإما إجتاحتها أمة مناظرة لها أو هلكت مكانها تحت قلاقل الإضطرابات الداخلية .

الإسلام عنى بتربية القلب عنايته بتربية العقل

الإسلام الذى أنزل رحمة العالمين قد عنى بتربية القلب عنايته بتربية العقل فكما منح العقل سلطانه فى التمييز بين الحق والباطل أعطى القلب سلطانه ليقود الإنسان إلى العواطف النبيلة ويفتح له كوة إلى عالم الروح كى يستمد من نفحاته ما يقوى به على الدواعى البدنية الثائرة عليه قال : تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (سورة ق 37)

ولم يقل تعالى لمن له عقل إيذانا بسلطان القلب فى الردع وعدم كفاية العقل وحده فى ذلك فقد يعقل الإنسان ما تجرعليه النكرات فلا يقوى وحده على الإقلاع عنها إلا إذا أيده قلب ولولا ذلك ما وجد على سطح الأرض من يجرى وراء منكر قط فإن أقل الناس يدرك سوء المنقلب مما يجترحه من السيئات ولكنه الحرمان من عزيمة القلب لا يصادف وازعا يزعه عن الغى فيتمادى فى غيه .

القلوب المريضة لا تقبل الحق

قد نبه الله عزوجل أن القلوب المصابة بالأمراض المعنوية تضعف عن آداء مهمتها الكريمة فى حياة الإنسان قال : تعالى

(فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) (البقرة 10)

علل بذلك عدم قبولهم للحق وإلا فلو كانت صحيحة ما منعتهم عن قبوله شىء وإلى ذلك أشار النبى صلى الله عليه وسلم " ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب " رواه البخارى

وقد زاد الله فى التنويه بسطان القلب فقال : تعالى (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا) (الأعراف 179)

وقال : تعالى

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (الحج 46)

فصغر عاهات الجوارح فى جانب عاهات القلوب وقرر بأن سلامته تغنى عن سلامتها وليس بعد هذا مدى فى تشريف تربية القلب والإدراك بوجوب العناية بها.

النجاة فى الآخرة موقوف على سلامة القلب المعنوية

ثم دفع بمهمة القلب إلى أقصى الغايات فجعل النجاة فى اليوم الآخر موقوف على سلامته من الآفات المعنوية قال : تعالى (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (88) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (الشعراء 87-89)

أى سليم من عاهات الصفات المذمومة وآدواء الميول الخسيسة .

الإسلام يدعوا الأفراد والجماعات لتقويم

شخصياتهم بتطير قلوبهم

الإسلام لا يزال وهو دين الله الخالد يدعوا الأفراد والجماعات لتقويم شخصياتهم الأدبية بتطهير قلوبهم من أدران الصفات الذميمة والميول الوحشية ومتى عم هذا الأصل العام إنقشعت عن سمائه غيوم من المحن تلك المحن لا تفتأ تصب عليه شواظا من نار ونحاس ولا يكاد يخلص من أثارها حتى يتولاه صيب آخر أهول من سابقه وأشد إحتياجا لثمراته .

ضرورة تقويم الشخصية الإنسانية

إذا كان تقويم الشخصية الإنسانية ضروريا بالأمم كيلا تندفع فى الغى إلى حيث تجتاح طيباتها وتفسد كيانها فذلك التقويم أوجب لها فإن سموم الجاهلية أخذت تهب أشد ما تكون عليه فتقذف بالآحاد والجماعات فى تيار الحياة الحيوانية حتى أصبحوا من التمرد على النظم المقررة والأصول الموطدة على حال لا يستقر معه نظام ولا يستتب أمان ولا يتقوم عوج ولا يعتدل أود وما أحكم فيلسوف الإنجليز الجرىء : برنارد شو حيث قال : إن العالم لا محيد له عن الإسلام ليأسوا به جراحه ويعدل به معوجه ويقوم من أمره على سداد تتطلبه ويقتضيه صلاحه .

فصل

فريضة التفكير فى الإسلام

ما تحدث به الأستاذ الأديب محمود عباس العقاد فى كتابه التفكير فريضة إسلامية قال : من مزايا القرآن الكريم الكثيرة مزية واضحة يقل فيها الخلاف بين المسلمين وغير المسلمين لأنها تثبت من تلاوة الآيات ثبوتا تؤيده أرقام الحساب ودلآلآت اللفظ اليسير قبل الرجوع فى تأييدها إلى المناقشات والمذاهب التى قد تختلف فيها الآراء وتلك المزية هى التنويه بالعقل والتعويل عليه فى أمر العقيدة وأمر التبعة والتكليف ففى كتب الأديان السماوية الكبرى إشارات صريحة أو مضمونة إلى العقل أو إلى التمييز ولكنها تأتى عرضا غير مقصوده وقد يلمح فيها القارىء بعض الأحايين شيئا من الزراية بالعقل أو التحذير منه لأنه مزلة العقائد وباب من أبواب الدعوى والإنكار.

القرآن الكرين لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم

القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه ولا تأتى الإشارة إليه عارضة ولا مقتضبة فى سياق الآية بل هى تأتى فى كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلآلة وتتكرر فى كل معرض من معارض الأمر والنهى التى يحث فيها المؤمن على تحكيم عقله أو يلام فيها لمنكر على إهمال عقله وقبول الحجر عليه .

تكرار الإشارة إلى العقل تشمل وظائف الإنسان العقلية على إختلاف أعمالها وخصائصها

لا يأتى تكرار الإشارة إلى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يشرحها النفسانيون من أصحابب العلوم الحديثة بل هى تشمل وظائف الإنسان العقلية على إختلاف أعمالها وخصائصها وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته فلا ينحصر خطاب العقل فى العقل الوازع ولا فى العقل المدرك ولا فى العقل الذى يناط به التأمل الصادق والحكم الصحيح بل يعم الخطاب فى الآيات القرآنية كل ما يتسع له الذهن الإنسانى من خاصة أو وظيفة وهى كثيرة والمجمل إذ

هى جميعا مما يمكن أن يحيط به العقل الوازع والعقل المدرك والعقل المفكر الذى يتولى الموازنة والحكم على بالمعانى والأشياء فالعقل فى مدلول لفظه العام ملكة يناط بها الوازع الأخلاقى أو المنع عن المحظور والمنكر **ومن هنا** كان إشتقاقه من مادة عقل التى يؤخذ منها العقال .

إن من خصائص العقل ملكة الإدراك التى يراد بها الفهم والتصور

إن من خصائص العقل ملكة الإدراك التى يراد بها الفهم والتصور: وهى على كونها لازمة لإدراك الوازع الأخلاقى وإدراك أسبابه وعواقبه تستقل أحيانا بإدراك الأمور فيما ليس له علاقة بالأوامر والنواهى أو بالحسنات والسيئات ومن خصائص العقل أنه يتأمل فيما يدركه ويقلبه على وجوهه ويستخرج منه بواطنه وأسراره ويبنى عليها نتائجه وأحكامه وهذه الخصائص فى جملتها تجمعها ملكة الحكم وتتصل بها ملكة الحكمة وتتصل كذلك بالعقل الوازع إذا إنتهت حكمة االحكيم به إلى العلم بها ما يحسن وما يقبح وما ينبغى له أن يطلبه وما ينبغى له أن يأباه .

أعلى خصائص العقل الإنسانى الرشد : وهو مقابل لتمام التكوين فى العاقل الرشيد ووظيفة الرشد فوق وظيفة العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم لأنها إستيفاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج والتمام والتمييز بميزة الرشاد حيث لا نقص ولا إختلال وقد يؤتى الحكيم من نقص الإدراك وقد يؤتى العقل الوازع من نقص الحكمة ولكن العقل الرشيد ينجو به الرشاد ومن هذا وذاك .

فريضة التفكير فى القرآن الكريم

إن فريضة التفكير فى القرآن الكريم تشمل العقل الإنسانى بكل ما إحتواه من هذه الوظائف بجميع خصائصها ومدلولاتها فهو يخاطب العقل الوازع والعقل المدرك والعقل الحكيم والعقل الرشيد ولا يذكر العقل عرضا مقتضبا بل يذكره مقصودا مفصلا على نحو لا نظير له فى كتاب من كتب الأديان فمن خطابه إلى العقل عامة ومنه ما ينطوى على العقل الوازع قوله : تعالى (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ

السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة 164)

ومنه فى سورة المؤمنون قال : تعالى

(وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (المؤمنون 80)

ومنه فى سورة العنكبوت قال : تعالى

(إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (العنكبوت 43)

ومنه ما يخاطب العقل وينطوى على العقل الوازع كقوله : تعالى فى سورة الملك

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (الملك 10)

وفى سورة الأنعام قال : تعالى (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ)

(الأنعام 151)

ومنه فى سورة الحشر بيانا لأسباب الشقاق والتدابر بين الأمم قال : تعالى

(تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) (الحشر 14)

هذا عدا الآيات الكثيرة التى تبتدى بالزجر وتنتهى إلى التذكير بالعقل لأنه مرجع الهداية فى ضمير الإنسان كقوله : تعالى فى سورة البقرة

(أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

(البقرة 44)

وفى سورة الأنعام (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الأنعام 32)

وفى غير هذه السور الكريمة تنبيه إلى العقل وإن هذا الخطاب المتكرر إلى العقل الوازع يضارعه فى القرآن الكريم خطاب متكرر مثله إلى العقل المدرك أو العقل الذى يقوم به الفهم والوعى وهما أعم وأعمق من مجرد الإدراك وكل خطاب إلى ذوى الألباب فى القرآن الكريم فهو خطاب إلى اللب هذا العقل المدرك الفاهم لأنه معدن الإدراك والفهم فى ذهن الإنسان كما يدل عليه اسمه

قال : تعالى (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران 7)

(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (يوسف 111)

(الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر 18)

(وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ) (البقرة 197)

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (البقرة 179)

ومن هذه الآيات نتبين **أن** اللب الذى يخاطبه القرآن الكريم وظيفته عقلية تحيط بالعقل الوازع والعقل المدرك الذى يتلقى الحكمة ويتعظ بالذكر والذكرى وخطابه خطاب لأناس من العقلاء لهم نصيب من الفهم والوعى أوفر من نصيب العقل الذى يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقى إلى منزلة الرسوخ فى العلم والتمييز بين الطيب والخبيث والتمييز بين الحسن والأحسن .

العقل المفكر فى القرآن الكريم

أما العقل الذى يفكر ويستخلص من تفكيره زبدة الرأى والرويـة : فـالقرآن الكـريم يعبرعنه بكلمات متعددة تشترك فى المعنى أحيانا وتنفرد بعضـها بمعنـاه علـى حسـب السياق فى أحيان أخرى فهو الفكر والنظر والبصر والتدبر والإعتبـار والـذكر والعلـم وسائر هذه الملكات الذهنية التى تتفق أحيانا فى المـدلول كمـا قـدمنا ولكنهـا لا تسـتفاد مـن كلمـة واحـدة تغنـى عـن سـائر الكلمـات الأخـرى قـال : تعـالى (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) (الأنعام 50)

وقال : تعالى (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ) (الروم 8)

وقال : تعالى (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (الأنعام 65)

وقال : تعالى

(أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ) (المؤمنون 98)

وقال : تعالى

(كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص29)

وقال : تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (محمد 24)

بهذه الآيات وما جرى مجراها ولا جرم فريضة التفكير فـى الإسـلام وتبـين منهـا **أن** العقل الذى يخاطبه الإسلام هو العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميـز بـين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتبصـر ويتـدبر ويحسـن الإدكـار والرويـة وأنـه العقـل الذى قصاراه من الإدراك أنـه يقابـل الجنـون فـإن الجنـون يسـقط التكليـف فـى جميـع الأديان والشرائع وفى كل عرف وسنة ولكن الجمود والعنت والضـلال غيـر مسـقطة

للتكليف فى الإسلام وليس لأحد أن يعتذر بها كما يعتذر للمجنون بجنونه فإنها لا تدفع الملامة ولا تمنع المؤخذة بالتقصير ويندب الإسلام من يدين به إلى مرتبة فى التفكير أعلى من هذه المرتبة التى تدفع عنه الملامة أو تمنع عنه المؤاخذة فيستحب له أن يبلغه بحكمته ورشده ويبدوا فضل الحكمة والرشد على مجرد التعقل والفهم من آيات متعددة فى الكتاب الكريم يدل عليها قوله : تعالى (يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (البقرة 269)

ويدل عليها أن الأنبياء يطلبون الرشد ويبتغون علما به من عباد الله الصالحين كما جاء فى قصة موسى وأستاذه الخضر عليهما السلام .

التنويه بالعقل على إختلاف خصائصه نتيجة منتظرة

يستلزمها لباب الدين وجوهره

الذى ينبغى أن نثوب إليه مرة بعد مرة أن التنويه بالعقل على إختلاف خصائصه لم يأت فى القرآن عرضا ولا تردد فيه كثيرا من قبيل التكرار المعاد بل كان هذا التنويه بالعقل نتيجة منتظرة يستلزمها لباب الدين وجوهره ويترقبها من هذا الدين كل من عرف كنهه وعرف كنه الإنسان فى تقديره فالدين الإسلامى دين لا يعرف الكهانة ولا يتوسط فيه السدنة والأحبار بين المخلوق والخالق ولا يفرض على إنسان قربانا يسعى به إلى المحراب بشفاعته من ولى أو من ولى متسلط أو صاحب قداسة مطاعة فلا ترجمان فيه بين الله وعباده يملك التحريم والتحليل ويقضى بالحرمان أو بالنجاة فليس هذا الدين إذن من أمر يتجه إلى الإنسان من طريق الكهان ولن يتجه الخطاب إذن إلا على عقل الإنسان حرا طليقا من سلطان الهياكل والمحاريب أو سلطان كهانها المحكمين فيها بأمر الإله المعبود فيما يدين به أصحاب العبادات الأخرى

قال : تعالى (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة 115)

لا هيكل فى الإسلام ولا كهانة حيث لا هيكل فكل أرض مسجد وكل من فى المسجد واقف بين يدى الله ودين بلا هيكل ولا كهانة لن يتجه فيه الخطاب – بداهة – إلى غير

الإنسان العاقل حرا طليقا من كل سلطان يحول بينه وبين الفهم القويم والتفكير السليم كذلك يكون الخطاب فى الدين الذى يلزم كل إنسان طائره فى عنقه ويحاسبه بعمله فلا يؤخذ أحد بعمل غيره

قال : تعالى (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى) (فاطر 18)

وقال : تعالى (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) (الطور 21)

وقال : تعالى

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى) (النجم 39 – 40)

فإذا كان فى الأديان دين يجتبى القبيلة بنسبها أو يجتبى المرء قبل مولده لأنه مولود فيها **أو** كان فى الأديان دين يحاسبه على خطيئة ليست من عمله فليس فى الإسلام إنسان ينجو بالميلاد أو يهلك بالميلاد ولكنه الدين الذى يوكل فيه النجاة والهلاك بسعى الإنسان وعمله ويتولى فيها الإنسان هدايته بفهمه وعقله ولا يبطل فيه عمل العقل أن الله بكل شىء محيط فإن خلق العقل للإنسان لا يسلبه القدرة على التفكير ولا يسلبه تبعة الضلال والتقصير وعلى هذا النحو يتناسق جوهر الإسلام ووصاياه وتأتى فيه الوصايا المتكررة بالتعقل والتمييز منتظرة مقدرة لا موضع فيها للمصادفة ولا هى مما يطرد القول فيه متفرقا غير متصل على نسق مرسوم فإنها لوصايا منطقية فى دين يفرض المنطق السليم على كل مستمع للخطاب قابل للتعليم وهذا يكون الدين الذى تصل العبادة فيه بين الإنسان وربه بغير واسطة ولا محاباة ويحاسب فيه الإنسان بعمله كما يهديه إليه عقله ويطلب فيه من العقل أن يبلغ وسعه فى الحكمة والرشاد .

الموانع والأعذار

الموانع والأعذار : حين يكون العمل بالعقل أمرا من أوامر الخالق يمتنع على المخلوق أن يعطل عقله مرضاة لمخلوق أو خوفا منه ولو كان هذا المخلوق جمهرة من الخلق تحيط بالجماعات وتتعاقب مع الأجيال والموانع التى تعطل العقل من هذا

القبيل كثيرة يستقصيها القرآن الكريم كما إستقصى خطاب العقل بجميع وظائفه ولكنها تتجمع فى ثلاثة موانع بمثابة الأصول التى تتشعب منها الموانع المختلفة فمن سلم منها أوشك أن يسلم من كل مانع يحجر على عقله ويأخذ السبيل على تفكيره فلا يهتدى إلى رأى سواه .

أكبر الموانع فى سبيل العقل

عبادة السلف التى تسمى عرفا الإقتداء الأعمى بأصحاب السلطة الدنيوية الخوف المهيمن لأصحاب السلطة الدنيوية .والإسلام لا يقبل من المسلم أن يلغى عقله ليجرى على سنة آبائه وأجداده ولا قبل منه أن يلغى عقله خنوعا لمن يسخره باسم الدين فى غير ما يرضى الله والدين لا يقبل منه أن يلغى عقله رهبة من بطش الأقوياء وطغيان الأشرار ولا يكلفه فى أمر من هذه الأمور شططا لا يقدر عليه .

إذ القرآن الكريم يكرر فى غير موضع أن الله لا يكلف نفسا ما لا طاقة لها به ولا يطلب من خلقه غير ما يستطيعون

قال : تعالى (لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة 233)

وقال : تعالى (لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا) (الأنعام 152 الأعراف 62)

وقال : تعالى (وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (المؤمنون 62)

وما من أحد يهتدى بعقله لا يسعه أن يرضى الصواب ويكف عن الخطأ فإذا قصر على نبذ الصواب وإقتراف الخطأ ففى وسعه أن ينجو بنفسه من القسر حيث كان وفى وسعه إذا حيل بينه وبين النجاة أن يلقى الضرر الذى يجنيه عليه من يهدر كرامته ويقتل ضميره فذلك لا ريب أهون الضررين فى هذه الحالة ولا معنى للدين ولا للخلق إذ جاز للناس أن يخشو ضررا يصيب أجسامهم ولا سخشو ضررا يصيبهم فى أرواحهم وضمائرهم وينزل بحاتهم الباقية إلى ما دون الحياة التى ليس لها بقاء وليس فيها شرف ولا مروءة وهذه الموانع كلها موانع العرف والقدرة العمياء والخوف الذليل إنما تقوم وتبقى قائمة ما هان على الإنسان أن يعيش بغير عقل يرجع إليه أكرم

مطالبه الإنسانية وهو صلاح ضميره ولكنها تزول مع الأثر يوم يرجع إلى عقله أمام كل عقبة من عقباتها وقد يشق عليه أن يذلل تلك العقبات أو يناجزها ولكنه حق العقل عليه ولا بد من حق تهون من أجله المشقة لأنها أهون من سلب الإنسان فضيلته العليا وإرتكانه إلى حياة لا تعقل أو حياة تعقل ولكنها تؤثر الحطة على عملها بما هو أرفع منها .

حق العقل فى الإسلام

إن حق العقل فى الإسلام : يقاس بكل قوة من قوى تلك الموانع التى ترصد له وتصده عن طريقه وأولها وأقواها فى صدر الإسلام قوة العرف أو عبادة السلف **لأن** العرف فى الجاهلية بلغ مبلغ العبادة فى المهابة والرعاية وتسخير النفوس لحكمه بما يفرضه عليها من العادات وما هى فى الواقع إلا ضرب من العبادات يملك الإنسان فى جميع أوقاته وعلاقاته حيث تتراخى عنه أحيانا سطوة العبادات الدينية ولعل العبادات الدينية لم تكن لها سطوة فى عصور الجاهلية وما شابهها إلا أنها تستمد تلك السطوة من العادات والإسلام حين يأبى على الإنسان أن يخضع بعقله كله لهذه السطوة الجائحة أنما يعطى العقل حقه فى مقاومتها ولا يكتفى بأن يفرض عليه واجب المقاومة وإنما يمده بالحجة التى تعينه عليها حيث لا حجة له بين يديها فهو يكلفه ويعينه وهو يثيره ويضع فى يده السلاح الذى يشحذه فى ثورته فهو نصير معين يلقى العبء ويعطى المدد الذى يعينه عليه وحين يقول الإسلام للإنسان يجب عليك أن تفتح عينيك ولا تنقاد لما يوبقك مغمض العينين فكأنه يقول له يحق لك أن تنظر فى شأنك بل فى أكبر شأن من شئون حياتك ولا يحق لآبائك أن يجعلوك ضحية مستسلمة للجهالة التى درجوا عليها وإن الإسلام ليأبى على المرء أن يحيل أعذاره على آبائه وأجداده كما يأبى له أن تحال عليه الذنوب والخطايا من أولئك الآباء والأجداد وإنه لينعى على الذين يستمعون الخطاب أن يعفوا أنفسهم من مؤنة الفعل لأنهم ورثوا من آبائهم وأجدادهم عقيدة لا عقل فيها

قال : تعالى ()وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (البقرة 170)

وقال : تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (المائدة 104)

وقال : تعالى (إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آَبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آَثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ)

(الصافات69 – 70)

وقال : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آَبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (التوبة 23)

حق العقل الذى إستمده من الإسلام فى مواجهة العرف أو عبادة السلف

قوة أكبر من قوة العبادة

كان هذا حق العقل الذى إستمده فى الإسلام فى مواجهة العرف أو عبادة السلف وكانت للعرف فى صدر الإسلام قوة أكبر من قوة العبادة وقوة الحكومة ويستوى أن نقول إن الإستقلال أمامهما أوجب عليه الإستقلال أمام العرف أو عبادة السلف ولعلنا لا نعدو الصواب إذا عممنا القول على جميع العصور ولم نقصره على العصر الجاهلى الذى كانت فيه عبادة السلف أظلم للناس من سلطان رجال الدين وسلطان الحاكم بأمره فإن حرية العقيدة قد يرجع الأمر فيها إلى من يتولون أمرها من القائمين عليها فى المعابد والمحاريب أو من القائمين عليها فى ولاية الشعائر والحدود فهناك مجال الحق الذى يتمسك به العقل حيث تدعوا الحاجة إلى ذلك الحق أو حيث يستوجبه الحظر فى أمر الإعتقاد خاصة دون ما عداه من أمور يعمها العرف الشائع أو تعمها عبادة السلف .

الإسلام بدأ بالتحذير الشامل من الفساد

الإسلام بدأ بالتحذير الشامل من الفساد : وأيا كان الرأى فى تفاوت القوى التى يخنع لها العقل وتذهله عن حقه فى الحرية أو عن واجبه فى التمييز والنهوض بالتبعة فالأمر الذى لا مرية فيه أن التحذير من فساد الكهان والأحبار خليق أن يناسب الخطر الذى يخشى من فسادهم أينما كان وكثيرا ما يكون وقد بدأ الإسلام بالتحذير الشامل من هذا الفساد فأسقط الكهانة وأبطل سلطان رجال الدين على الضمائر ونفى عنهم القدرة على التحريم والتحليل والإدانة والغفران **ثم** نبه إلى سيئاتهم وعاقبة الذين إستسلموا لخديعتهم وكثير منهم خادعون قال : تعالى

(اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة 31)

وقال : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (التوبة 34)

وحرض القرآن على أن يعم القول من لهم سلطان دينى كالأحبار ومن ليس لهم هذا السلطان ولكنهم يستمدون من السمعة الدينية نصيبا لا يقل عن نصيب الأحبار وهذا على تنبيه القرآن إلى ما كان من فضل الصالحين من الرهبان والقسيسين على أممهم حيث جاء فيه (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آَمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) (المائدة 82)

وما نحسب أن التفرقة بين الفريقين تعسر على عارف ولا جاهل فما من لبس هناك بين أناس يستكبرون ولا يهيمون بالمال يأكلونه أينما وجدوا الحلال والحرام منه وبين

أناس يتصدون للجاه والخيلاء ويأكلون أموال الناس بالبطل ويصدون عن سواء السبيل وإن الذين كتبوا فى تاريخ العقائد يتفقون على تهوين خطر الحكم المستبد على الضمير الإنسانى بالقياس إلى خطر العرف أو خطر الخديعة من رؤساء الأديان

لأن الحكم المستبد يتسلط على الضمير من خارجه ولا يستهويه من باطنه كما يستهويه حب السلف أو الإسترسال مع القدرة الخادعة من قبل رؤساء الدين فهو مشكلة مكان لا مشكلة عقل أو ضمير إما أن ينفضه الإنسان عنه فى مكانه أو يلوذ منه بمكان أمين وكثيرا ما يكون الحكم المستبد حافزا للضمير إلى المقاومة محرضا للعقل على الرفض والإنكار وأكبر ما يخشى منه أن يؤدى إلى تشبث العناد لأن هذا التشبث خطر على التفكير كخطر الإستهواء والتسليم ولا يزال الإستبداد على كل حال قهرا للعقل بغير إرادته يترك له الإرادة طليقة للمقاومة أو الحيلة أو الخضوع

فهو غير الإنقياد للضلال إيثارا له ومحبة للمضلين فمن هنا كان حق العقل فى مقاومته بحكم الإسلام كحقه فى مقاومة سلطان العرف وسلطان الأحبار ويزيد عليه أن يلوم المسلم على الخضوع فى مكانه إذا كان فى وسعه أن يرحل منه إلى مكان بعيد من سلطانه ونحن مع العقل فى الإسلام حين نذكر أن الإسلام يأمره بإستقلال النظر فى مواجهة السلف ومواجهة الأحبار ومواجهة الإستبداد **ثم** يكون هو الدين الذى إمتاز بين الأديان بوصاياه فى ذلك الأمر وقوام الأمر كله بل قوام جميع الأمور فى جميع التكاليف أن النفس تحاسب على ما تستطيع ولا تؤمر بغير ما تطيق ومن وراء ذلك تبعة الأمة كلها حين تؤخذ الأمة بوزر الأمة ولا ينفرد منها كل فرد بمصيره مع مصائر الأمم بحذافيرها فلا مناص من هذه الوحدة فى فى حساب الأمم ولا خير للأفراد مع تطاول الزمن فى عيشة يقف فيها خير الفرد وشره عن بابه ولا يحسب فيها حساب شركائه فى بيته فلا تناقض بين أمر الفرد بالفعل وإشتراكه فى تبعة الأمر الذى يعم الجميع ولا يخص أحدا من الآحاد ولكن الأمم تخاطب بتحكيم العقل كما يخاطب به أفرادها متفرقين ولا تحاسب الأمم إلا على سنة الأمم فى أطوار الإجتماع .

فصل

الإسلام والفكر الإسلامى

الطابع الإنسانى للفكر الإسلامى

أولا : تحديد معنى الفكر . فيما يلى نشير إلى أهم التعريفات لإستخلاص السمات الأساسية للفكر .

أولا : الفكر بمعنى الخاص يعنى ما يتم به التفكير من أعمال ذهنية . كما يعنى أيضا أنه أسمى صور العقل الذهنى بما فيه من تحليل وتركيب وتنسيق .

ثانيا : الفكر يعنى لدى الفيلسوف ابن سينا . الإنتقال من أمور حاضرة فى الذهن إلى أمور غير حاضرة فيه وهذا الإنتقال لا يخلوا من ترتيب وفى السياق ذاته يشير الشريف الجرجانى فى التعريفات إلى أن الفكر ترتيبي أمور معلومة للتأدى إلى مجهول .

ثالثا : الفكر بوجه عام يعنى كل حركة فى تصوراتنا ومفاهيمنا .

رابعا : الفكرة قوة تبعث فكرات أخرى وتدفع إلى العمل .

وهذه التعريفات جميعها لا يناقض بعضها بعضا وإنها تتكامل ويمكن أن نستخلص منها الأمور التالية :-

1 - الفكر هو إعمال العقل فى المعلوم للوصول إلى معرفة المجهول . وهذا يعنى أن الفكر عمل إبداعى يهدف إلى البحث عن أمور جديدة تثرى الحياة العقلية والمادية معا .

2 - الفكر فى حركة متواصلة لتصوراتنا ومفاهيمنا . فإذا أردنا أن نضبط هذه التصورات والمفاهيم وألا نتركها تحوم فى النفس كيفما إتفق وذلك بإحكام السيطرة عليها على نحو منظم فى إطار قواعد صارمة تقود إلى الهدف وهو العلم فإننا بذلك قد طرقنا باب التفكير العلمى

3 إذا كان الفكر حركة مستمرة وليس أمرا ساكنا .فهذا يعنى أن من شأنه أن يدفع إلى العمل فالفكرة قوة تبعث فكرات أخرى وتدفع إلى العمل وحتى تكتمل الصورة لا بد لنا من توضيح معنى التفكير العلمى الذى أشرنا إليه .

4 إن التفكير العلمى . بالمعنى الخاص لا يمارسه إلا العلماء المتخصصون أن يخوضوا فيه نظرا إلى أن العلماء فى كل مجال يستخدمون لغة متخصصة هى لغة إصطلاحات ورموز متعارف عليها بين العلماء فى كل مجال من مجالات العلم ويختلف هذا النوع من التفكير العلمى عن نوع آخر يمكن أن يطلق عليه أيضا أنه تفكير علمى بالمعنى الواسع وإن كان تفكير غير متخصص ونعنى به ذلك النوع من التفكير المنظم الذى يمكن أن نستخدمه فى كل شئون حياتنا اليومية وكل ما يشترط فى هذا التفكير هو أن يكون منظما وأن يبنى على مجموعة من المبادىء التى نطبقها فى كل لحظة دون أن نشعر بها شعورا واعيا مثل مبدأ عدم التناقض الذى نعنى به أن الشىء الواحد يستحيل أن يكون فى مكانين فى آن واحد وكذلك مبدأ السببية الذى يعنى أن لكل حادث سببا فهذه المبادىء تعد من المبادىء الفطرية فى العقل الإنسانى لدى جمهور الناس وإن لم يكن المرء على وعى كامل بها .

القرآن الكريم إهتم بالفكر بوصفه الوظيفة

الأساسية للعقل الإنسانى

قد إهتم القرآن الكريم بالفكر بوصفه الوظيفة الأساسية للعقل الإنسانى الذى هو أعظم النعم التى أنعم الله بها على الإنسان وقد وردت مشتقات الفكر فى القرآن فى ثمان عشرة آية معظمها بلفظ يتفكرون للحث على التأمل والدراسة والبحث كما جاء فى قوله : تعالى (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية 13)

فهذه الآية تعد دعوة صريحة إلى التأمل والتفكير وإعمال العقل فى كل ما خلقه الله فى هذا الكون والبحث فيه عن كل ما يعود على البشرية كلها بالخير ويستخدم القرآن الكريم أيضا لفظ آخر يدل على التفكير وهو التدبر من ذلك قوله : تعالى

(أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ) (النساء 82 ومحمد 24)

وإنطلاقا من حقيقة أن الإسلام حريص كل الحرص على إستخدام المسلم كل ملكاته الفكرية فيما خلقت من أجله أطلق المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد على أحد كتبه القيمة عنوانا أصاب به كبد الحقيقة وهوالتفكير فريضة إسلامية وذكرنا طرفا منه فى الصفحات السابقة فالمعروف " أن العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة " بنص الحديث الشريف وما دام العلم لا يقوم إلا بالتفكير والبحث والتنقيب فإن التفكير يحتل المرتبة ذاتها التى للعلم بناء على قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

التفكير سمة جوهرية للإنسان

إن التفكير سمة جوهرية للإنسان فى كل زمان ومكان منذ أن خلقه الله إلى قيام الساعة ولا يستطيع أحدا كائنا من كان أن يسلب منه هذه الصفة الأساسية ومن هنا فإن محاولات التعصب العرقى التى تهدف إلى دفع أجناس بشرية معينة بضحالة التفكير وسطحيته والإعلاء من شأن أجناس أخرى على أنها هى وحدها التى تستطيع أن تتعمق وتفكر بطريقة تركيبية إن هى إلا محاولات فاشلة ليس لها مكان فى محراب العلم ومثلها كمثل من يحاول أن يمنع ضوء الشمس بوضع يده فى مقابلتها.

الفكر الإنسانى فكر متجدد

وغنى عن البيان أن نؤكد أن الفكر الإنسانى فكر متجدد ومتطور كالنهر الجارى والفكر هو الذى يقود قاطرة التجديد والتغيير فى كل أمة .

العلاقة بين إصلاح الفكر بصفة عامة وإصلاح الفكر الدينى بصفة خاصة

هناك علاقة وثيقة بين إصلاح الفكر بصفة عامة وإصلاح الفكر الدينى بصفة خاصة فكل منهما يؤثر فى الآخر إيجابا أو سلبا فى أى مجتمع إنسانى والفكر السليم من شأنه أن يكون رائدا للتقدم والتطور وقائدا لمسيرة التحضر فى المجتمع وتلك هى طبيعة الأمم فالتغيير سنة الحياة وقانون الوجود .

التفكير هو وظيفة العقل الإنسانى

التفكير هو وظيفة العقل الإنسانى : وعندما نتحدث عن التفكيرفإننا بذلك نتحدث فى الوقت نفسه عن العقل لأن التفكير وظيفة العقل الإنسانى وبدون العقل لا يتصور أن

يكون هناك تفكير وقد أكد الإسلام على أهمية العقل بوصفه الميزة الجوهرية للإنسان على غيره من الكائنات فى هذا الوجود كما أنه مناط التكليف والمسئولية وبدون العقل لا مجال للحديث عن تكليف أو مسئولية فالمجنون فاقد للعقل وبالتالى فليس أهلا للمسئولية الدينية أو الدنيوية ولا تأتى الإشارة إلى العقل فى القرآن الكريم إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه وذلك ما يتخذ من الآيات القرآنية العديدة التى وردت الإشارة فيها إلى العقل والإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه فهو يخاطب العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوازن بين الأضداد ويتأمل ويتعظ ويتدبر ويحسن التدبيروالروية وهذا العقل يقابله الجمود والعنت والضلال ومن منطلق حرص الإسلام على ممارسة العقل لوظائفه التى أرادها الله كان حرص الإسلام شديدا على إزالة كل العوائق التى تعوق العقل عن ممارسة نشاطاته ومن أجل ذلك رفض الإسلام التبعية الفكرية والتقليد الأعمى وقضى على الدجل والشعوذة والإعتقاد فى الخرافات والأوهام وأبطل الكهانة كما ركز الإسلام على المسئولية الفردية وحرر الفرد من أى سلطة دينية أو دنيوية ورفعه الله إلى مقام العزة التى يقول : القرآن الكريم فيها

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون 8)

كما قررالإسلام ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وأن المؤمن لا يخشى فى الحق لومة لائم وهكذا كفل الإسلام للإنسان المناخ الحقيقى الذى يستطيع فيه أن يفكر ويتأمل ويعى ويفهم وبهذا أطلق الإسلام سلطان العقل من كل ما كان يقيده وخلصه من كل تقليد كان يستعبده وبهذا تم للإنسان بمقتضى دينه كما يقول : الإمام محمد عبده أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما إستقلال الإرادة وإستقلال الرأى والفكر وقد كان بهذا الموقف الأساسى للإسلام من العقل أثره العظيم فى صياغة الحضارة الإسلامية والعقلية الإسلامية وقد كانت دعوة القرآن للإنسان لإستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل هكذا يجعل الإسلام من التفكير واجبا مقررا وفريضة إسلامية ومن هنا قرر الفيلسوف ابن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى

الموجودات وإعتبارها وذلك أخذا من آيات القرآن العديدة فى هذا الشأن وإذا كانت ممارسة الوظائف العقلية واجبا دينيا فى الإسلام فإنها من ناحية أخرى تعد مسئولية حتمية لا يستطيع الفكاك منها وسيحاسب على مدى حسن أو إساءة إستخدامه لها مثلما يسأل عن إستخدامه لباقى وسائل الإدراك الحسية

وفى ذلك يقول : القرآن الكريم (إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء 36)

الطابع الإنسانى للفكر الإسلامى

غنى عن البيان أن ما سبق بيانه من توضيح لمعنى الفكر والتفكير ينطبق على الإنسان بصفة عامة فى كل زمان ومكان فإذا وصفنا هذا الفكر بأنه إسلامى فهل يعنى ذلك أننا بهذا الوصف قد أعطيناه إطارا خاصا يجعله منفصلا أو مناقضا لأى لون آخر من ألوان الفكر الإنسانى ؟ ولكى نجيب عن هذا السؤال نود أن نؤكد على حقيقتين مهمتين :-

أولهما : أن الله قد أعطى العقل لكل الناس بصرف النظر عن معتقداتهم وألوانهم وأشكالهم وغير ذلك من فروق وقد حدث ذلك منذ اللحظة التى خلق الله فيها آدم عليه السلام فبعد أن خلقه الله تعالى من طين أى من مادة نفخ فيه روحه كما جاء فى الآية الكريمة

(فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ) (الحجر 29 ص 72)

ويلفت النظر فى هذه الآية الكريمة أن الله لم يقل ونفخت فيه الروح وإنما أضاف ذلك إلى ذاته جل وعلا بقوله : تعالى (ونفخت فيه من روحى) والعقل الإنسانى أثر من آثار هذه النفخة الإلهية الروحية ومن هنا فالعقل والتفكير من خصائص الإنسان مطلق الإنسان فى كل زمان ومكان فالعقل قسمة مشتركة بين الناس جميعا .

ثانيا : إن من الطبيعى أن يختلف تفكير الناس فى أمور كثيرة فهم ليسوا نسخا مكررة وإنما لكل إنسان شخصية مستقلة تختلف عن بقية أبناء جنسه وقد أعطانا الله رمزا عالميا للتأكد من ذلك عندما خلق الناس مختلفين حتى فى بصمة إبهامهم .

الفكر الإسلامى يشترك مع كل ألوان الفكر الإنسانى

إن الفكرالإسلامى بصفة عامة : يشترك مع كل ألوان الفكر الإنسانى الأخرى ولا يجوز له أن ينفصل تماما عنه فى كل تنوعاته والعقيدة الدينية تعد أحد تنوعات الفكر الإنسانى من حيث أنها تقوم على إرادة حرة وإختيار شخصى فى الأساس ولا يطعن فى ذلك أن العقيدة الدينية يرثها الطفل من والديه فمن حقه عندما ينضج عقله أن يفكر ويبحث فى العقيدة التى نشأ عليها دون ضغط أو إكراه وما عدا أمور العقيدة فالكل سواء فالفكرعملية إنسانية يشترك فيها كل الناس ومن ناحية أخرى فالإسلام ليس عقيدة فقط وإنما هو أيضا أخلاق وحضارة ومن المعلوم أن التراث الإنسانى الذى هو نتاج العقل الإنسانى قسمة مشتركة بين كل الناس وهو أخذ وعطاء يأخذ منه كل إمرىء ما يشاء ولا توجد أمة عريقة فى التاريخ إلا وقد أعطت كما أخذت من هذا التراث الإنسانى ويتضح لنا مما سبق أن وصف الفكر بأنه إسلامى لا تناقض مع الفكر الإنسانى بصفة عامة بل يتفاعل مع هذا الفكر الإنسانى أخذا وعطاءا وقد أسهم علماء كثيرون من غير المسلمين فى فترة البناء للحضارة الإسلامية فى إثراء الفكر الحضارى لدى المسلمين وإستظلوا برآية هذه الحضارة الإسلامية وقد رأينا ذلك فى الشرق الإسلامى كما رأيناه أيضا فى بلاد المغرب الإسلامى وفى الأندلس بصفة خاصة حيث عاش فى ظل الحضارة الإسلامية أتباع الديانات السماوية الثلاثة فى تسامح منقطع النظير وأثروا وتأثروا بإنجازات هذه الحضارة لأنها حضارة إنسانية تسع الإنسان دون تمييز بصرف النظر عن معتقده الدينى فالمعنى الإنسانى إذن هو السمة الغالبة على الحضارة الإسلامية بصفة عامة .

فصل

العقل والعلم والبرهان فى نظر القرآن

الإسلام دين الفكر ودين العقل

الإمام الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر وما تحدث به فى هذا الموضوع يقول لقد كان موقف القرآن فى الحث على التفكير فى ملكوت السماوات والأرض برهانا واضحا على مكانة العقل والعلم فى نظر الإسلام إذ العقل آلة التفكير والعلم ثمرته وإذن يكون كل ما ورد فى القرآن حثا على التفكير هو إعلانا عن فضل العقل وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويمه وهو فى الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم وإيحاء بتحصيله فيقف الإنسان على الحقائق وتزول عنه غشاوة الجهل ويحرر من الأوهام والخرافات وبذلك كان الإسلام دين الفكر ودين العقل وحسبنا أن رسوله صلى الله عليه وسلم لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير ولم يشأ له ربه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارق حسية تخضع لها أعناقهم

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آَيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآَيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (العنكبوت 50-51) .

وقد إرتفع القرآن بالعقل وسجل إن إهماله فى الدنيا سيكون سببا فى عذاب الآخرة فقال حكاية لما يجرى على ألسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم فى معرفة الحق والعمل به (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (الملك 10)

وكذلك إرتفع بالعلم وجعل أهله فى المرتبة الثالثة بعد الله تعالى والملائكة

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (آل عمران 18)

ثم جعلهم وحدهم هم الذين يخشون الله من عباده بما أدركوا من آثار قدرته وعظمته فقال بعد أن لفت الأنظار إلى نعم الله وآياته

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (فاطر 28)

وكان من مقتضيات أن الإسلام دين العقل ودين العلم أنه حذر إتباع الظن وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان (قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ) (الأنعام 148)

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) (يونس 36)

(وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا) .

(النجم 28)

(وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء 36)

وقد رفع من شأنه فعبر عنه بالسلطان (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) (غافر 35)

(إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (غافر 56)

القرآن ينعى على التقليد والمقلدين

من هنا كثرت أيات القرآن الواردة فى ذم التقليد وجرى الخلف وراء السلف دون نظر وإستدلال هؤلاء الذين ورثوا عقائدهم وآراءهم عن آبائهم وأجدادهم لا لشىء سوى أنهم آباؤهم وأجدادهم كأنهم يرون أن السبق الزمنى يخلع على خطة السابقين وآرائهم فى المعتقدات وأفهامهم فى النصوص قداسة الحق وسلطان البرهان فإلتزموها وتقيدوا بها وسلبوا أنفسهم خاصة الإنسان خاصة البحث والنظر وفى هذا الشأن يقول : الله تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة 170)

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (المائدة 104)

الجمود مصادم لقانون النمو

حكى عنهم الجمود على ما كان عليه سلفهم فهم يرثون أفكارهم وآراءهم كما يرثون عقارهم وأرضهم وحكى عنهم إكتفاءهم بمعتقداتهم الموروثة ووقوفهم بأنفسهم عندها دون أن يتجهوا إلى الترقى والتدرج فى العلم والعمل ولا شك أن كلا الموقفين الجمود عند الموروث والإكتفاء به مصادم لما تقضى به طبيعة الكون وطبيعة كل حى من النمو التوليد والتناسل الفكرى كالتناسل النباتى والحيوانى والإنسانى كلاهما شأن لا بد منه فى الحياة ولو وقف التناسل الفكرى لإرتطم الإنسان فى حياته بكثرة ما تلد الطبيعيات التى هو منها وعندئذ يعجز عن تدبير الحياة النامية التى لم يقدر لها النماء إلا خدمة له وسبيلا لخيره ونفعه فيتحقق فشله فى القيام بمهمة الخلافة التى أختير لها ووكلت إليه منذ القدم .

الجمود على القديم سلب لإنسانية الإنسان

إذا كان الجمود على آراء المتقدمين لمجرد أنهم متقدمون مصادما لقانون النمو والتناسل الطبيعى فهو فى الوقت نفسه سلب لمزية الإنسان فى التمييز بين الحق والباطل والملائم وغير الملائم فيفعل ما يفعل دون عقيدة ويترك ما يترك دون عقيدة

ومثل هذا لا يجد لنفسه حظا فى أن يفعل أو فـى أن يتـرك وإنمـا يقـاد وزمامـه صـور الآباء والأجداد فهى دائما تجذبه من الحياة ولا يجد من نفسه عونا على التقدم فيقع فـى ضيق من الحياة المتجددة حوله

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ

بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف 28)

ويظل كذلك حتى تنزل به غاشية من صولة الطبيعة النامية فتذهب به إلى حيث ذهـب الغافلون ونهاية القول : أن الجمود على آراء المتقـدمين وحظهـم فـى العلـم والمعرفـة وأسلوبهم فى البحث والنظر جناية على الفطرة البشرية وسلب لمزية العقل التى إمتاز بها الإنسان وإهدار لحجة الله على عباده وتمسك بها لا وزن له عند الله هـذا وقـد نشـأ المسلمون فى ظل ما قرره الإسلام ودعا إليه القرآن ففكـروا وبحثـوا وتعقلـوا وطلبـوا البرهان وأنكروا التقليد فسادوا وسادت بهم الأمـم ثـم لأمـر مـا إنقلبـوا علـى رءوسـهم وتعفنت أمعـاؤهم وتولـدت فـى أدمغـتهم حمـى التقليـد فجهلـوا أنفسـهم وجهلـوا الكـون وجهلوا الحياة وتفرقوا فى دين الله شيعا فـأبطلوا حجـة الله علـى خلقـه وصـاروا حجـة على دينه وشرعه زعموا أن لآبائهم عصمة تمنعهم من النظر فى أقوالهم وبذلك لـبس الدين فيمـا بيـنهم أثوابـا مختلفـة الألـوان مختلفـة النسـيج وراجـت عنـد الجميـع البـدع والخرافات وعقدت على دين الله غبارا كثيفا فنفر الناس منه وأعرضوا عنـه وإتهمـوه بالإضطراب بـين حـلال وحـرام وصـحيح وفاسـد وقـوى وضـعيف وأخـذوا يتـأهبون للخلاص ناقمين على طوائف الـدين مـواقفهم مـن موروثـاتهم التـى جعلتـه فـى جانـب وحياة الناس فى جانب آخر ألا فليعلم هؤلاء جميعا أن صدر الحياة الذى يتسع كل يوم وكل ساعة أصبح غير قابل لضغط تضيق به رقعتـه ويرجـع إلـى أغـلال الموروثـات الأولى فلينظروا فـى أى وضـع يكونـون وعلـى أى مـنهج يسـيرون حتـى يحفظـوا الله شرعه ويقيموا له دعوته .

إستخلاف الإنسان فى الأرض

لم يخلق الإنسان فى هذه الحياة ليعبث أو ليلهو ولم يخلق بقوته وجبروته ويستبد قويه بضعيفه وإنما خلق وركب فيه ما ركب من قوى العلم والإدراك وآلات العمل والإنتاج وسخر له الكون فى أرضه وسمائه ومائه وهوائه لحكمة سامية تعبر عن جلال الله وجماله هى أن يكون خليفة فى الأرض يعمرها ويعمل على إصلاحها وإتساع عمرانها وإظهار أسرار الله فيها وإقرار الخير والسعادة فى نواحيها وبذلك تكون مظهرا لرحمة الله بعباده وآية من آيات قدرته وحكمته وقد أشار إلى هذه الحكمة كثير من آيات القرآن منها قوله : تعالى وهو يحدث عن مبدأ خلق الإنسان

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آَدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة 30-31)

فتجلت للملائكة حكمة إستخلاف الإنسان فى الأرض وإعترفوا له بالمكانة التى أعدت له فى هذه الحياة ومن ذلك قوله : تعالى (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (الأنعام 165)

ومن ذلك قوله : تعالى

(آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) (الحديد 7)

وقوله : تعالى (يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) (ص26)

العلم والصحة

العلم والصحة : وإذا كانت هذه هى مهمة الإنسان فى الحياة وهى حكمة خلقه وحكمة الإنعام عليه بقوى العلم والعمل وحكمة تسخير الكون وإخضاعه فى التفكير والتصريف فإنه لا سبيل إلى قيامه بهذه المهمة وتحقيق تلك الحكم إلا إذا تحصن بالعلم ليعرف الخير من الشر والنافع من الضار والمعمر من المخرب وتحصن كذلك بالصحة ليكمل عقله ويسلم تدبيره وتتصل جهوده فالمعرفة والصحة عنصران لا بد منهما فى قيام الحياة على الوجه الذى يحقق حكمة الخلق فى الخالق وليس فى الحياة شىء إلا وهو محتاج إليهما متوقف عليهما وليس فيما نعلم مقوضا لأصل السعادة وقاضيا على الهناءة ومفككا لعرى التعاون ومضيعا للعزة والسلطان مثل الجهل والمرض فهما بحق أصل البلاء ونذير الإضمحلال والفناء .

الإسلام يعلن الحرب على الجهل

الإسلام يعلن الحرب على الجهل : ومن هنا عنى الإسلام عناية كاملة بالإشارة إلى الوسائل التى تطهر المجتمع من الجهل والتى تطهره من المرض فهو قد حارب الجهل وتتبعه فى كل وكر من أوكاره وفى كل لون من ألوانه حارب جهل الشرك بالتوحيد وبث فى النفس والآفاق دلائله ولفت الإنسان إليها وحثه على النظر والتفكير فيها ليؤمن بأن العظمة التى يخضع لها ليست لأحد سواه فلا تعترضه فى طريق الكمال ما ينسجه الإنسان حوله من صور العظمات الزائفة حارب جهالة التقليد وأنكر على الإنسان أن يسلم عقله لغيره وأن يقف فى عقائده ومعارفه ووسائل الحياة عندما خلفه الآباء والأجداد من الأوهام والخرافات .

الباب الثالث

الإسلام والعقل

نوه الإسلام بالعقل والتعويل عليه فى أمور العقيدة والمسئولية والتكليف ولا تأتى الإشاره إلى العقل فى القرآن الكريم إلا فى مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه وذلك ما يؤخذ من جميع الآيات القرآنية التى رودت الإشارة فيها إلى العقل .

الإسلام عندما يخاطب العقل يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه

الإسلام عندما يخاطب العقل فإنه يخاطبه بكل ملكاته وخصائصه فهو يخاطب العقل الذى يعصم الضمير ويدرك الحقائق ويميز بين الأمور ويوزن بين الأضداد ويتأمل ويعتبر ويتعظ ويتدبر ويحسن التدبير والرؤية .

رجال الفكر الإسلامى قد وعوا القمة الكبرى التى يسبغها الإسلام على العقل

وصف الإمام الغزالى العقل فقال بأنه أنموذج من نور الله ووصفه الجاحظ بأنه وكيل الله عند الإنسان وإذا كانت وظيفة العقل على هذا النحو فإن محاولة تعطيله عن آداء الوظيفة يعد تعطيلا للحكمة التى أرادها الله من خلق العقل مثلما يعطل الإنسان حاسة من الحواس التى أنعم الله بها عليه عن آداء وظيفتها التى خلقت من أجلها وهؤلاء الذين يفعلون ذلك يصفهم القرآن الكريم بأنهم أحط من درجة الحيوان كما جاء فى القرآن الكريم فى قوله : تعالى

(لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ) (الأعراف 179)

الإسلام يعتبر عدم إستعمال العقل خطيئة : ومن هذا المنطلق يعتبر الإسلام عدم إستخدام العقل خطيئة من الخطايا الكبرى وذنبا من الذنوب العظمى التى يمكن أن تؤدى بصاحبها إلى الهلاك الأبدى وفى ذلك يحكى القرآن الكريم عن الكفار يوم

القيامة قولهم : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (10)

فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ) (الملك 10- 11)

الإسلام يجعل التفكير واجبا مقرراوفريضة إسلامية : ولهذا كانت دعوة القرآن للإنسان لإستخدام ملكاته الفكرية دعوة صريحة لا تقبل التأويل فالإسلام يجعل التفكير واجبا مقررا وفريضة إسلامية ومن هنا قرر بن رشد أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل فى الموجودات وإعتبارها وذلك أخذا من آيات القرآن العديدة فى هذا الشأن وإذا كانت الممارسات للوظائف العقلية تعد واجبا دينيا فى الإسلام فإنها من ناحية أخرى تعد مسئولية حتمية لا يستطيع الإنسان الفكاك عنها وسيحاسب على حسن أو إساءة إستخدامه لها مثلها مثلما يسأل عن إستخدامه لبقية وسائل الإدراك الحسية وفى ذلك يقول : القرآن الكريم (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (الإسراء 36)

ومن منطلق حرص الإسلام على ممارسة العقل لوظائفه التى أرادها الله كان حرص الإسلام شديدا على إزالة كل العوائق التى تعوق العقل عن ممارسة نشاطاته

الإسلام يرفض التبعية الفكرية والتقليد الأعمى : لهذا رفض الإسلام التبعية الفكرية والتقليد الأعمى وقد حذر النبى صلى الله عليه وسلم من التقليد الأعمى للآخرين دون تفكير قائلا " لا تكونوا إمعة تقولون إن أحسن الناس أحسنا وإن ظلموا ظلمنا ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساءوا فلا تظلموا " رواه الترمذى

التقليد ضلال

إن التقليد ضلال يعذر فيه الحيوان ولا يصح بأى حال من الأحوال من الإنسان القادر على التفكير والتمييز وكما رفض الإسلام أيضا الدجل والشعوذة والإعتقاد فى الخرافات والأوهام وتفسير الأمور بغير أسبابها الحقيقية .

أزال الإسلام القيود عن العقل وركزعلى المسئولية

الفردية التى لا تقوم إلا على أساس حرية الفرد

ومن أجل إزالة القيود عن كاهل العقل الإنسانى ركز الإسلام على المسئولية الفردية التى لا تقوم إلا على أساس حرية الفرد وإطمئنانه إلى حقوقه فى الأمن على نفسه وعقله .

الإسلام حرر الفرد بعقيدة التوحيد

حرر الإسلام الفرد المؤمن بعقيدة التوحيد من الخوف المهيمن من السلطة الدنيوية ورفعه إلى مقام العزة التى يقول القرآن فيها

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون 8)

كما قرر الإسلام ألا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق وأن المؤمن لا يخشى فى الله لومة لائم .

حرية العقل فى التفكير والتعبير : ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن حفظ العقل لن يكون له معنى بدون الحرية حرية هذا العقل فى التفكير والتعبير عن رأيه وطرح وجهات نظره دون حجر على الرأى أو مصادرة للفكر ولا شك فى أن ما يصدر عن الإنسان من رأى لا يكون بالضرورة صائبا دائما **ولكن** تقويم هذا الرأى بالحجة والمنطق وليس بالقهر والإرغام .

الحرية ترتبط دائما بالمسئولية : من المهم هنا أن نشير إلى أن الحرية ترتبط دائما بالمسئولية فليست هناك حرية تخرج عن هذا النظام وإلا أصبحت الأمور فوضى لا ضابط لها ولا نظام والمسئولية هى صمام الأمان لضمان البعد عن التجاوزات التى قد تثير الفتنة بين الناس أو تعكر صفو النظام العام للمجتمع أو تعرض أمن الوطن للخطر .

الحرية هى قوام العقل

إن الحرية هى قوام العقل وإفتقادها يعنى إلغاء دور العقل وإلغاء دور العقل يؤدى إلى تخلف الفكر وبالتالى يؤدى إلى تخلف المجتمع **ومن أجل ذلك** فإن حفظ العقل يعنى ضمان الحرية للعقل وحمايته من أى عدوان على حقه فى التفكير والتعبير .

إختلاف وجهات النظر يثرى الفكر من

خلال تفاعل الآراء

إن إختلاف وجهات النظر فى المسألة الواحدة من شأنه يثرى الفكر من خلال تفاعل الآراء وتمهيد الطريق إلى أفضل الآراء بما يحقق أفضل النتائج .

إختلاف الآراء أمر طبيعى وظاهرة تدل

على حيوية الأمة

لا يجوز أن ننظر إلى إختلاف الآراء على أنه أمر مزعج أو مثير للقلق إنه بالأحرى أمر طبيعى ومطلوب ويعد ظاهرة صحيحة تدل على حيوية الأمة فقد خلق الله عزوجل الناس مختلفين كل له شخصيته المستقلة (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) (هود 118-119)

إختلاف وجهات النظر ينبغى أن يظل فى

دائرة حرية الفكر

يجب أن يكون إختلاف وجهات النظر فى دائرة حرية الفكر دون أى شكل من أشكال التعصب ومن الضرورى أن تكون هناك بين المتحاورين مساحة تتيح الإستماع لمختلف وجهات النظر دون حجر على رأى أو مصادرة لفكر .

إتساع مجال الرؤية للعقل يفسح المجال لإختلاف الآراء

وتعدد الرؤى الفكرية

الأمر الذى يثرى الحياة الفكرية للأمة ويساعدها على الوصول إلى أفضل الآراء لحل مشكلاتها المختلفة كما يؤدى إلى الإبداع الفكرى الذى يشمل جميع مجالات الحياة والأمة التى ينشط فيها العقل ويتحرك فيها الفكر أمة لا يخشى عليها من شىء لأنها تكون حية بعقول أبنائها متحركة بحركة أفكارهم .

فى ظل المناخ الفكرى السليم يختفى التعصب الأعمى

التعصب الأعمى يختفى فى ظل المناخ الفكرى السليم وما يصحبه من ضيق فى الأفق وتحجر فى الفكر ويحل محل ذلك التسامح وإحترام وجهات نظر الآخرين وإفتراض حسن النية فيما يصدر عنهم من آراء وأفكار حتى فيما يتصل بأمور الدين

وفى هذا الصدد يبرز الإمام محمد عبده ما إشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد أحكام الدين وهو إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر ويضيف الإمام محمد عبده إلى ذلك قوله : فهل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا .

الإسلام يعتبر أى آفة تنال العقل بالعدوان عليه مصدر شر وأذى وعبئا على المجتمع

إن أى آفة تنال العقل عن طريق العدوان عيه تجعل صاحبه عبئا على المجتمع ومصدر شر وأذى للناس وهذا يعنى أن عقل كل فرد من أفراد المجتمع ليس حقا خالصا له يتصرف فيه كيف يشاء بل للمجتمع حق فيه بإعتبار كل شخص لبنة من لبنات المجتمع .

لا تستقيم مصالح الأمة إلا إذا كانت عقول أبنائها سليمة

إن مصالح الأمة لا تستقيم إلا إذا كانت عقول أبنائها سليمة من الآفات قادرة على التفكير السليم والتخطيط الدقيق لكل ما من شأنه أن يعود بالخير والسعادة على الأفراد والجماعات .

من صور العدوان على العقل

أن يجند الشخص ذكاءه وملكاته العقلية فى أعمال الشر التى تضر بالآخرين والمجتمع بصفة عامة وقد يكون العدوان على العقل عن طريق الآخرين الذين يقدمون له الزاد اثقافى الفاسد ويمنعون عنه مصادر التثقيف السليم ولا شك فى أن العدوان على العقل الإنسانى على هذا النحو أو ذاك فى الوقت نفسه عدوانا على حق الله وإلغاء حكمته من خلق العقل ليكون نورا يكشف للإنسان طريقه إلى الحق والرشاد ويقدم من خلاله الخير لنفسه والآخرين .

فصل

صلة العقل بالدين

إذا كان حفظ العقل وحفظ الدين من المقاصد الأساسية للشريعة الإسلامية فإن من الأمور البديهية إذا أن يكون هناك توافق بين هذين الأصلين فلا يتصور أن تؤكد الشريعة على ضرورة حماية العقل وحماية الدين معا إذا كان بينهما تعارض بأى شكل من الأشكال وإذا كان الإنسان فى حاجة إلى العقل وحمايته من العبث به وفى الوقت نفسه فى حاجة إلى الدين وحمايته من العدوان عليه بأى صورة من الصورفإن المنطق يقضى بأن يكون هناك تكامل بين هذين الأصلين إن مهمة العقل هى أن يقودنا إلى معرفة الدين معرفة وجود الله عزوجل وفهم الوحى الذى أنزله على رسله لإبلاغه إلى البشر وإذا كانت هذه مهمة العقل فإن الإمام الغزالى يرفض بكل وضوح الرأى الخاطىء الذى يذهب إلى أن العقل هو مجرد المنطق والجدل ويبين أن رفض العقل يستند إلى هذا الرأى الباطل ويوضح الإمام الغزالى ذلك فى نص طويل فى كتابه إحياء علوم الدين فيقول : فاعلم أن السبب فيه أى فى رفض العقل .

أن الناس نقلوا إسم العقل والمعقول إلى المجادلة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة علم الكلام فأما نور البصيرة الباطنة أى العقل التى يعرف بها الله تعالى ويعرف صدق رسله فكيف يتصور ذمه وإن ذمه فما الذى يحمد فإن كان المحمود هو الشرع فبما علم صحة الشرع فإن علم بالعقل المذموم الذى لا يثق به فيكون الشرع أيضا مذموما ولا يلتفت إلى من يقول إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل فإنا نريد بالعقل ما يريده بعين اليقين ونور الإيمان وهى الصفة الباطنة التى يتميز بها الآدمى عن البهائم حتى أدرك بها حقيقة الأمور وأكثر هذه التخبيطات إنما ثارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ .

العقل كالأساس والشرع كالبناء

العقل كالأساس والشرع كالبناء : ولا يكتفى الإمام الغزالى بالكشف عن خطأ هذه الإتجاهات التى ترفض العقل والمعقول وإنما يؤكد متانة ورسوخ العلاقة بين الدين والعقل فى وضوح لا لبس فيه ولا غموض حيث يقول : فالعقل كالأساس والشرع

كالبناء وكل منهما يكمل الآخر ولا يمكن فصلهما عن بعضهما تماما مثل الأساس والبناء اللذين لا يقوم أى منهما لذاته فلن يغنى أساس ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أساس فالشرع عقل من خارج والعقل شرع من داخل وهما متعاضدان بل متحدان .

الإنسان وحاجته للدين والعقل

يؤكد الإمام الغزالى حاجة الإنسان للدين والعقل معا لأنهما خلقا لإرشاد الإنسان وصلاحه وإنقاذه وواجب الإنسان يحتم عليه أن يتمسك بهما معا وإلا كان جاهلا أو مغرورا كما يقول : فى النص التالى فالداعى إلى محض التقليد فى الأمور الدينية مع عزل العقل بالكلية جاهل والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنة مغرور

ويتفق الفيلسوف ابن رشد فى قضية العلاقة بين الدين والعقل مع الإمام الغزالى فيقول : الحكمة أى الفلسفة المعتمدة على العقل صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة وهما المصطحبتان بالطبع المتحابتان بالجوهر والغريزة وكذلك يتفق الإمام محمد عبده مع كل من الغزالى وابن رشد فى علاقة الدين بالعقل فيقول : لقد تآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل بتصريح لا يقبل التأويل وتقرر بين المسلمين كافة إلا من لا ثقة بدينه ولا بعقله أن من قضايا الدين ما لا يمكن الإعتقاد به إلا عن طريق العقل كالعلم بوجود الله وإرسال الرسل وإدراك فحوى الرسالة والتصديق بها كما أجمعوا على أن الدين إذا أتى بشىء يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل وقد اتضح لنا مما سبق أن القول : بوجود تعارض بين الدين والعقل قضية مصطنعة لا أساس لها فى تعاليم الإسلام ذاته ولا فى فكر مفكرى الإسلام الثقات فكلاهما الدين والعقل من نعم الله على الإنسان صدرا من عند الله لغاية واحدة هداية البشر وكلاهما أثر من آثار الله فى الوجود وآثار الله يجب أن ينسجم بعضها مع بعض ولا يعارض بعضها بعض .

الإسلام ينعى على مبدأ التقليد الأعمى

لم يمن المصلحون فى جميع العصور وفى كل أدوار التاريخ البشرى بعقبه أقوى مراسا من عقبة التقليد الأعمى للآباء السابقين وللقادة المحتكرين للدين فكان هذا الجمود سببا فى بقاء أديان محرفة إلى هذا العهد ويعتبر بقاؤها خزيا للعقلية الإنسانية كما أنه كان سببا فى إستمرار وجود طوائف تستغل جهالات شعوب كانت تصلح لأن تأخذ مكاناتها من مجموعة الأمم الناهضة فبقيت لهذه العلة فى الظلام البهيم إلى العهد الحاضر .

لا يدرك تأثير التقليد الأعمى إلا من يعنى بدراسة الأديان

لا يدرك مبلغ تأثير التقليد الأعمى فى حياة الشعوب ومقدار ما يجنيه على أهله من مجافاة المنطق والعلم ولا يفهم معنى قولنا إن بقاء ذلك يعتبر خزيا للعقلية البشرية إلا من يعنى بدراسة الأديان التى يدين بها السواد الأعظم من الأمم المعاصرة لنا والفروع التى إشتقت منها ويبلغ عددها بضع مئين .

الإسلام أول من تصدى لعادة التقليد الأعمى

أول ما تصدى الإسلام له بعد تقرير العقائد الأولية عادة التقليد الأعمى للأسلاف والقادة دون عرضها على محك النظر وزنتها بقسطاس العقل المستقيم نعم إن هذا المنطق الإعتقادى ما كان يمكن إشرابه للعقول فى الأجيال السحيقة المظلمة التى لم تبلغ رشدها بعد ولكنها بعد أن بلغت هذا الرشد فى الأجيال التى تلتها كان وجوده فى الدين العالمى العام من ألزم لوازمه فلذلك شرع الله هذا الأصل فى دينه الأخير لا مواتاه لهذا التطور العقلى الخطير فحسب ولكن لإيقاظ العاطفة الدينية أيضا فى نفوس الجماهير إن من يعرف بالبحث فى الشئون الإنسانية فى عهدها الأخير يجد أن النفوس قد خلعت شكائمها وأن الشهوات قد فتكت من عقلها وأن الفتنة قد ركبت رأسها وإشتطت فى جماحها وأن العاطفة الدينية وهى القوة المعنوية العليا هى المعدلة لهذه التطرفات قد ضعفت عن آداء وظيفتها عند كثير من الأمم حتى ظنت بها الظنون عندهم ولذلك إلتمس بعضهم طريقا آخر للتخلص من هذه التطرفات وبعضهم

ذهب إلى تلمس معدل غيرها من العلم أو من سلطان الرأى العام أو من غريزة بشرية أخرى .

العاطفة الدينية أصلح الغرائز لمعالجة التطرفات : لكن الذى يتعمق فى دراسة العلل الأولية يدرك أن العاطفة الدينية هى أصلح الغرائز الإنسانية لمعالجة هذه التطرفات وأنه لا يوجد أقوى منها تأثير فى النفوس فإذا كانت قد ضعفت عن آداء وظيفتها عند بعض الأمم فإنما إعتراها هذا العرض بسبب ما أصاب سلطان أديانهم نفسها من الضعف وهى لم يصبها هذا الضعف إلا أنه قد وقر فى نفوس الدهماء أن بعضها مع ما حملته من أوهام الأقدمين وما طبعت عليه من مجافاة العقل والنظر فى أمور تقليدية يجب أن تؤخذ جملة أو تترك جملة .

الدين ينعى على التقليد والمقلدين

إذا علمنا أن هناك دينا ينعى على التقليد والمقلدين ويدعوا إلى النظر والعقل فى الدين ويبنى عقائد على الحق اليقين والدليل المتين ويقوم من هذا كله على أسلوب يفوق الأسلوب العلمى الحديث فى سمو أصوله ودقة تمحيصه لقوى أملهم فى عودة سلطان الدين ومتى عاد سلطانه تيقظت العاطفة الدينية فى قلوب الآخذين به وإستردت قوتها فى تعديل عوجهم وتقويم أودهم وإقامتهم على جادة المدينة الكاملة والكمال الصحيح من أجل هذا إشتد الإسلام فى تذليل عقبة التقليد الأعمى للأولين فعالج ذلك فى ألوان شتى من البيان والتدليل بحيث لا تدع لأهل الجمود مجالا للتعطيل ولا لأنصار الإحتكار مطمعا فى التضليل وكان ذلك منه لإصابة أغراض ثلاثة : -

أولها : ليتمكن هو من نشره بالأصول المحببة . التى قصد بها إحياء البشرية فى عهدها الأخير ولا يحول دونها غير التقليد الأعمى .

ثانيهما : ليحفظ للعاطفة الدينية قوتها الذاتية . لتستطيع بها تأدية وظيفتها فى ضبط النفوس وكبح جماح الشهوات وصد تيار الفتنة عن إحتراف الجماهير وذلك يجعل الدين مسايرا للتطورات العقلية والثقافة العلمية .

ثالثهما : ليجعل أسلوب النظر الدينى أرقى وأدق من أسلوب النظر العلمى حتى لا يطغى الأخير على الأول فيكسف على جماله ويغض من جلاله ويجرى الناس خلفه

مفتونين به وهذا مرام خطير رمى إليه الإسلام لكيلا ينفرد العقل وحده بالسلطان على النفوس مستقلا عن العاطفة الدينية التى جعلها الله معدل للميول البهيمية التى تلازم الحياة البشرية ولا تقوى أية ثقافة على كبحها كما هو مشاهد ملموس وهذا لا يتأتى إلا بإرغام العقل عن طريق الحجة والبرهان على إحترامها وعلى الإعتراف بسلطانها وهو لا يعترف لها بذلك إلا إذا قامت على مثل ما يقوم عليه من وسائل التمحيص والتحقيق وتجردت عن مثل ما تجرد عنه من آثار الوراثة والتقليد التى لا يعززها دليل ولا ينهض على إثباتها برهان عقلى أو محسوس .

الإسلام إستطاع أن يؤاخى بين العقل والعاطفة الدينية

إستطاع الإسلام أن يؤاخى بين العقل والعاطفة الدينية لأول مرة فى تاريخ الأديان فتمكن من تأليف أمة تقوم على هذين الأصلين الكريمين فأدت إلى أرقى ما يبلغه البشر فى الحالتين فكما إنتهت زعامة الثقافة العقلية والعلمية فى الأرض إنتهت إليه الزعامة الدينية فيها أيضا وأصبح الإسلام أهلا لأن يؤسس أرقى مدنية فاضلة دون أن يصطدم فيها العقل والدين ودون أن يتدهور الناس فى ميولهم وآدابهم إلى الحضيض كما هو الشأن فى مدنية هذا العصر اليوم .

جاء الإسلام ثورة على التقاليد والأديان الباطلة

شرع الإسلام والناس مستعدون لما ورثوه عن أسلافهم من أديان باطلة وتقاليد معطلة لا يبغون عنها حولا ويعتبرون كل من يريد زحزحتهم عما هم عليها منها عدوا لدودا لا لشىء غير أنه يأتيهم بإصلاح جديد فبدأ حملته عليهم بالإنذار والوعيد موقظا فيهم غريزة التعقل منبها إياهم إلى النظر والتأمل وداعيا إلى الإعتبار بمصاير الأمم التى سبقتهم فلما تم له هذا التمهيد أخذ يهاجم العلة الرئيسية التى تصرفهم عن الأخذ بالجديد وهى تقليدهم الأعمى لما ورثوه عن أسلافهم الأولين وإن كانوا منه على ضلال مبين فقال : تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ

آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ)

(البقرة 170 – 171)

لقد مثل الله تعالى الآية الثانية حال من أعماهم التقليد فجعل من يدعوهم إلى الخير كمن يصيح بالبهائم التى لا تفهم لدعاء الداعى معنى فهم صم بكم عمى لا يعقلون وذلك لشدة تمسكهم بما ورثوه عن آبائهم وتجنبهم التفكر والتعقل بهذه الزواجر الأخاذة بالألباب هدم الإسلام مبدأ التقليد الأعمى للآباء والأجداد وأيقظ الشعور بالمسئولية الشخصية وأن الإسلام أراد بما هدم من أركان التقليد الأعمى أن يلاشى حال جاهلية كان الناس فيها مستعبدين لطوائف فيهم العلم والدين وهى حالة متى رسخت أصولها فى أمة أصبح العلم والدين وقفا على طائفة تتلاعب بهما أهواؤها وتحولهما إلى ما يوافق مصالحها وشهواتها فإستحال على طول الزمن إلى مجموعة من أوضاع جامدة تحول بين الأمم وإرتقاؤها وتقف بها دون غاياتها هذا ما رمى إليه الإسلام فتأدى أهله على أكمل ما تتأدى إليه أمة من تعاون العلم والدين وتآخى حاجات القلوب وحاجات العقول فبلغوا مدى من الإرتقاء أوجب لهم زعامة العالم قرونا طويلة والأمل معقود أن تعود إليهم هذه الزعامة متى قاموا بحق هذا الدين المبين

الباب الرابع

الإسلام دين الحرية

لقد بعث النبى صلى الله عليه وسلم وفى المجتمع الإسلامى أصنام كثيرة عملت على تقويض بنيانه ونشر الفساد فى كيانه وفى علاقات العالم الغجتماعية حطم المصطفى صلى الله عليه وسلم التعصب والتفرقة العنصرية والإسلام لا يكره شيئا ككراهية هذا التمايز العنصرى بين الناس ويبرأ ممن يثير العصبية مصداقا لقوله : صلى الله عليه وسلم " ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل مع عصبية وليس منا من مات مع عصبية " . رواه مسلم

وللأسف الشديد كما يقول الراحل : محمد عطية الإبراشى فى كتابه روح الإسلام وما زالت الأمم التى ترفع صوتها باسم الديمقراطية والحرية تقاتل عباد الله الأحرار الذين تسميهم الأجناس المكونة معاملة خاصة فيها إذلال وعنف وإحتكار .

الإسلام جاء ليقرر الحقوق والحريات

جاء الإسلام ليقرر الحقوق والحريات وكفالتها للجميع بدون تمييز وهى حقوق ثابتة لا غنى عنها وميزتها أنها منح إلهية وقد ركز على تكريم الإنسان فى القرآن الكريم قال : تعالى (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء 70)

وبعد أن نشأت المجتمعات ورسمت ضروريات الحياة كانت الحرية مركز ومنطلق تلك العلاقات ونزلت الرسالات السماوية وكانت الحرية هى أساس تلك الرسالات لتنظم العلاقات البشرية ولا يوجد تعارض بين الأديان فى حقوق وحرية الإنسان والإسلام والإستبداد ضدان لا يلتقيان فتعاليم الإسلام وفاء بحاجات الأمة كلها وضمان للحريات والحقوق .

الحرية صدى ومعنى للحياة

الحرية صدى ومعنى للحياة : فالحرية صدى الفطرة ومعنى الحياة والمرء يحس بأن كل ذرة من كيانه تبشدها وتهفو إليها وكما خلق الله لكل جارحة أو حاسة وظيفتها

التى تعتبر إمتدادها لوجودها خلق الإنسان ليعز لا ليذل ويكرم لا ليهان وليفكر بعقله ويهوى بقلبه ولكن الناس تظالموا فيما بينهم وطغى كبارهم على ضعفاؤهم .

إن عقول المستبدين : لا تعرف مبدأ التفاهم ولا تطيق الأخذ والرد للوصول إلى الحق .

إن الله خلق الإنسان وسخر له الكون ليكون خليفة الله فى الأرض والمسلمون أحوج أهل الأرض إلى الرواد الذين يمهدون لهم سبيل الكرامة ويذفعون عنهم مكايد العنف

مفهوم الحرية فى الإسلام

حين نرجع إلى مفهوم الحرية فى الإسلام نجد وضوحا وتكاملا وسماحة لا تصل غليها مفاهيم الفلسفات التى تصدت للحرية منذ جون سيتورات ميل إلى سارتر

فالحرية فى الإسلام هى التحرر من قيود الوثنية وإستعباد الإنسان للإنسان وهى ضد عبودية الأوثان وضد الرق وضد العبودية لأى كائن وهى حرية الفرد والجماعة وهى حرية الكلمة وحرية الضمير تجمعها آية واحدة من القرآن الكريم (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) (البقرة 256)

فهى حرية الإعتقاد والقول والتفكير .

الإسلام كما دعا إلى تحرير الفكر دعا إلى تحرير الجسم

الإسلام هو أول صيحة لمحاربة الرق فى أضيق نطاق كمقدمة لتصفيته والحرية **السياسية** واحدة من حريات الإسلام وتقوم على الشورى غير أن الإسلام يعطى للحرية ضوابطها وتحفظاتها التى تضمن حرية الغير فالإسلام حين يقرر إطلاق الحريات للأفراد فإنه من ناحية أخرى يشترط ألا يكون فى ذلك طغيان على حريات الآخرين أو اضرار بمصالح الجماعة .

الإسلام يدعوا إلى الحرية من كل القيود

إن الإسلام يدعوا إلى حرية العقيدة وإلى الحرية من كل قيود العبودية الفكرية والجسدية كما يدعوا إلى حرية الإنسان من قيد الجهل والخرافة ويصل الإسلام إلى الغاية فى تقرير الحرية حين لا يبقى الإنسان عبدا لشهواته وأهوائه أو عبدا لغير الله

فلا يخضع لسطان غير سلطان الخالق ويـأنف أن يكـون عبـدا لإنسـان مثلـه فـلا يقبـل الذل لمن هو مثله ويأنف من الإحساس بأن الرجل أقل من سواه فلا فـرق بـين الكبيـر والصغير والغنى والفقير والأبيض والأسود إلا بالتقوى والعمل الصالح .

فصل

شهادة المنصفون من كتاب الغرب بدور الإسلام
فى حرية الفكر

قد شهد المنصفون من كتاب الغرب بدور الإسلام فى حرية الفكر وكيف أطلـق العقـل الإنسانى من قيوده ودفعه من الخروج من آثار الوثنية .

يقول : بارتلمى سانهلير إن الإسلام قد أحدث رقيا عظيمـا فقـد أطلـق العقـل الإنسـانى من قيوده التى كانت تأسره حول المعابد وبين الكهنة من ذوى الأديان المختلفة فإرتفع إلى مستوى الإعتقاد بحياة وراء هذه الحياة ثم إن بتحريمه الصور فـى المسـاجد وكـل ما يمثل الله قد خلص الفكر الإنسـانى مـن وثنيـة القـرون الأولـى وإضـطر العـالم لأن يرجع إلى نفسه ولأن يبحث عن الله خالقه فى صميم روحه وأشار جوستاف لوبون فى مقارنة الإسلام وغيره فقال : إن الإسلام هو الذى علم الإنسانية كيف تتفـق حريـة الفكر مع إستقامة الدين وقد كـان يظـن أنهمـا لا يجتمعـان بـل كانـت حريـة الفكـر فـى الإسلام واضحة وضوحا لا حد له فـى الأعمـال التـى تتنـاول الأديـان الأخـرى وكـان مبدأ الإنصاف واضحا فى هذا المجال .

المسلمون هم أول من ألفوا فى الملل والنحل

أول من ألفـوا فـى الملـل والنحـل لأنهـم كـانوا واسـعى الصـدر تجـاه العقائـد الأخـرى وحاولوا أن يفهموهـا ويدحضـوها بالبرهـان والحجـة ثـم إنهـم إعترفـوا بمـا أتـى قبـل الإسلام من ديانات توحيدية ويحظى ابن حزم بالنصيب الأكبر وقد أشار هاملتون إلى ذلك عند تعرضه لدراسات مقارنة الأديان وقد كتب أبو الريحان البيرونى فى أحد أديان الهند فى القرن الخامس من الهجرة فلـم يمـس عاطفـة أحـد مـن أهلهـا وكـان إذا كتب نحلة يوهمك أنه هو أحد أبناء تلك النحلة لتلطفه فى وصف شعائرها وكان كتـاب المسلمين يذكرون جميع المخالفين بكل حرية وفى كتاب الطبقـات لابـن أبـى أصـبعية

وطبقات الحكماء لابن القفطى وطبقات الأدباء لياقوت الحموى والوافى بالوفيات للصفدى وفى تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى أمثلة لهذا التسامح فقد ترجم المؤلفون للنصارى واليهود والسامريين والمجوس كأنهم أبناء ملة واحدة .

الإسلام لم يقبل بحرية الفكر على أساس التحرر من الأخلاق والقيم

كان مفهوم حرية الفكر واضحا وصريحا لم يقبل الإسلام محاولة الإغراء بحرية الفكر على أساس التحرر من الأخلاق أو التحرر من القيم أو الموروثات من رق التقليد الأعمى ورباه على حرية الفكر وإستقلال الإرادة ودعا إلى التخلص من عبادة الأهواء وطالبه بالدليل ونعى عليه الجهل والظلم والمتابعة بغير إقناع فهى حرية فكرية تتقيد بالحق والدليل وتقوم على قواعد النظر والإستدلال بعيدا عن الأهواء والأوهام .

فصل

وعى الأمة الإسلامية

إن الأمة الإسلامية فى عقليتها التى إنطلقت من دعوة القرآن لم ترفض الوحى ولم تتنكر للنص المأثور **وأيضا** فهى لم تقف لتتعبد بالنص المأثور دون وعى وإنما أخذت بالنقل والعقل فليس من مصلحة المسلم ترك الضحالة والمحاكاة والرتابة والآلية تطمر أعماقه وتأكل إرادته

من سبل الوعى : أن تدرك أن الخلاف والإختلاف ضرورى لأن ورود المتشابه فى القرآن كما فى قوله : تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ) (آل عمران 7)

فالعلماء لم يختلوا على تنزيل القرآن وإنما إختلفوا على تفسيره أى أنهم كما يقول : الزمخشرى متفقون على نصه ولكنهم مختلفون فى تفسيره فالقرآن الكريم فيه محكم ومتشابه ولو كان القرآن كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والإستدلال ولإرتكنوا على طريقة التقليد.

الإسلام وحقيقته وهو أنه شحنة هائلة من النشاط العقلى

إن الإسلام نفسه شحنة هائلة من النشاط العقلى تأبى أن يتحول المسلمون إلى مجرد نسخ متطابقة تتكرر بإستمرار وبلا إختلاف من عقل واحد أيا كان هذا العقل حتى لا يهلك المسلمون من الإجداب والرتابة والركود والشعور بالقدم وليس يرضى الإسلام للأمهات المسلمات أن ينجبن إمعات متكررة معتمة وإنما يرضديه ويعليه إنجاب العقول اليقظة النشطة وبكل تأكيد ستظل المذاهب الكلامية ومدارس الفكر فى الإسلام توجد ما بقى للمسلمين حاجة إلى التعبير عن تراثهم العقلى والروحى وإلى إستدامة

الصلة بين دينهم وبين واقع الحياة وليس من مصلحة الإسلام والمسلمين كبت النشاط العقلى والروحى داخل الإسلام لأن من أجل ما يقدمه المسلم لدينه أن يفكر فيه ويشعر به والإسلام يضعف ويصبح تراثا جامدا محنطا إذا لم يفكر فيه ويشعر به إلا الحمقى والجهلاء والعملاء والمنهج العقلى كتيار فكرى كان لا بد من ظهوره وذلك لمجابهة التحديات الفكرية التى لاقاها الإسلام عندما إمتد سلطانه وعندما إشتد الصراع الفكرى بينه وبين أصحاب الأديان الأخرى لقد فتح الإسلام كقوة سياسية أرض الديانات القديمة وأثبت كيانه فيها إلا أن الإسلام كتصور روحى خاص إستمر يناضل فكريا أهل الأديان المختلفة لمدة طويلة ومثلوا فيها معارضة فكرية قوية صانوا فيها البناء الفكرى والروحى للإسلام من خطر تلك الآراء التى أرادت أن تشوه صفاء العقيدة الإسلامية .

الإختلاف قرين حرية الرأى

علق بعض العلماء على ما ذكره الإمام الزمخشرى فيقول : وهكذا ألمح الإمام الزمخشرى إلى عامل من عوامل إزدهار الحضارة الإسلامية عقب قيام الإسلام .

إذ ألزم القرآن المسلمين بما غمض من معانى آياته وبمحكمه ومتشابهه البحث والنظر والتفكير والإستنباط ولو كان سهل المأخذ يسير الفهم لكانت السطحية التى تغرى بالتقليد والجمود فالإختلاف قرين حرية الرأى وإذا كان الإختلاف يخترق جميع الأمم والملل والمعرفة فإن للإختلاف الذى وقع بين المذاهب بنيته الأصلية المستمدة من خصوصية النص القرآنى والحديث البيانى ونعنى بالخصوصية هنا ما منح النص القرآنى إعجازه وما إمتاز به على سائر النصوص فالخطاب القرآنى كلام تتسع معانيه وتتعدد وجوه الدلالة فيه إنه كلام لا يمكن إستقصاء معانيه أو حصر دلالته .

يقول الزركشى معانى القرآن لا تستقصى ولا نهاية لفهم كلام الله ولا يمكن لأحد أن يقبض عليه أو يفوز بحقيقته من هنا تباينت التفاسير وإختلفت الطرق والمذاهب والفرق والمقالات إذا نحن نحتاج أول ما نحتاج إليه إلى الإعلان عن حق الإختلاف الذى هو حق من حقوق الإنسان إن لم يكن أبرزها .

الحوار مبدأ أساسى فى الفكر الدينى الإسلامى

قد إعتمد القرآن الكريم الحوار مبدأ أساسى كمنهج وأسلوب فلا إيصال الحقائق إلى الناس وقد تنوعت أشكال الحوار القرآنى وأصنافه تنوع المقاصد والأهداف تماشيا مع الفطرة الإنسانية وإحتياجاتها والأغراض التعليمية والتربوية المقصودة فهناك حوار تذكرى وتعبدى وإيمانى وإنسانى وهناك حوار خاص مع الرسول صلى الله عليه وسلم وهناك حوار برهانى والحوار القرآنى بجميع أصنافه وأشكاله يهذب المشاعر ويوقظ الوجدان ويربى العواطف الربانية ويجيب أسئلة السائلين وآثاره التربوية كثيرة وأهمها كشفه عن العناية الإلهية بالإنسان وقيمة الإنسان عند الله تعالى وهو يحاوره أو يستمع إليه ليخرجه من ظلمات الجهل والشرك إلى نور المعرفة والتوحيد .

الله عزوجل يحثنا على الحوار الهادف

قد حثنا الله سبحانه وتعالى على الحوار الهادف وقد ورد ذلك فى كثير من الآيات التى تعرضت للحوار مع المشركين كقوله : تعالى (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (سورة لقمان 25)

رغم أن هؤلاء المشركين كانوا يعبدون الأصنام تقربا إلى الله وإشراكا به فإن الحوار يأتى لتبادل المعلومات وإستبدالها بمعلومات صحيحة فيها الخير للإنسان .

شروط حوار الإنسان مع أخيه أن يكون به سعادة الإنسان

من شروط حوار الإنسان مع أخيه الإنسان أن يكون الحوار ذاته المقصود به سعادة الإنسان ورقيه وليس الحصول على منفعة شخصية فليس هناك من نبى حاور قومه ونقل الرسالة الإلهية إلى إنسان آخر من أجل منفعة شخصية لنفسه إنما كان الهدف إنقاذ الإنسان وسموه ورقيه من خلال تطبيق المنهج الإلهى فى الأرض .

الرسالات السماوية تطالب الإنسان وتدعوه إلى الحوار من أجل الرقى وبناء الحضارة

إن الرسالات السماوية إلى الأرض وإن تعددت إلا أنها فى مضمونها وجوهرها واحد تطالب الإنسان وتدعوه إلى الحوار من أجل الرقى وبناء الحضارة ولكن أين تكمن حضارة الإنسان ؟ إن حضارة الإنسان تكمن فى التطبيق العملى للأسس العلمية المنهجية الكامنة فى بصيرته التى تحصل عليها نتيجة المعلومات الواردة إليه والتى قام بتحليلها وتركيبها ووضعها فى بصيرته ونقلها إلى التطبيق العملى فلو سألنا إنسان مثلا ماذا يميز المجرم عن الإنسان السوى ؟

لكن الجواب أن الإنسان السوى هو الذى عرف الخطأ من الصواب لكنه فى الوقت نفسه أحجم عن تطبيق الخطأ وإستمر فى تطبيق الصواب فمرور الزمن والصراع القائم بين الخير والشر فى الإنسان وتغليب فكرة الخطأ على فكرة الصواب وإخراجها إلى حيز التطبيق بدلا من منعها مما أدى إلى تكريس الخطأ على مر الأجيال .

الإسلام يدعوا إلى الحوار وهو الأساس والمدخل للتقارب

إن الحوار هو الأساس والمدخل للتقارب ولطرح الأفكار الخاطئة لتحل محلها الأفكار الصحيحة والحوار فريضة مطلوبة والإسلام يدعوا إلى الحوار مع الآخر حيث إن الوحى القرآنى نص مفتوح على الزمن يحاور قارئه ويتفاعل معه ويجادله بالبرهان والحجة العقلية من أجل أن يهديه إلى مواطن النور الحق وهو حوار هادىء مسالم لا أثر فيه للتعسف والإلزام بالقوة والرهبة .

هدف الحوار وأسلوبه

هدف الحوار الدعوة إلى سبيل الله وأسلوب الحوار لا بد أن يتسم بالحكمة والتعقل والإعتدال وإحكام الأمور وأن يكون الحوار موضوعيا مفتوحا هدفا إلى تحقيق الغاية المرجوة بعيدا عن الإثارة وجرح العاطفة ودون عنف أو تعال بل برفق ولين وتواضع .

قيمة الحوار فى الإسلام وآدابه

للحوار فى الإسلام قيمة كبيرة فالحوار الهادىء هو طريق إلى حل المشكلات وزيادة المحبة والتفاهم بين المتحاورين ولعل ما يعانى منه المسلمون اليوم من مشكلات هو

نتيجة لغيبة الحوار فيما بينهم فكثير من المسلمون أو الناس الآن حين يتحدثون فى أمر من الأمور فى الدين أو الدنيا يحاولون أن يفرضوا آرائهم على الآخرين بالقوة ولا يستمعون لكلام الآخرين ويرفعون أصواتهم ليحققوا ما يريدون ولو إستمعوا إلى الآخرين وأخذوا كلامهم بهدوء فلربما وفروا على أنفسهم جهدا كبيرا ولوصلوا إلى حل سليم فالتفكير الهادىء طريق واضح سهل للوصول إلى الحق وكثيرا ما يحدث أن يكون الطرفان المختلفان ليس بينهما إختلاف كبير ولكن عدم إستماع كل منهما لصاحبه يزيد المشكلة تعقيدا أو يبعد كلا من الطرفين عن الآخر .

الإسلام يأمر بالتحاوربالحسنى : والإسلام يأمر المسلمين إذا أرادوا التحاور فى الأمور التى يختلفون فيها أن يتحاورا بالحسنى فإذا لم يكن الحوار بين المسلم وأخيه بالحسنى فالأفضل أن يغلق باب المجادلة والمحاوره والإسلام يأمر المسلم أيضا إذا أراد أن يحاور أو يجادل أهل الكتاب اليهود والنصارى بأن يحاورهم بالمعروف وبالحكمة يقول : تعالى

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (العنكبوت 46)

ويقول : تعالى

(ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل 125)

آداب لاالحوار

ولكى يكون الحوار بين المتحاورين ناجحا ومفيدا يجب أن يراعى طرفا الحوار الآداب التالية : -

أولا : تحديد موضوع المحاورة تحديدا دقيقا . فالكثير من المحاورات تفشل لأن كل طرف يتكلم عن ناحية مختلفة من الموضوع .

ثانيا : الإستماع التام للخصم وعدم مقاطعته أثناء حديثه لأن هذا يفسد المحاورة ويقطع تسلسل الأفكار .

ثالثا : إحترام الخصم وعدم الإستهانة به مهما يكن الخلاف .

رابعا : إذا اقتنعت بما يقوله الخصم فيجب علينا أن نعترف بذلك فالرجوع إلى الحق فضيلة .

سنة الخلاف وأدب الحوار

إذا كانت الإنسانية والبشرية قد بدأت بآدم وحواء أمة واحدة فى الدين والشريعة فإن تحول هذه الأمة الواحدة إلى أمم إقتضى التعددية فى شرائع الرسل بتعدد أمم الرسالات فكانت سنة التعددية منذ فجر التاريخ للإنسان (فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (البقرة 213) .

وإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد خلق كل شىء

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان 2)

وقال : تعالى (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ) (الملك 3)

فإن هذا الاختلاف والتنوع الذى فطر الله الناس عليه قد جاء لحكمة إلهية بالغة الأمر لأنه هو الحافز بالتعدد والتنوع للفرقاء المختلفين على التنافس والتدافع والإستباق إنتصارا من كل فريق لما يتميزون به وما فيه يختلفون عن الآخرين ولو لم تكن هذه التعددية وهذا التنوع والإختلاف لما كانت حوافز الإستباق ودواعى التدافع وأسباب التنافس بين الأفراد والأفكار والفلسفات والحضارات ولكانت الحياة سكونا ومواتا لا

حيوية فيها ولما إستطاع الإنسان تحقيق مقاصد الأمانة التى حملها بالإستخلاف لإستعمار الأرض وعمران الوجود .

الإيمان بالتنوع والتميز والإختلاف

هو الحافز على الإبداع

إن الإيمان بالتنوع والتميز والإختلاف هو الحافز على الإبداع والتدافع فى ميادين التقدم والعمران والإرتقاء بينما الإعتقاد بوحدة النموذج الفكرى والحضارى هو باب التقليد والتشبه ومن ثم السكون وذبول مواهب وقدرات الإبداع المفضى إلى الموت قال : عزوجل (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ)

(المائدة 48)

الحضارة الإسلامية لا تعرف التعصب بل تحث

على الحوار للوصول للحق

من الأسس التى قامت عليها حضارة الإسلام وبها رأت الدنيا لأول مرة دينا ينشىء حضارة بلا تعصب بل تحث على الترابط والتواصل والتعارف والحوار المستمر فى سبيل الوصول إلى الحق والعدل .

حرية المناقشات الدينية فى الحضارة الإسلامية

الله تعالى المسلمين ينصح أن يلتزموا جادة العقل والمنطق فى مناقشتهم مع أهل الأديان الأخرى وأن يكون عمادهم الإقناع وقرع الحجة بالحجة والدليل وفى ذلك يقول : تعالى مخاطبا رسوله عليه الصلاة والسلام (وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل 125)

ويقول : تعالى : مخاطبا المؤمنين

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (العنكبوت 46)

ويقول : تعالى : مخاطبا أهل الأديان الأخرى

(قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة 111)

وقوله : تعالى (بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا) (الأنعام 148)

وقوله : تعالى (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اِئْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف 4)

الحضارة الإسلامية كانت تعقد فيها المناقشات الدينية فى حرية وأمن وإطمئنان

كان خلفاء من بنى العباس وغيرهم يعقدون المجالس للمناقشات الدينية فيجتمع عندهم علماء كثيرون ينتمون إلى مختلف الطوائف وشتى الأديان والفرق فيتناقشون فى شتى العقائد ويوازنون بين الأديان كل يدلى بحجته ويبين رأيه فى حرية وأمن وإطمئنان ولم يكن الخلفاء يحتملون هذه المناقشات فحسب بل كانوا يشجعون عليها بمختلف وسائل التشجيع ويشتركون فيها بأنفسهم .

الإيمان الصحيح ما كان منبعثا عن يقين

وإقتناع لا عن تقليد وإتباع

إن الإيمان الصحيح هو ما كان منبعثا عن يقين وإقتناع لا عن تقليد وإتباع وبذلك حطم الإسلام القواعد التى قام عليها التدين فى كثير من الأمم من قبله وهى قواعد التقليد والإتباع وإهمال النظر والتفكير الحر وهاب بالناس أن يجعلوا عمادهم فى عقائدهم ونشر دينهم الدليل العقلى والمنطق السليم ودعا إلى النظر والتفكير وحث على رفض ما لا يؤيده علم ولا يعززه دليل .

إيمان المقلد غير صحيح

ذهب كثير من علماء التوحيد إلى أن إيمان المقلد غير صحيح وأخذ الله تعالى على المشركين تقليدهم الأعمى لآبائهم وإغفالهم جانب النظر والتفكير قال : تعالى (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة 170)

وقال : تعالى

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (المائدة 104)

ما ذكره الإمام محمد عبده عن التقليد

يقول إن التقليد بغير عقل ولا هداية هو شأن الكافرين والمرء لا يكون مؤمنا إلا إذا عقل دينه وعرفه بنفسه حتى إقتنع به فمن ربى على التسليم بغير عقل وعلى العمل ولو صالحا بغير فقه فهو غير مؤمن فليس القصد من أن يذلل الإنسان للخير كما يذلل الحيوان بل القصد من الإيمان أن يرتقى عقله وترتقى نفسه بالعلم فيعمل الخير لأنه يفقه أنه الخير النافع المرضى لله ويترك الشر لأنه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته .

فصل

الأمن النفسى والإجتماعى من ضرورات الحياة

وبدونه تفقد الحياة أمنها

يعتبر الأمن النفسى والإجتماعى : من ضرورات الحياة الإجتماعية ومطلب إنسانى يتصدر الحاجات البشرية وبدونه تفقد الحياة أمنها وإستقرارها ويفقد الوجود الإنسانى هدوءه وأمنه .

السلوك الإنسانى لا يستقيم فى حالة التصادم والصراعات : لن يستقيم السلوك الإنسانى فى حالة إنتشار التصادم والصراعات بين أفراد المجتمع ولن تتحقق كذلك الأهداف الفردية والإجتماعية فى مناخ لا يتوفر فيه الأمان والإستقرار.

من مقاصد الإسلام أن تعيش النفس آمنة مطمئنة

إن من مقاصد الإسلام أن تعيش النفس آمنة مطمئنة وان يكون الإنسان آمنا لا تعكر حياته عوامل العدوان ومن مقاصده كذلك أن يتماسك بنيان المجتمع وأن تكون علاقات أفراده الإجتماعية والإنسانية مبرأة من عوامل الصراع والشقاق .

غاية الإسلام أن تكون الحياة قائمة على أسس

التفاهم والحوار البناء

إن الحوار الهادف البناء الذى يلتقى فيه الجميع على الثوابت العقائدية والأخلاقية والفكرية حتى ينعكس أثر هذا التفاهم الإيجابى على حياة الأفراد والمجتمعات مصداقا لقوله : سبحانه

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات13)

إنه التعارف من أجل الهدف المشترك لخير الجميع لذلك كانت دعوة الإسلام إلى التفاهم والتعارف من خلال الحوار حتى يمكن الوصول إلى الأهداف المشتركة بين المتحاورين ولن يتحقق التعارف والتفاهم بدون لغة مشتركة للحوار .

الحوار بالكلمة والكلمة قادرة على إحداث التواصل الفكرى

إن لغة الحوار هى من العوامل التى تيسر للإنسان بلوغ حاجته المعرفية والحوار بطبيعة الحال يكون بواسطة الكلمة والكلمة ترتبط بخاصتى الفكر والعمل أى الكلمة القادرة على إحداث التواصل الفكرى المطلوب وعلى تزكية العمل المنتج البناء

أما : حين تجرد الكلمة من معنى التفكير والعمل والتطبيق فإنها تصبح مجرد ثرثرة فارغة المحتوى لا توصل إلى نتائج مستهدفة .

قيمة الكلمة والحوار الهادف

إن قيمة الكلمة تتحقق فيما تعبر عنه من رؤية فكرية وضعها موضع التطبيق فالعمل بدون رؤية فكرية مسبقة يعنى أن الحوار لا جدوى من ورائه ولن يحقق نفعا لذلك يعتبر الحوار الهادف أجدى فى مجال الرأى والرأى الآخر شريطة أن يكون بأسلوب واضح لا غموض فيه ولا تأويل وأن تكون المجادلة بالتى هى أحسن وينبغى أن يكون الحوار منطلقا من أسس ترتبط بموضوع التحاور ذاته لأن المعرفة المسبقة بالموضوع تساعد فى الوصول إلى نتائج متفق عليها وتجعل المتحاورين على قدر من المعرفة تعينهم على ابداء الرأى بطريقة هادفة .

ضرورة الإيمان للمجتمع

الأمن فى المجتمع : ما تحدث به فضيلة الإمام الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر رحمه الله قال : فإنه يقاس بدرجة الإيمان فى الأفراد فكلما زاد إيمان الأفراد أمن المجتمع وأمن الناس على دمائهم وأعراضهم وأموالهم وكلما خف وزن الإيمان فى النفوس إضطرب الناس وإستولى عليهم القلق فيما يتعلق بدمائهم وأعراضهم وأموالهم مهما كانت سيطرة القانون وقوته فالقوانين لا تمس من الإنسان إلا الظاهر أما الإيمان فإنه يسيطر على الكيان الإنسانى كله ومن هنا كانت ضرورة الإيمان للمجتمع وحاجة المجتمع للإيمان وإذا ما سيطر الإيمان على الكيان الإنسانى كله كان المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يتوادون ويتعاطفون ويتآخون فى الله ويصور رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الولاية خير تصوير فيقول : صلى الله عليه وسلم " المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا "

صحيح البخارى

ويقول : صلى الله عليه وسلم " مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا إشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى "

صحيح البخارى ومسلم

ويقول : الله تعالى (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة 71)

والمؤمنون قوامون إذا على المجتمع يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولكنهم من قبل ذلك ومن بعده يأتمرون فى أنفسهم بالمعروف وينتهون فى أنفسهم عن المنكر لأنهم مؤمنون ويقيمون الصلاة تزكية لنفوسهم وتطهيرا لقلوبهم ويكررون الصلاة إستدامة لهذه التزكية وإتباعا لما أمر الله

(إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا) (النساء 103)

(إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ)

. (العنكبوت 45)

وهم يؤدون الزكاة تطهيرا وتزكية لأموالهم وأنفسهم

خصائص المؤمنين

من خصائص المومنين التى ذكرت فى الكتاب والسنة وفى الآية السابقة أنهم يطيعون الله ورسوله والقرآن يقرن عادة طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم بطاعة الله بل يجعل طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة

لله عزوجل (مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ) (النساء 80)

وهذه الآية الكريمة السابقة التى أضفت على المؤمنين هذه الأوصاف السامية تنتهى بقوله : تعالى تفضلا عليهم وتبشيرا لهم

(أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (التوبة 71)

إذا إنهم ناجحون وهم منتصرون وهم فى فيض من رحمة الله لا ينقطع وما ذلك إلا لإيمانهم وليس إيمانهم الذى نالوا به هذه المنزلة بالأمر الهين فالإيمان بضع وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وقال : صلى الله عليه وسلم " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه " رواه البخارى ومسلم

وقال : صلى الله عليه وسلم " والمؤمن من أمنه الناس على أنفسهم وأعراضهم " . صحيح الترمذى ومسلم

والمؤمن كله منفعة إن شاورته نفعك وإن شاركته نفعك وإن ماشيته نفعك فأمره كله منفعة وهكذا الإيمان لو تتبعنا جميع جوانبه لوجدنا أثره فى المجتمع كبير ولوجدناه إيجابيا لا سلبية فيه

الإصرار شر الآراء

الإصرار شر الآراء : جلى بالبيان إن إصابة الحقيقة فى نفس الأمر لا سبيل إلى نيلها وعلم المستقبل غيب عن كل إنسان إنفرد الله به دون غيره قال : الله تعالى مخبرا عن حبيبه ومصطفاه صلى الله عليه سلم (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ) (الأعراف 188)

وهذا من تعلم كيف بنا نحن ولم يبق لنا من الحجة والمحجة الواضحة إلا أن ننظر فى الأمور من حيث هى نظرة يستبين بها حكم الله فى الأرض حيث يتضح لنا حكمته سبحانه بمحكم آية أو بأثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بإستنباط أئمة الهدى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو بإستنباط أهل الخشية من الله من العلماء الربانيين كإستنباط الفروع من الأصول فإذا إتضحت لنا المحجة عملنا بعزيمة ماضية بنية صادقة وإخلاص لله تعالى فإذا عدمنا هذا الأصل وجبت المشورة فقد يكون خير الآراء لصغير نكرة فلا نحتقر الرأى لصدوره من غير أهله إنما تعرف

الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال ومن عرف الحق بالرجال هلك ومن عرف الرجال بالحق سعد هذه القاعدة هى سرالنجاح وبراق السعادة .

الرجوع إلى الحق أحق

إن الحق الذى لا شبهة فيه هو ما ورد عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم والواجب علينا أن لا نترك الإعجاب برأينا وإتباع الهوى ووقوفنا عند العمل بالشريعة مهما كان ذلك ملائما أو غير ملائم لنا فإن الإعجاب بالرأى واتباع الهوى مع وضوح المحجة الشرعية وإن كان للإنسان فيه لذة نفسانية إلا أن تلك اللذة تنقلب ألما دائما حتى لو ظفر بقصده فإن الرأى والهوى يعميان عيون العقل فيقع الإنسان فيما حرمه الله تعالى فإذا لم تستبن الحقيقة صريحة فى الشريعة فالأولى الأخذ بالمشورة وكلما كثر أهل الشورى كان الحق مع الأكثرين وكان الإقدام على العمل خيرا فإن فاز العاملون نالوا السعادتين وإن لم يفوزوا نالوا السعادة الدائمة فى الدار الآخرة وما من حادث من الأحداث إلا وله فى حكم الشريعة صريح أو نظير فى أعمال السلف أو يجعل الله للأمة نورا يلهم به من شاء من عباده تستبين به الحقيقة.

الإختلاف كله ضرر والتفرقة كلها شرور

إن الإختلاف كله ضرر إذا تعددت القصود والتفرقة كلها شرور إذا إختلفت المطالب ومتى تعين المقصد وتحقق المطلب وجبت الشورى وإختلاف الآراء لتتضح الوسيلة لنيل القصد بالحجة البينة فإختلاف الآراء فى هذا الموضع خير خصوصا إذا تجرد رجال الشورى من العلل النفسية والغايات الدنية وحب الأثرة فإن رجال الشورى وإن قل عددهم كالأعضاء العاملة للجسد الطويل العريض لأن كل عضو فى الجسد يعمل لنفعه العام وليس بعد هذا الحادث وطول التجربة إرشاد لمسترشد والقوة فى كل شىء بقدر تماسك أجزاؤه ومعلوم أن أعظم القصود ينال إذا إجتمع على طلبه فئة من الناس وإن قلت وما ضاع حق أجمع أهله على طلبه وما نيل حق تفرق أهل تفرق أهله فى طلبه .

التمتع بالحقوق الإنسانية التى بدونها لا يكون إنسانا بل حيوانا مسخرا لغيره لا يعد من النوع الإنسانى

إن الرزق نوعان رزق النفوس ورزق الأجسام ومن شغله رزق جسمه من مأكل ومشرب وملبس ومأوى عن رزق نفسه من العلم والشرف والتمتع بالحقوق الإنسانية التى بدونها لا يكون إنسانا بل حيوانا مسخرا لغيره لا يعد من النوع الإنسانى وإن الحرص على طلب قوت النفوس أولى للإنسان من الحرص على نيل قوت الأجسام وكيف يرجوا الإنسان أن يحيا حياة البهائم مفقودا لذة الضمير كالآلة المسخرة فى يد غيره والله عزوجل خلقه حرا مريدا ليس فوقه إلا الله سبحانه أو من قام له مقام الوالد (الرسول صلى الله عليه وسلم) يسير به محسنا ليبلغ به درجة الرشد قال : الله تعالى (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ) (النساء 59)

البا ب الخامس

أمة الإسلام أمة واحدة

قال : تعالى (وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (المؤمنون 52)

قال : ابن عباس رضى الله عنهما وسعيد ابن جبير وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله : تعالى (إن هذه أمتكم أمة واحدة) يقول : دينكم واحد فى هذه الآية يبين لهم ما يتقون وما يأتون ثم قال : إن هذه أمة واحدة – أى سنتكم سنة واحدة فقوله : إن هذه إن واسمها وأمتكم خبر إن أى هذه شريعتكم التى بينت لكم ووضحت لكم وقوله : (أمة واحدة) نصب على حال ولهذا قال : (وأنا ربكم فاعبدون)

تأكيد القرآن الكريم على الوحدة

هناك الكثير من الآيات القرآنية التى ترسخ هذه الوحدة منها قوله : تعالى (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء 92)

وقال : تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا) (آل عمران 103)

وقال : سبحانه (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات 10)

وقال : تعالى (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران 105)

وقال : تعالى

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (الأنعام 159)

فما أوضح وأعدل من هذا الحكم البات على الذين يحرصون على تفريق الأمة تعصبا منهم لفهم محدود أو إجتهاد ضيق إن الإسلام الذى أكمله الله تعالى وأتم به النعمة على المسلمين وإرتضاه لهم دينا لا يمكن أن يكون إلا موحدا لمؤمنين وموجها لهم نحو معارج الخير والتقدم قال : تعالى (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ) . . (المائدة 3)

كما أن كتاب هذا الدين أنزله الله سبحانه مبينا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين لا يمكن أن يجعله سبحانه سببا للإفتراق والإختلاف والتنازع

قال : تعالى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل 89)

وقد أكدت الآيات الكريمة على أنه عندما يقع التنازع والإختلاف فلا بد لإزالتهما من العودة إلى الكتاب والسنة والأئمة الهداة

قال : تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء 59)

الإسلام يأمرنا بالإعتصام وعدم التفرقة

قال : تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (آل عمران 103)

بحبل الله أى بعهد الله قيل يعنى القرآن كما جاء فى حديث الحارث الأعور عن على رضى الله عنه مرفوعا فى وصف القرآن هو حبل الله المتين وصراطه المستقيم وقد

ورد حديث خاص بهذا المعنى قال : الإمام الحافظ أبو جعفر الطبرى حدثنا سعيد بن يحيى الأموى حدثنا أسباط بن محمد بن عبد الملك بن سليمان العزرمى عن عطية عن أبى سعيد قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " كتاب الله هو حبل الله الممدود بين السماء والأرض " . وروى بن مردويه من طريق إبراهيم بن مسلم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله رضى الله عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن هذا القرآن هو حبل الله التين وهو النور المبين وهو الشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن إتبعه " .وروى من حديث حذيفة وزيد بن أرقم رضى الله عنهما نحو ذلك وقال : وكيع حدثنا الأعمش عن أبى وائل قال: قال : عبد الله إن هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين يا عبد لله هذا الطريق هلم إلى الطريق فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن وقوله : تعالى (ولا تفرقوا)

أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهى عن التفرق والأمر بالإجتماع والإئتلاف كما فى صحيح مسلم من حديث سهل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا ولاة أموركم ويسخط لكم ثلاثا قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال " رواه البخارى ومسلم

وقد ضمنت لهم العصمة عند إتفاقهم من الخطأ كما وردت الأحاديث بذلك وخيف عليهم الإفتراق والإختلاف قال : تعالى (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران 105)

ينهى تبارك وتعالى هذه الأمة أن يكونوا كالأمم الماضين فى إفتراقهم وإختلافهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع قيام الحجة عليهم .

التآخى بين المسلمين وضرورة ترك الخلاف

إن ما يحدث بين المسلمين اليوم من شحناء وبغضاء ومشادات ومشكلات وتفرق وتشرذم وتفكك وخلاف ونزاع كل ذلك يحتم علينا التأكيد على ضرورة ترك الخلاف

والنزاع والشحناء والبغضاء كل ذلك يحتم علينا التأكيد على تأصيل معنى الأخوة وسلامة الصدر فى نفوسنا قبل وفوات الأوان وضياع العمر بدون إحسان كل ذلك يحتم علينا التأكيد على ضرورة المبادرة والإسراع إلى العزيز الغفار وترك الخلاف والنزاع والشحناء والبغضاء والتضرع إلى الله عزوجل أن يعز المسلمين فى الدنيا والآخرة وأن يقى المسلمين الذل والهوان والتفكك والتشرذم والإنحلال فينعمون فى الحياة الدنيا بالعزة والرفعة والتمكين وفى الحياة الآخرة بسكنى أعالى الجنان والنجاة من النيران .

فصل

تشريع الإسلام يطابق إنسانيته

إن إنسانية الإسلام أن يكون تشريعه متفقا مع إنسانيته بمعناها الأخلاقى والعالمى ولذلك نجد الإسلام دينا ودولة يتسع لقبول كل الأديان والأفكار ولا يضيق بها ذرعا بل يجعل ذلك قانونا عاما حتما يقول : القرآن (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس 99)

والمولى سبحانه وتعالى فى هذه الآيات الكريمة يحرص على أن يؤكد للنبى صلى الله عليه وسلم أن لا يملك سلطة إكراه الناس إلى ما يدعوا إليه وهو أمر مهم مهذب يهذب ضراوة أصحاب الدعوات الذين ينفون الغير إلا أن يكون معهم

ويقول : القرآن (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ) (هود 118-119)

وهذا تقرير لإختلاف الناس الإختلاف الشامل لكل أنواعه وتقرير ذلك أنه مشيئة الله الخالق ووقائع دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تطبيقا لهذا لاتنظير القرآنى فكان يقول : صلى الله عليه وسلم " أدعوكم إلى الله ولا أكرهكم على شىء " . رواه البخارى ومسلم

أنواع الإخاء فى الإسلام

أولا : الإخاء القومى الوطنى . بمعنى أن القوم والمواطنين فى بلد واحد أو دولة واحدة هم إخوة وشركاء فى وطنهم ودولتهم لكل منهم ما للآخر وعليه ما على الآخر وإن إختلف دينهم ولما هجر الرسول صلى الله عليه وسلم كتب ما عرف فى السيرة الصحيفة وأقر اليهود على دينهم وأوجب على الجميع من المسلمين واليهود حماية أرضهم ووطنهم ودولتهم وتأصيل هذا الإخاء بتعبيرات القرآن الكريم عندما كان يذكر أخا رسول من رسل الله كقوله : تعالى

(وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا) (الأعراف 65)

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا) (الأعراف 73)

(وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا) (الأعراف 85)

وهذا دليل على جواز تسمية قريب النسب أو المشارك فى الوطن أخا وإن إختلف الدين .

ثانيا : الإخاء الإيمانى . وهو الرابطة الدينية الجامهة للمؤمنين بدين الإسلام والتى يقول فيها الله تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا) (آل عمران 103)

وقوله : تعالى (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (الحجرات 10)

ومقتضى هذا الإخاء أن يكون المؤمنون كالجسد الواحد والبنيان يشد بعضه بعضا ووجوب التكافل الإجتماعى والولاء والتناصر والتعاون على الخير ودرء الشر والفتن وحسبك من هذا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " المؤمن أخو المؤمن يسعهما الماء والشجر ويتعاونان على الفتان " رواه أبو داود والترمذى

ثالثا : الإخاء الإنسانى . فمن لم يكن لك أخا فى الدين ولا فى الوطن فهو أخ لك فى الإنسانية هذا توجيه الإسلام وقد قرر هذا الإخاء فى آيات من القرآن الكريم

كقوله : تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ)

(النساء 1)

ويذهب فى شوط بعيد فى هذا الإخاء يجعل إختلاف الناس إختلاف تعاون وتبادل وتكامل للمنافع كقوله : تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) (الحجرات 13)

وهذه عالمية سبق بها الإسلام وإشترى بها قلوب المسلمين حتى يقول عمار فيما رواه البخارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان الإنصاف من نفسك والإنفاق من إقتار وبذل السلام للعالم " رواه أبو داود .

وحسبك من ذلك أنه كان من دعاء النبى صلى الله عليه وسلم فى ختام الصلاة قوله " اللهم ربنا ورب كل شيء إنا نشهد أن العباد كلهم إخوة " رواه أبو داود

الخلاف بين البشر أمر طبيعى

إن وقوع الخلاف بين البشر أمر طبيعى وجبلى وذلك نظرا لإختلاف الألوان والألسنة والطباع والعقول والأفهام والمعارف والمدركات ولذا كانت مشيئة الله أن يكون الخلاف والإختلاف بين البشر أمرا واقعا قال : تعالى

(وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (هود 118-119)

أى ولا يزالون مختلفين فى مللهم ونحلهم وعقائدهم وطرقهم وطرائقهم (إلا من رحم ربك) من أهل الملة الحنيفية ملة الإسلام ولذلك (خلقهم) ففريق فى الجنة وفريق فى السعير فأهل الرحمة مستثنين من الإختلاف فالله يمن على عباده المؤمنين بهدايتهم إلى الحق المبين كما قال : تعالى (فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (البقرة 213)

آى هداهم لما جاءت به الرسل فأقاموا على الأمر الأول قبل إختلاف الناس وإعتزلوا الإختلاف ولذا كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام يصلى يقول " اللهم رب جبرائيل وميكائيل واسرافيل فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون إهدنى لما إختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) رواه مسلم

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا وقع أى خلاف يقضى عليه ويحسمه وينهيه

بداية كان الخلاف فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ضيقا وكان قول : النبى صلى الله عليه وسلم يقضى على أى خلاف ويحسمه وينهيه ثم وقع الخلاف بعد ذلك فيما بينهم فى بعض المسائل وخطأ بعضهم بعضا ونظر بعضهم فى أقاويل بعض وتعقبها وكان علماؤهم يحسمون كثيرا من مسائل الخلاف وكان خلافهم رضى الله عنهم يختلف عن خلاف من بعدهم إذ كان خاليا من الأهواء والبدع لا يبغى أحدهم إلا الوصول إلى مرضاة الله مع إنكارهم وتحذيرهم من الإختلاف وفرارهم منه ما وجدوا إلى ذلك سبيلا .

الله عزوجل نفع بهذا الإختلاف

لقد نفع الله بهذا الإختلاف وأثرت إجتهادتهم فى بعض القضايا ونفعوها بالآراء المقبولة التى لها وجاهتها قال : القاسم بن محمد لقد نفع الله بإختلاف أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فى أعمالهم لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه فى سعة ورأى أن خيرا منه قد عمله وعنه أيضا أى ذلك أخذت به لم يكن فى نفسك منه شىء قال : عمر بن عبد العزيز ما يسرنى أن لى بإختلافهم حمر النعم قال : القاسم بن محمد لقد أعجبنى قول عمر بن عبد العزيز ما أحب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يختلفوا لأنه لو كان قولا واحدا كان الناس فى ضيق وإنهم أئمة يقتدى بهم فلو أخذ بقول رجل منهم كان فى سعة .

الخلاف شر

لا بد أن ننبه على أنه لا بد من الخروج من الخلاف ما أمكن ذلك أو على الأقل تضييق دائرته فالخلاف شر وحتى الخلاف السائغ فى بعض المسائل من الفروع العلمية التى لم يأت بها نص قطعى ليس أمرا ممدوحا كما يظن البعض .

القرآن جاء لرفع التنازع والإختلاف

قد جاء القرآن الكريم لرفع التنازع والإختلاف فقال : تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) . (النساء 59)

وقـال : تعـالى (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) (البقرة 213)

وقال : تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ) (البقرة 176)

وقـال : تعـالى (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) (الشورى 13)

وقال : تعالى (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام 153)

والآيـات فـى ذم الإخـتلاف والأمـر بـالرجوع إلـى الشـريعة كثيـرة وتـدل علـى أن الإختلاف لا أصل له فى الشريعة فلا بد من الخروج من الخلاف ما أمكن وكما يقول الإمام النووى فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع فى خلاف آخر .

ما ورد فى السنة النبوية المطهرة عن الخلاف والنهى عنه

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تختلفوا فتختلف قلوبكم " رواه مسلم

وقال : على بن أبى طالب رضى الله عنه إقضوا كما كنتم تقضون فإنى أكره الإختلاف حتى يكون الناس جماعة أو موت كما مات أصحابى . رواه البخارى

أقسام الخلاف

الأول : خلاف سائغ مقبول

الثانى : خلاف مذموم

يقول : الإمام الشافعى الإختلاف من وجهين أحدهما محرم ولا أقول ذلك فى الآخر

الخلاف المذموم المحرم

هو الخلاف الذى يناقض نص صحيح لا معارض له أو إجماع صريح لا منازعة فى ثبوته فهو خلاف فى القطعيات ومواضع الإجماع أو بعبارة أخرى ما إتفقت عليه الأمة من جليات الشرع التى فيها أدلة قطعية قال : الإمام الشافعى كل ما أقام الله به الحجة فى كتابه أو على لسان نبيه منصوصا بينا لم يحل الإختلاف فيه لمن عقله

فالأصول الثابتة بالكتاب والسنة والإجماع ليس لأحد خروج عنها ولا أن يتركها بعد أن تستبين له تعصبا لقول أحد أو لغير ذلك من الأسباب ودون تعسف فى التأويل أو تحجج بحجج واهية قال : الإمام الشافعى أجمع المسلمون على أن من إستبان له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد وقال : الإمام أبو حنيفة لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أين أخذناه

وقال : الإمام الشافعى وأبو حنيفة إذا صح الحديث فهو مذهبى وقال : الإمام أحمد بن حنبلمن رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة وقال : الإمام مالك وابن عيينة ومجاهد ليس أحد من خلق الله إلا يؤخذ من قوله ويترك إلا النبى صلى الله عليه وسلم وقال : بن تيمية من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافا لما يعذر فيه فهذا يعامل بما يعامل به أهل البدع وقال: الشاطبى وقد زل بسبب الإعراض عن الدليل والإعتماد على الرجال أقوام خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين وإتبعوا أهوائهم بغير علم فضلوا عن سواء السبيل وقال : أيضا إن تحكيم الرجال من غير الثقات إلى كونهم وسائل للحكم الشرعى المطلوب شرعا ضلال وإن الحجة القاطعة والحاكم الأعلى هو الشرع لا غيره .

لا يجوز الإختلاف فى الكتاب والسنة

لا يجوز أيضا الإختلاف فى مسائل العقائد والأصول التى كان عليها الصحابة والتابعون مثل قضية أسماء الله وصفاته وأفعاله فهذا خارج عن منهج الصحابة لأنهم جميعا متفقون على الإيمان بأسماء الله وصفاته من غير تمثيل ولا تشبيه ولا تأويل ولا تعطيل فلم يرد عن واحد منهم خلاف ذلك ويدخل فى الإختلاف المذموم

كل إختلاف يحرك الحسد والهوى وطلب الزعامة والوجاهة والتنافس على الدنيا ولا يكون أهله مخلصين فى طلب الحق أو يكون بسبب الجهل أو الأخذ بالآراء الشاذة المخالفة لأصول الشريعة وقواعدها فهذا الإختلاف شر كله ومذموم أهله وحرام فعله وآثم سالكه .

الخلاف السائغ

الخلاف السائغ : فهو الذى يجرى فى موارد الإجتهاد وهى كل ما لم يقم عليه دليل قاطع من نص صريح أو إجماع صريح ويكون أيضا فى المتشابه الذى يقبل تعدد الأفهام والتفسيرات ويكون ذلك فى الفروع دون الأصول وفى الجزئيات دون الكليات يقول : الشاطبى فإن - الله تعالى حكم بحكمته أن تكون فروع هذه الملة قابلة للأنظارومجالا للظنون وقد ثبت عند النظار أن النظريات لا يمكن الإتفاق فيها عادة فالظنيات عريقة فى إمكان الإختلاف لكن فى الفروع دون الأصول وفى الجزئيات دون الكليات فلذلك لا يضر هذا .

التنافس فى الخير صفة المؤمنين والتنازع صفة الوحوش والشياطين

فطر الله الإنسان على التنافس بل فطر كل كائن حى على التنازع وبالتنافس يبلغ الإنسان كماله الذى يحصل به الخير الحقيقى لنفسه ولمجتمعه بقدر منزلته فى الأمة كنسبة الأعضاء فى الجسد فمن حرم التنافس حرم الخير ولكن التنافس حد وسط إذا تعداه الإنسان سقط فصار شرا من الشيطان وأضر من الثعبان والواجب على المجتمع الحجر عليه خوفا منه على غيره والتنافس هو المسارعة إلى عمل الفضائل التى يكون بها عاملا للخير الخاص والعام محبوبا بين أهله والناس أجمعين يتلذذ بالآلآم فى الأعمال بما يناله إخوانه من الخير والآمال يفرح بالملاذ الروحانية من إغاثة الملهوف وإعانة المحتاج ودفع الظلم والتظالم عن غيره ودفع ما لديه لأهل الفاقة يبغض ما يؤذى الناس من نفسه ويستر عورات الناس ويكره العجب والكبر والرياسة والسيادة قال : تعالى

(وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين 26)

والتنازع فطرة الوحوش الكاسرة وصفة الشياطين وعمل الجاحدين بالله كلنا يحب التنافس فى الفضائل ونكره التنازع فى الرذائل ولكنا قد نهمل تحصيل العلم النافع حتى نجهل الفرق بين التنازع والتنافس فتنقلب الحقائق فى أعيننا فنرى الشر خيرا والخير شرا ولا أدل على ذلك مما نحن فيه قال : الشاعرالعربى

يقضى المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ليس بالحسن

والواجب علينا أن نتدارك الأمر بالرجوع إلى الحق فإن الحق فوق الخلق وخصوصا فى وقت الشدائد الفادحة التى يتعين علينا فيها التعاون على البر والتقوى لأن مقصد الأمة واحد وهو أن تعيش حرة مريدة مستقلة .

من خالف والسنة فقد فارق الجماعة

اعلم أن الحق أبلج والباطل لجلج وإن الله تعالى بين لنا الصراط المستقيم بقول : رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمله وحاله بيانا قطع كل عذر فصار أصغر مسلم يعلم بالضرورة أركان الإسلام وعقائده ويعتقد أن كل ما خالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ضلال فالميزان هو الكتاب والسنة وكل ما خالفهما مفارق للدين ولو أن المخالف مشى على الماء أو أخبر بالغيب فإن الله تعالى لا يتفضل بالكرامة على أهل البدع ولكن يستدرجهم قال : تعالى (قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا) (مريم 75)

وإنك ترى الإنسان قد طار فى الجو وغاص فى البحر وتكلم وهو فى السودان مع من فى مصر وهذا لا يعد كرامة والكرامة هى الإستقامة وتعظيم أحكام الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

مفارقة الجماعة مفارقة الدين والخروج على الإمام

خروج من الدين

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " من رأى من أميره شيء يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية " أخرجه البخارى

وقال : أبو هريرة رضى الله عنه فيما رواه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم " من خرج من الطاعة وفارق الجماعة فمات مات ميتة جاهلية ومن قاتل تحت رآية عمية يغضب لعصبية أو يدعوا إلى عصبية أو ينصر عصبية فقتل قتله جاهلية ومن خرج على أمتى بسيفه يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها ولا يفى لذى عهد عهده فليس منى ولست منه " أخرجه البخارى فى كتاب الإمارة .

دسائس الشيطان بتفرقة أهل الإيمان

كم للشيطان من دسيسة بذرها فى القوب المريضة ليفرق كلمة المسلمين وقد ذكر التاريخ حوادث جمة سفكت فيها الدماء البريئة بما يلقيه لعنه الله عليه قاعدا على الصراط المستقيم وإنا ليهمنا أن نبين دسائسه هى هذا الزمان سارع أعداء الله الكافرين أن يمزقواجماعة المسلمين لمحو القوة الإسلامية ولإطفاء نور الله تعالى والله متم نوره رغم أنوفهم فألقوا فى قلوب بعض من لا خلاق لهم ممن ينتسبون إلى الإسلام وأهله لا حبا فى الدين ولا رغبة فى إحياء سنة خير المرسلين عليه الصلاة والسلام بل ليهلك بعض المسلمين ببعضهم بعضا فى القرآن الذى هو حصن الله الأمين الماحق للكفر والضلال والظلم والبهتان والله عزوجل يدافع عن الذين آمنوا إجتهد أعداء الله تعالى فى إفساد قلوب أهل الطمع فسارعوا فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة وكذبوا فإن أهل الإيمان الكامل لا يرضون بالحياة الدنيا ولا يطمئنون بها وأن الموت جوعا أو قتلا أحب إليهم من الحياة فى معصية الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قام أعداء أنفسهم فإتخذوا أعداء الله أولياء من دون المؤمنين وسلوا السيوف معهم على أهل الإيمان بالله مع علمهم بأحكام القرآن وإعتقادهم بما يقصده أعداء الله من محو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بل وإهلاك جماعة المسلمين .

التفرقة سلبت مجدنا ومكنت الأعداء منا

لقد ميز الله النوع الإنسانى بما سخر له ما فى السماوات والأرض جميعا منه وصرفه سبحانه وتعالى فى كل شىء خلقه وجعل له عقلا يعقل به الحقائق وفكرا يسبح به فى محيط هذا الوجود والمؤمن وسط بين الأطهار من الملائكة وبين الحيوانات يعقل عن الله تعالى الحكمة والأحكام وعن الرسل عليهم الصلاة والسلام الأعمال والآداب وهو الإنسان حقا الذى بشره القرآن بالعزة والتمكين فى الأرض بالحق ومن إدعى الإسلام وحصل مشتهياته فى ظل الإستعباد بالحق كذبته الحقائق وحكمت أنه ليس بإنسان فضلا عن أن يكون مسلما .

من أين أوتينا حتى تمكن الأعداء فسلبوا الملك والحرية والإستقلالوأفسدوا الآداب والأخلاق : لقد فقد أكثر الشرقيين ما لا بد لهم منه فى أوطانهم فأصبح الأعداء رؤوسا بعد أن كانوا أذنابا يتمتعون بخيرات الشرق ونعمه ويتسلطون على أهل الشرق تسلط المالك القاهر من غير عدل يوجب المساواة ولا رحمة تقتضى المساواة وكانت القوة والعزة لسلفنا الصالح فنشروا الرحمة بين العالم أجمع فمكن الله لهم فى الأرض بالحق كان أحدهم يأبى أن يكون عبدا لغير الله وأن يستعبده مخلوق نظيره وسبب هذا جهل الإنسان بنفسه ونسيانه ما أوجبه عليه الإسلام من اليقظة والعمل للخير العام وإعتماده على غير ربه إستسلاما لأهل الحظ والهوى ممن يحبون العاجلة الذين هم سبب تمكينهم الأعداء من الأمم طمعا فى تحصيل مشتهياتهم فى ظلال الخزى والمهانة وقد أثبت القرآن أن العزة للمؤمنين لأن الإيمان هو التصديق بأن العالم كله خلق للإنسان وأن الإنسان خلق لربه عزوجل فلا يذل إلا له تعالى والإيمان لا يفوز به إلا من كملت إنسانيته وتطهر من نار النفس الإبليسية ومن هلع وجزع النفس البهيمية فسارع إلى معالى الأمور معاديا أسافلها .

دعوة الإسلام على توحيد الأمة الإسلامية
لمواجهة أعدائها

إن الإسلام لا يشغل الناس فى مماحكات لفظية وفرعيات فقهية وجزئيات خلافية فى العبادات أو المعاملات لا يمكن أن ينتهى فيها الخلاف وبدافع تمسكهم بمعتقداتهم

الشاذة يحكمون بضلال غيرهم من الشيعة والصوفية والأشعرية وغيرهم من المسلمين .

إن الإسلام دين التيسير لا التعسير والتبشير لا التنفير والرفق لا العنف والتعارف لا التناكر والتسامح لا التعصب والجوهر لا الشكل والعمل لا الجدل والعطاء لا الإدعاء والإجتهاد لا التقليد والتجديد لا الجمود والإنضباط لا التسيب والوسطية لا الغلو ولا التقصير إسلام يقوم على عقيدة روحها العقيدة الحقة والعبادة الخالصة والأخلاق الفاضلة والمعاملة الحسنة وثمرة ذلك كله مجد سعد به سلف الأمة الصالحون والواجب علينا أن نسعى لعودته من جديد هذا الإسلام وحده هو الذى يقربنا من العالم ويقرب العالم منا وتلك هى الصورة الإسلامية التى يجب أن يتبنى الدعوة من خلالها الدعاة إلى الله تعالى .

ما ذكره الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو الغزائم

يتساءل الإمام إذا كان المراد من الطريق النجاة والفوز بالسعادة الأبدية فهل النجاة أن يبغض المسلم أخاه وأن يذم كل فريق من خالفه وأن يقوم كل قادر أن يتكلم بالذم والتكفير واللعن فيتكلم هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب المنفرين ؟ وهل كان سبابا لعانا فى الأسواق ؟ تنزه صلى الله عليه وسلم وقد مدحه الله تعالى بقوله :

(وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم 4)

وقوله : سبحانه (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ) (آل عمران 159)

وقد نبهنا الله سبحانه وتعالى بقوله (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (الأحزاب 21)

وإنحراف بعض المسلمين عن روح الهدى النبوى فى الأقوال أو الأعمال يمثل تشويها لصورة الإسلام ويصد الناس عنه وليس غريبا ما يبديه أعداء الإسلام من عداء للإسلام لكن أن نباشر التشويه بأنفسنا وأيدينا فهذا ما لا يجوز أن يفعله مسلم.

الباب السادس

الشريعة الإسلامية جاءت لتحكم أمورالدين والدنيا كلها بالفقه الإسلامى

إن أمور الدين والدنيا كلها يحكمها القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة إما إستخراج وإستنباط الأحكام من القرآن الكريم والسنة الصحيحة فيحتاج إلى قدرة على الإستنباط والإستخراج السليم وهذا هو الفقه الإسلامى والفقه يحتاج للعلم الصحيح بالقرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة حتى يستطيع الفقيه إستخراج الأحكام منها والحكم الذى يستخرجه الفقيه يسمى الرأى ومن الممكن أن يكون الرأى خاطئا ولكن الفقه وهو طريقة إستخراج الرأى لا بد أن تكون سليمة وأسس السلامة هى إخلاص النية لله ورسوله وصحة الإيمان وسلامة النفس والعلم الكامل بالقرآن والسنة والذكاء الذى يمكن الإنسان من إستخلاص الدقائق ثم البعد عن الهوى .

تعريف الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر للفقه

يقول : الفقه فى اللغة مطلق الفهم أو فهم غرض المتكلم من كلامه وفى الإصطلاح : هو العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية وهو علم مستنبط بالرأى والإجتهاد ويحتاج فيه إلى النظر والتأمل .

أقسام المجموعة الفقهية الإسلامية

ويضيف تحت عنوان أقسام المجموعة الفقهية الإسلامية **أن** الفقه الإسلامى منذ تدوينه يتكون من ثلاثة أنواع مترابطة ويعتبر كل منها ثمرة للآخر : -

النوع الأول : أصول الفقه . ويعنى به العلم الذى ضبط واضعوه من الفقهاء القواعد التى يعتصم بها المجتهد عن الخطأ فى الإستنباط كتقديم النصوص على القياس وتقديم القرآن الكريم على السنة وتعريف دلآلآت ألفاظ نصوص هذين المصدرين ومعرفة الناسخ والمنسوخ وقواعد القياس الصحيح والمصالح ومقاصد الأحكام وغير هذا مما إحتواه هذا العلم من قواعد وأصول .

النوع الثانى : الفروع الفقهية . وهى الأحكام التى واجهت الأمور الجزئية التى وقعت وتقع فى حياة الناس وهى ثمرة علم أصول الفقه وإن تأخر تدوينه عنها لأن كل

مجتهد كانت له خطته ومنهاجه الذى سار عليه فى الإجتهاد وإن لم يدونه فى كتاب أو يؤصله عى علم شأنه شأن باقى العلوم التى نشأت تالية لفروعها ضبطا لها فالمنطق وهو التفكير موجود قبل علم المنطق والنحو وقواعده كانت اللغة العربية الفصحى موجوده قبله وكذلك العروض فالشعر كان موجود ا قبل وضع قواعد عروض الشعر.

النوع الثالث : القواعد الفقهية . وتلك القواعد الفقهية قد خرجها فقهاء المذاهب فى فروعهم المذهبية وعقدوا من الأشباه والنظائر منها بعلة جامعة بين الفروع المختلفة وجعلوها قاعدة حاكمة يمكن تطبيقها على كل ما تحقق فيه من فروع وقبل الأئمة الأربعة المشهورين الإمام مالك وأبو حنيفة والشافعى وابن حنبل كان هناك فقهاء عديدون فى الأقطار الإسلامية المختلفة وكان منهم الفقهاء السبعة فى المدينة وقد عدهم البعض أكثر من ذلك ومنهم سعيد بن المسيب الملقب بإمام التابعين المتوفى فى سنة 93 هجرية وعروة بن الزبير وآخرهم قاسم بن محمد المتوفى سنة 106 هجرية وكان من فقهاء المدينة إمرأة هى عمرة بنت عبد الرحمن وغيرهم فى أقطار الإسلام المختلفة .

القضاه والمفتون كانوا فقهاء مجتهدون

كان القضاه والمفتون فى ذلك الوقت من التاريخ الإسلامى فقهاء مجتهدين يرجعون الفتوى إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة فإن لم يجدوا إجتهدوا كل واحد منهم بما يراه الصحيح حسب رأيه وإجتهاده مع تفاوت فى الأفهام وتفاوت فى المقدرة على الإستنباط وتفاوت فى الأخذ بالرأى أو عدم الأخذ به كما شاعت وانتشرت ذى ذلك العصر أفكار المعتزلة والخوارج والشيعة وكان القاضى يجلس فى مجلس القضاء فتعرض عليه المشاكل والقضايا فيجد ألف رأى للمشكلة الواحدة وقد لا يجد أصلا يعتمد عليه فى حكمه وقد يحتاج الأمر منه وقت طويلا للإستدلال على الأصل فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة خاصة وأن هذا العصر فى أواخر القرن الأول الهجرى كان حافلا بالأحداث والوقائع الجديدة فى الصناعة والتجارة ومختلف المعاملات بين الناس مما إستتبع وجود مشكلات جديدة تحتاج لرأى الدين وحكم

الشريعة فى ذلك الوقت جاء أئمة الفقه بمذاهبهم الفقهية وشهد الناس لهم بالإمامة ودونت مذاهبهم وكان منهم فى مكة سفيان بن عيينة وفى المدينة وفى البصرة الحسن البصرى وفى الكوفة أبو حنيفة وسفيان الثورى وفى الشام الأوزاعى وفى مصر الشافعى والليث بن سعد وفى نيسابور إسحاق بن راهويه وفى بغداد أبو ثور وأحمد بن حنبل وداود الظاهرى وابن جرير وقد قدر للمذاهب الأربعة المالكى والحنفى والشافعى والحنبلى البقاء والإنتشار من بين هذه المذاهب المتعددة .

أما بقية المذاهب : فلم يقدر لها أن تنتشر وتستمر فى الذيوع بعد موت أصحابها وذلك يرجع إلى عدة أسباب من بينها أن هذه المذاهب الأربعة إعتمدت على مدرستى أهل الحديث وأهل الرأى كما أن هذه المذاهب الأربعة كانت مذاهب جماعية بمعنى أن صاحب المذهب كان له تلاميذ أضافوا إجتهاداتهم إلى إجتهاده سواء فى حياته أو بعد موته .

الإمام أبو حنيفة

هو النعمان بن ثابت وكنيته أبو حنيفة ولد فى الكوفة فى سنة 80 هجرية وتوفى سنة 150 هجرية وكانت خطته إستنباط الأحكام من القرآن والسنة وأقوال الصحابة والإجماع والقياس والإستحسان والعرف وقد برع هو وأصحابه فى القياس وتوسعوا فيه وفى الإستحسان وكانوا يفترضون مسائل ويجتهدون فى إيجاد الأجوبة لهذه المسائل فأثروا الفقه بالأحكام التى كانت سندا لأتباع مذهبهم ومن اقوال : الإمام أبو حنيفة إنى آخذ بكتاب الله إذا وجدته فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والآثار الصحاح عنه التى فشت فى أيدى الثقات فإن لم أجد فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع من شئت ثم لا أخرج عن قولهم إلى قول غيرهم فإذا إنتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبى والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب فعلى أن أجتهد كما إجتهدوا وأشهر تلاميذ أبى حنيفة الذين يرجع إليهم الفضل فى تدوين مذهبه ونشره أبو يوسف ومحمد وزفر والحسن بن زياد وأكبرهم محمد بن الحسن .

الإمام مالك بن أنس

ولد بالمدينة المنورة سنة 93 هجرية وتوفى عام 179 هجرية وقد عاصر الإمام مالك العصر الأموى وتوفى فى عهد الخليفة العباسى هارون الرشيد فشاهد سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وكان يجلس للدرس والإفتاء فى المسجد النبوى بالمدينة المنورة وكان يفد على المسجد الناس من شتى أقطار الأرض فيعرف مشاكلهم وأخبارهم ويجيبهم على كل ما يغيب عنهم وكانت منزلته فى الفقه عظيمة

وقد قال : الإمام الشافعى عنه إذا ذكر العلماء فمالك النجم وما أحد أمن على من مالك وقد وضع كتبا كثيرة أشهرها الموطأ ومعناه البسيط السهل ولما أراد الخليفة هارون الرشيد أن يعلق الموطأ على الكعبة ويجمع الناس عليه أبى الإمام مالك وقال : يا أمير المؤمنين أما تعليق الموطأ على الكعبة فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إختلفوا فى الفروع وإفترقوا فى البلدان وكل عند نفسه مصيب وإن إختلاف العلماء رحمة من الله تعالى على هذه الأمة وكانت خطته فى إستنباط الأحكام تعتمد على الكتاب والسنة لكنه كان يقدم أهل المدينة على خبر الواحد إذا كان مخالفا له وبعد السنة يرجح القياس وبنى كثيرا من مذهبه على المصالح المرسلة .

الإمام الشافعى

هو محمد بن إدريس الشافعى القرشى ولد سنة 150 هجرية فى غزة ومات فى مصر سنة 204 هجرية وقد أخذ الفقه فى مكة على يد شيخ الحرم المكى ومفتيه مسلم بن خالد وحفظ الموطأ ثم رحل إلى المدينة وقرأه على الإمام مالك وأخذ العلم عنه ثم سافر إلى العراق ثلاث مرات ونشر مذهبه القديم ثم سافر إلى مصر وكون مذهبه الجديد وكان للشافعى خطة مميزة فى التشريع والفقه مثله مثل غيره من الفقهاء لكن أهم أعماله هو وضعه رسالة أصول الفقه رواه تلميذه المصرى الربيع بن سليمان المرادى وبها يعتبر أول من جمع قواعد أصول الفقه .

الإمام أحمد بن حنبل

هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانى المروزى ولد بمدينة مرو سنة 164 هجرية وتوفى ببغداد سنة 241 هجرية قال : الشافعى عنه خرجت من بغداد وما خلفت بها

أتقى ولا أفقه من بن حنبل وله مذهبه المميز فى الفقه وإن مذهبه يعتمد على المأثور وروايته وقليلا ما يعتمد على القياس .

مما سبق هو نبذة مختصرة عن المذاهب الفقهية لأهل السنة والجماعة وهم يمثلون أغلبية المسلمين فى العالم غير أن المذاهب الفقهية الإسلامية تشمل كذلك بعض الطوائف الإسلامية الموجودة فى بعض البلاد الإسلامية مثل الشيعة والخوارج وطائفة الشيعة لها أتباع عديدون فى بعض البلاد الإسلامية

أما طائفة الخوارج فقد إنقرضت ولم يبق منهم سوى طائفة الإباضية

فالمذاهب الإسلامية الآن ترجع إلى ثلاث طوائف رئيسية هم : -

الأولى : طائفة أهل السنة .

الثانية : طائفة الشيعة .

الثالثة : طائفة الخوارج .

يرى الدكتور على عبد الواحد وافى أن الخلاف الموجود بين الشيعة وأهل السنة لا يزيد كثيرا عن الخلاف الموجود بين مذهب من مذاهب أهل السنة ومذهب آخر من مذاهب الطائفة نفسها اللهم إلا فى بعض مسائل يسيرة كمسألة جوازهم زواج المتعة والإمامة فهذا خلاف جذرى وجوهرى بيننا وبينهم وكذلك تحريم زواج المسلم من النصرانية أو اليهودية .

ما ذكره الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر عن الشيعة

يقول : تعتمد طائفة الشيعة الجعفرية فى الفقه على الكتاب والسنة كأصلين عامين شأنهم فى ذلك كأهل السنة ولكنهم إختلفوا مع هؤلاء فى الأصول ويضيف الشيخ جاد الحق على جاد الحق ولقد كان اختلاف أهل السنة والشيعة مبنيا على : -

أولا : إختلافهم فى فهم القرآن الكريم وللشيعة تأويلات فى بعض الآيات اختصوا بها.

ثانيا : وعلى أحاديث يرويها الشيعة عن أئمتهم لا يعترف بها أهل السنة . هذا عن فقه الشيعة الجعفرية (الإثنى عشرية) .

أما الشيعة الزيدية : فهم أقرب لجماعة أهل السنة .

والمذهب الثالث : من مذاهب الشيعة مذهب الإسماعيلية البهرة ومذهبهم لا يختلف كثيرا عن المذاهب الإسلامية الأخرى .

تعدد مدارس الفكر فى مجال الفقه الإسلامى

تعددت مدارس الفكر الإسلامى فى مجال الفقه والتشريع وقد قسمها فضيلة الشيخ محمد الغزالى إلى أربعة مدارس

أولا : مدرسة الرأى . وهى مدرسة تعتمد على معرفة الحكم الصحيح من مجموعة نصوص لا من نص واحد وفقهاؤها يبحثون الملابسات والظروف التى تحيط بالنص وخاصة إذا كان النص حديثا ويفسرون الحديث على ضوء هذه الملابسات وفى إطار الآيات القرآنية المحكمة

ثانيا : مدرسة الأثر .وهى المدرسة التى تتمسك بظاهر النص مع عدم تنكرها للرأى ويعتبر فضيلة الشيخ محمد الغزالى أن مدرسة الرأى هى التى قادت الثقافة الإسلامية عبر التاريخ وتعتبر مدرسة الفكر هى المدرسة التى سادت وإنتشرت على إمتداد التاريخ الإسلامى وكان أبو حنيفة والشافعى ومالك من أئمة هذه المدرسة

ثالثا : مدرسة الموازنة والترجيح بين الرأى والأثر .وهذه المدرسة قد أفادت من المدرستين السابقتين وإن كان ميلها للأثر أوضح وكان رائد هذه المدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية 661- 728 هجرية وتلميذه ابن القيم .

رابعا : مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة . وهذه المدرسة ظهرت فى العصر الحديث وهذه المدرسة تأخذ بالرأى والأثر كما نأخذ بالترجيح بينهما مثل مدرسة ابن تيمية إلا أنها تختلف عنها .

يقول : الدكتور محمد عمارة : بترويجها للعقل وتقديم دليله وإعتبارها العقل أصلا للنقل وهى تقديم الكتاب على السنة وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من الأحاديث الآحاد وهى ترفض مبدأ النسخ وتنكر إنكارا حاسما أن يكون القرآن الكريم نص إنتهى أمده وترى المذهبية فكرا إسلاميا قد ينتفع ولكنه غير ملزم ومن ثم فهى تنكر التقليد المذهبى وتخدم علم الأئمة وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده الأساسية ولا تلقى بالا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة والحديثة ويعتبر الشيخ محمد

الغزالى واحدا من أعلام هذه المدرسة الفكرية ومن روادها وأئمتها الإمام محمد عبده وتلميذه الشيخ محمد رشيد رضا والشيوخ محمد الخضرى ومحمد عبد الله دراز ومحمد البهى ومحمد المدنى والشيخ / محمد أبو زهرة وغيرهم من مجددى العصر الحديث

خامسا : مدرسة الإختبار الشخصى والتنسيق بين وجهات النظر . وهدف هذه المدرسة الخروج بالفكر الإسلامى من جمود مؤلفى المتون المذهبية وقد ظهرت هذه المدرسة فى القرن الثالث عشر الهجرى والربع عشر الهجرى ومن أئمتها الإمام الصنعانى مؤلف كتاب سبل السلام والإمام الشوكانى مؤلف كتاب نيل الأوطار ومن صار على دربهم أمثال الشيخ صديق خان فى مؤلفاته والشيخ الألبانى فى رسالته والشيخ سيد سابق فى كتابه فقه السنة ويرى الشيخ محمد الغزالى أن الأئمة السابقين وخاصة أصحاب المذاهب الأربعة كانوا روادا فى تأسيس الفقه الإسلامى والرائد قد يشغله الإكتساب عن الموازنة والتقدير ولعل من جاء بعدهم كان قارا على التنظيم والنمو الطبيعى ومواجهة المشاكل المستجدة .

واجب الفقهاء المعاصرين

واجب الفقهاء المعاصرين : كما يرى الشيخ محمد الغزالى أنه من الواجب على الفقهاء المعاصرين إحتضان كل التراث الإسلامى وإستدعاء كل ما هو صالح فى هذا التراث لمواجهة التحديات المعاصرة .

فصل

الفرق بين الشريعة والفقه الإسلامى

من الأفكار المغلوطة لدى الكثيرين الخلط بين الشريعة والفقه الإسلامى وقد إستقر هذا الفهم فى أذهان الكثيرين منذ قرون عديدة نتيجة لعصور التخلف التى طرأت على المسلمين بعد تراجع الحضارة الإسلامية والفرق بين الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامى مثل الفرق بين السماء والأرض وبين ما هو إلهى وما هو بشرى وقد أدى هذا الخلط إلى إضفاء طابع القداسة على آراء الفقهاء السابقين لدرجة جعلت بعضهم يعتقد أن الخروج على هذه الآراء يعد خروجا من الدين نفسه وتمسك هؤلاء بإغلاق باب الإجتهاد ومنع رحمة الله الواسعة فى التيسير على العباد وقد حذر الإمام محمد عبده من جعل كتب الفقهاء أساسا للدين قائلا : لقد - جعل الفقهاء كتبهم هذه على علاتها أساس الدين ولم يخجلوا من قولهم إنه يجب العمل بما فيها وإن عارض الكتاب والسنة فإنصرفت الأذهان عن القرآن والحديث وإنحصرت أنظارهم فى كتب الفقهاء على ما فيها من الإختلاف فى الآراء .

الفقه يقصد به جميع الأحكام الإسلامية

الفقه كان يقصد به فى البداية جميع الأحكام الإسلامية التى جاءت بها الشريعة الإسلامية فى أمور العقيدة والأخلاق والعبادات والمعاملات كما أورد الإمام أبو حنيفة أن الفقه هو معرفة النفس ما لها وما عليها وهذا يشمل جميع المعانى المشار إليها ويؤيد هذا الفهم للفقه .

قول : القرآن الكريم

(فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) (التوبة 122)

ولكن حدث تطور فى معنى الفقه جعله قاصرا على العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية بالإستدلال وبذلك عن مفهومه الأحكام الإعتقادية والأخلاقية وصار مدلولا قاصرا على الأحكام العملية أى على العبادات والمعاملات .

الشريعة تشمل على جميع الاحكام الشرعية الإلهية

أما الشريعة : فإنها تشمل على جميع الأحكام الشرعية المتعلقة بالعقيدة والأخلاق والمعاملات وكلها تستند إلى الوحى الإلهى ولا مجال فيها لإجتهاد الإنسان وغنى عن البيان أن الفقه الإسلامى ليس كذلك فإنه إذ يعتمد على القرآن والسنة فإنه يعتمد فى الوقت نفسه أيضا على مصدرين آخرين هما الإجماع والقياس وهناك مجال لرأى الإنسان وإجتهاده فيما عدا ما هو معلوم من الدين بالضرورة من الأحكام .

أما ما عدا ذلك : من الأحكام الفقهية فإنها تخضع للإجتهاد ويراعى فيها ظروف الزمان والمكان والمصالح المرسلة والأعراف وغير ذلك من الإعتبارات ومن أجل ذلك يمكن أن يطرأ على هذه الأحكام التغيير الذى يحقق مصلحة الإنسان فالفقه الإسلامى فى نهاية الأمر لا يعدو أن يكون فهما بشريا وتفسيرا وبيانا لنصوص الشريعة وأحكامها .

الجمود على مذهب واحد من الفقه الإسلامى أمرلا يتفق مع المصلحة العامة للمجتمع

إن الجمود على مذهب واحد من مذاهب الفقه الإسلامى وعدم الأخذ بما جاء فى غيره من تيسير على العباد أمر لا يفق مع المصلحة العامة للمجتمع .

إن المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية فهى قابلة بحكم الشرع للتجديد والتغيير .

فصل

ضرورة تجديد الفقه الإسلامى

ضرورة التجديد : التجديد سنة الحياة والتغيير قانون الوجود ولا يوجد شىء مخلوق يظل على حاله إلى الأبد والبديل للتجديد هو الجمود والجمود يعنى التوقف فى الحياة عن الحركة وهو أمر مستحيل لأن الحياة والحركة صنوان لا يفترقان .

الإسلام يتماشى مع سنن الحياة ولا يصادم الفطرة الإنسانية

والإسلام بطبيعته دين يتماشى مع سنن التجديد ولايصادم الفطرة الإنسانية ومن هنا من أجل الوصول إلى الأفضل فى جميع مجالات الحياة وقد جاءت الدعوة إلى التجديد واضحة صريحة فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها " رواه أبو داود .

ونظرا لأن الإسلام فى تعاليمه يعد دينا للحياة بكل أبعادها فإن التجديد المقصود فى هذا الحديث يعد أيضا تجديدا للحياة بكل جوانبها المختلفة .

التجديد فى الفكر الإسلامى له صورا عديدة

إن التجديد فى الفكر الإسلامى له صورا عديدة : فقد يكون تجديدا شاملا لجميع مناحى الحياة وذلك إذا أصاب التدهور مرافق الحياة كلها وقد يكون تجديدا فى أحد الجوانب التى أصابها الجمود أو الخلل لمنع إنتشار عدوى التدهور أو الخلل إلى جوانب أخرى وقد يكون تجديدا مرحليا وقد يكون خذريا وكل صورة من هذه الصور لها ظروفها ومتطلباتها والتجديد الذى نعنيه ليس أمرا عشوائيا ولا ينطلق من فراغ وإنما هو تجديد يتوقف على فهم الواقع من أجل الكشف عما فيه من سلبيات للإنطلاق من ذلك الفهم إلى تصحيح الأوضاع وتمهيد السبل لإثراء الحياة بالمزيد من الإبداع الذى يضيف جديدا إلى دنيا الناس فى جميع المجالات الأمر الذى من شأنه أن يصلح لهم أمر دينهم ودنياهم على السواء .

معنى تجديد الفقه الإسلامى : وما الدين للحياة بكل أبعادها فإن مهمة الفقه مواجهة متطلبات الحياة المتجددة وما دامت المسائل الفقهية قطعية فهى قابلة بحكم الشرع

للتجديد والتغييروهذا التغيير الذى يطرأ على الأحكام الفقهية التى هى محل إجتهاد شىء طببيعى يتماشى مع روح الإسلام وتعاليمه التى تتسم بالتيسير ورفع الحرج ومن ثم ومن هنا فإن التجديد فى الفقه الإسلامى مطلوب دائما وفضلا عن ذلك فإن هناك مسائل جديدة لم يعرفها علماء الفقه الإسلامى السابقون تتطلب إجتهادا جديدا وبحثا عميقا لإستنباط الحكم الشرعى الذى ينطبق عليها فإنزال الفقه على الواقع ضرورة لتطوير الحياة الإسلامية وحتى لا نبقى فى مجال التجريد نود أن نشير إلى بعض المسائل التى لم يكن لها نظير فى السابق وتستدعى إجتهادا جديدا وذلك مثل نقل الأعضاء والإستنساخ وأطفال الأنابيب والكثير من صور المعاملات الحديثة وغيرها من أمر لا تقع تحت الحصر وبخاصة بعد ثورة المعلومات والإتصالات والثورة التكنولوجية وإنتشار إستخدام الإنترنت على نطاق واسع ومدى شرعية وحجية إستعمال هذه الوسيلة الحديثة فى وقوع الزواج والطلاق والوصية وغير ذلك من معاملات حديثة . كما أن الفقه الإسلامى مطالب أيضا بالبحث عن حلول لمشكلات الأقليات المسلمة فى الخارج وما تواجهه من حرج وعنت فى كثير من الأمور الحياتية فى مجتمعات أصبحت بعد الحادى عشر من سبتمبر عام 2001 تنظر إلى الإسلام نظرة سلبية وأحيانا معادية لكل ما هو إسلامى .

إن هناك فى العصر الحديث تغييرات بالغة الأهمية قد حدثت فى حياة الإنسان ومطلوب من الفقه الإسلامى أن يلاحق كل هذه التطورات الجديدة ويستنبط الأحكام الشرعية التى تجعل المسلم مواكبا لعصره غير منعزل عما يحيط به من تطورات.

الدعوة لتجديد الفقه ليست تخليا عن الدين ولا خروجا

على أحكامه المعلومة من الدين بالضرورة

إن الدعوة للتجديد فى الفقه إنما تعنى إعادة النظر فى الموروث الفقهى البشرى من ناحية ومن ناحية أخرى البحث عن الحلول الإسلامية لما جد ويجد مستقبلا فى مسائل جديدة إن هناك كثيرا من الأمور فى حياة المسلمين فى حلجة ماسة إلى إعادة نظر وإعادة ترتيب الأوضاع والأمر يتطلب من أجل ذلك الإهتمام بفروع جديدة للفقه الإسلامى من بينها على سبيل المثال فقه الواقع وفقه الأولويات وفقه الأقليات المسلمة

وفقه الإختلاف وغيره وهذا كله فى حاجة إلى إجتهادات جديدة ومرونة فكرية وسعة فى الأفق وفهم صحيح للواقع .

مبدأ الإجتهاد

الإسلام حين أقر مبدأ الإجتهاد فإن ذلك جاء إنطلاقا من حقيقة أن الحياة متجددة ومتطورة بإستمرار والإجتهاد هو الآلية المشروعة التى تساعد المسلم على تطوير حياته ومجتمعه والمشاركة بفاعلية فى بناء السلام والإستقرار فى نفسه ومجتمعه وفى العالم بصفة عامة .

إقرار مبدأ الإجتهاد يعنى رفض التقليد الأعمى

إن إقرار مبدأ الإجتهاد يعنى ضرورة إعمال العقل الإنسانى الذى هو أجل نعمة أنعم الله بها على الإنسان ويعنى كذلك رفض الدعوة إلى إغلاق باب الإجتهاد فالذى فتح باب الإجتهاد هو الرسول صلى الله عليه وسلم الذى جاء بالشريعة من عند الله وليس من حق أحد أن يغلق هذا الباب إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

الإسلام هو دعوة إلى التقدم والإرتقاء

فى جميع الميادين الحياة

الإسلام هو دعوة إلى التقدم والإرتقاء فى جميع الميادين الحياة : والفقه الإسلامى بلا إجتهاد يعنى الحكم بالجمود والإنغلاق على العقلية الإسلامية والحكم عليها بالتخلف الأبدى وهذا كله ضد طبيعة الإسلام الذى هو دعوة إلى التقدم والإرتقاء فى جميع ميادين الحياة .

الإجتهاد مبدأ الحركة فى الإسلام

الإجتهاد مبدأ الحركة فى الإسلام : وقد وصف المفكر الإسلامى الراحل الدكتور محمد إقبال الإجتهاد بأنه مبدأ الحركة فى الإسلام والإجتهاد يعنى الإعتماد على الفكر فى إستنباط الأحكام الشرعية وقد نما الإجتهاد فى رعاية القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وإمتدت سماحة الإسلام إلى إفساح الطريق أمام العقل فى مجال الأحكام الشرعية التى لم ترد فيها نصوص قاطعة فأباح له الإعتماد على نفسه وشجعه على

ذلك ودفعه إليه دفعا وتقررت بذلك قاعدة إسلامية تقول : " إن المجتهد إذا إجتهد فأخطأ فله أجر واحد وإذا إجتهد فأصاب فله أجران " . رواه البخارى

الإجتهاد له أثره فى إثراء الحياة الفقهية لدى المسلمين

قد كان لمبدأ الإجتهاد أثره العظيم فى إثراء الدراسات الفقهية لدى المسلمين وإيجاد الحلول السريعة للمسائل التى لم يكن لها نظير فى العهد الأول للإسلام وقد نشأت عنه مذاهب الفقه الإسلامى المعروفة وأدى الإجتهاد إلى ظهور علم فلسفى جديد هو علم أصول الفقه الذى يعد بمثابة فلسفة للتشريع الإسلامى وكان أول من إبتكر هذا العلم هو الإمام الشافعى فى كتابه الرسالة .

الشريعة الإسلامية ستظل مصدرا لكل جديد

وكل تقدم حضارى

الشريعة الإسلامية ستظل مصدرا لكل جديد وكل تقدم حضارى : ولا شك فى أن ما تمتاز به الشريعة الإسلامية من المرونة فى كل زمان ومكان وستظل دائما مصدرا لكل تجديد يعود على المسلمين بالخير ومباركة لكل تقدم حضارى ما دام هناك مجددون يدركون أهمية الإجتهاد الذى باركه صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام ويفهمون الحديث النبوى فى تجديد الدين على وجهه الصحيح .

حرية الفكر لدى قدامى الفقهاء

لقد ضرب لنا القدامى من الفقهاء مثلا يحتذى به فى حرية الفكر الإسلامى فعندما فرغوا من إيجاد الحلول الفقهية للمشكلات القائمة وجدناهم يلجأون إلى إفتراض مسائل يحاولون البحث لها عن أحكام شرعية ولقد أرادوا من ذلك أم يدربوا الملكة الفقهية لتكون مستعدة دائما لتلبية متطلبات الحياة المتجددة فالتدريب لهذه الملكة من شأنه أن يساعد على سرعة الإستجابة لكل جديد والمتأمل من هذه المسائل الإفتراضية يدرك مدى سعة خيال هؤلاء الفقهاء الذين يمكن أن يندرج بعضهم فى عداد رواد الخيال العلمى ولم يكن إنشغالهم بذلك دليلا على التخلف الفكرى ومن حقهم علينا أن نسجل لهم ما يستحقونه من تقدير لدأبهم وحرصهم المتواصل على

حركية الملكية الفقهية لديهم الأمر الذى يدل على مرونـة فكريـة وعلـى حـرص شـديد وإقتناع بضرورة التجديد المستمر فى الفكر الفقهى ولـو لـم يكـن لـديهم هـذا الحـرص لوجدنا من يقتصرون على عما إنتهى إليه علم السابقين والجمود علـى آرائهـم وكتـبهم حفظا وشرحا وتعليقا دون إضافة أى جديد ويفعل كثيرون غيرهم .

أما : أن تتسع دائرة أفقهم للخروج من المألوف وإفتراض المسـائل قـد يكـون بعضـها مثيرا للضحك أو التهكم فإن هذا الأمر الجديد الذى برهنوا على تحـررهم مـن الـدائرة المغلقة للتراث الفقهى الذى قتلت مسائله بحثا وكانت ملائمة للأزمان التى بحثت فيها ولا يزال حتى اليوم للأسـف الشـديد مـن لا يريـد أن يخـرج مـن هـذه الـدائرة المغلقـة للآراء الفقهية المتوازنة دون إبداء أى بارقة أمل فـى الميـل إلـى التجديـد التـى تتيحـه الشـريعة الإسـلامية ودون إعتبـار أو إدراك لمتغيـرات العصـر وظـروف الزمـان والمكان والأعراف ولكن التطور الإيجابى قادم محالة إن شاء الله فى زمن نراه قريبـا ويراه الجامدون بعيدا وإن غدا لناظره قريب .

فصل

مشروعية الإجتهاد

لقد أجمعت الأمة بكل مذاهبها على مشروعية الإجتهاد وممارسته بالفعل وكان من ثمرته هذه الثروة الفقهية العريضة ولذا كان وما زال العلماء والفقهاء منذ عهد الصحابة وهم سادات المؤمنين وأكمل الأمة إيمانا إلى يومنا هذا يختلفون فى كثير من مسائل الأحكام بل ما إختلفوا فيه فوق الحصر يقول : ابن تيمية رحمه الله وأما الإختلاف فى الأحكام فأكثر من أن ينضبط ولكن ليس كل خلاف يعتد به وينظر إليه والخلاف الذى لا يعتد به : -

أولا : خطأ مقطوع به من الشريعة يناقض نصا صحيحا أو إجماعا صريحا .

ثانيا : إذا جاء ممن لا يعتد به ومن يتكلم فى الدين بغير علم .

ثالثا : إذا كان إختلاف تنوع لا إختلاف تضاد .

فهذا فى الحقيقة ليس بخلاف فكل واحد من المختلفين مصيب بلا تردد ولكن الذم واقع على من بغى على الآخر فيه وهذا الخلاف مثل تنوع فى العبترات والألفاظ فمنه ما يكون كل من القولين هو معنى القول الآخر لكن العبارتان مختلفتان كتفسير الصراط المستقيم بأنه كتاب الله أو الإسلام أو الحق أو النبى صلى الله عليه وسلم وحاصلها يرجع إلى شىء واحد وهو المتابعة لله والرسول صلى الله عليه وسلمومنه ما يكون المعنيان متغايران لكن لا يتنافيان النوع الثانى تنوع الواجبات فيجب على قوم الجهاد وعلى غيرهم الزكاة وعلى آخرين طلب العلم .

ثالثا : تنوع المستحبات . بإختلاف القدرة والفعل والإنتفاع بالفعل المستحب. فالطريقتان مشروعتان ولكن هؤلاء قد سلكوا هذه الطريق وآخرون قد سلكوا الأخرى.

إختلاف التنوع تتكامل فيه الجهود

إختلاف التنوع تتكامل فيه الجهود : فإختلاف التنوع تتكامل به الجهود لا أن يكون مثل إختلاف التضاد الذى تتهارج به الصفوف وتتهاجر وتتناكر وتتقاذف بالتهم والمناكر بل عليهم واجب التحاب والتعاطف والمولاة فيما بينهم لا أن يصيروا شيعا

ويتفرقوا أحزابا لأنهم مجتمعون بينهم على طلب قصد الشارع ويهدفون إلى تحقيق مرضاة الله .

الخلاف يورث الأهواء

الخلاف يورث الأهواء : وأكثر الإختلاف بين الأمة الذى يورث الأهواء وهو أن يكون كل واحد من المختلفين مصيبا فيما هو عليه ولكنه يخطىء فى نفى الآخر بل ربما وصل الأمر إلى الإقتتال بينهما لا يجوز التفريق بذلك بين الأمة ولا يجوز التفريق بذلك بين الأمة ولا أن يعطى المسحب فوق حقه فإنه قد يكون من أتى بغير ذلك من المستحب من أمور أخرى واجبة أو مستحبة أفضل بكثير ولا يجوز أن تجعل المستحبات بمنزلة الواجبات بحيث يمنع الرجل من تركها ويرى أنه قد خرج من دينه أو عصى الله ورسوله بل يكون ترك المستحبات لمعارض راجح أفضل من فعلها بل الواجبات كذلك .

إئتلاف قلوب الأمة أعظم فى الدين من بعض المستحبات

معلوم أن إئتلاف الأمة أعظم فى الدين من بعض المستحبات فلو تركها المرء لإئتلاف القلوب كان ذلك حسنا وذلك أفضل إذا كان مصلحة إئتلاف القلوب دون مصلحة ذلك المستحب وقد جاء فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : للسيدة عائشة رضى الله عنها " لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لنقضت الكعبة ولألصقتها بالأرض ولجعلت لها بابا يدخل الناس منه ويخرجون منه " وقد إحتج بهذ الحديث البخارى وغيره على أن الإمام قد يترك بعض الأمور المختارة لأجل تأليف القلوب ودفعا لنفرتها .

الخلاف فى الرأى لا يجوز أن يكون سببا للتفرقة والشقاق

الخلاف فى الرأى لا يجوز أن يصير المسلمون شيعا وأحزابا ولا يستدعى هذا الخلاف التحامل على المخالف أو التشنيع عليه أو الإنتقاص منه أو غيبته أو نجريحه أو تسفيهه وتتبع زلاته وعثراته أو إلصاق التهم به للنيل منه أو غمزا أو لمزا وسخرية بالأعمال وإتهاما للعقائد والنيات يقول : ابن تيمية قد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا فى الأمر إتبعوا أمر الله فى قوله : تعالى

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (النساء 59)

وكانوا يتناظرون فى المسألة مناظرة مشاروة ومناصحة وربما إختلف قولهم فى المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأخوة الدين وكل ذلك بشرط عدم الخروج عل نصوص وقواعد الشريعة وأن يكون أصحابه مخلصين فى طلب الحق باذلين الجهد لبلوغه بصدق وإنصاف ودون تعصب لشىء إلا للحق مع الأخذ فى الإعتبار ضوابط إنكار المنكر فى مسائل الخلاف وضوابط الولاء والبراء مع التحذير من خطر البدع وخطر التفريق .

نشر روح المحبة والتسامح وتحسين الظن بين المسلمين

نشر روح المحبة والتسامح وتحسين الظن بين المسلمين : لا بد من نشر روح المحبة والتسامح وتحسين الظن بين المسلمين وتعريف الناس فقه الإختلاف وآدابه والتمسك بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قال : صلى الله عليه وسلم" تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنة رسوله " وفى رواية أخرى كتاب الله وعترتى أهل بيتى . رواه مالك فى الموطأ

وقال : صلى الله عليه وسلم" عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بهما وعضواعليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة " رواه أبو داود وأحمد والترمذى

وقال : بن عباس رضى الله عنهما إنما هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فمن قال بعد ذلك شيئا فما أدرى فى حسناته يجده أم فى سيئاته .

التحزب والتباغض يؤدى إلى ضعف المسلمين

التحزب والتباغض يؤدى إلى ضعف المسلمين : لا بد من التناصر والتكاتف ضد العدو المشترك والأفكار التى تناقض دعوتهم وتسعى لإقتلاعها من الجذور لا

التشـرذم والتحـزب والتحاسـد والتبـاغض فـإن هـذا يـؤدى إلـى ضـعف المسـلمين وإنكسارهم كما قال : الله تعالى (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ)

(الأنفال 46)

لا بد من الإعتصام بحبل الله المتين وعدم التفرق

قال : تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (آل عمران 103)

وذلك بإمتثال أمر الله عزوجل وإتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وكـذلك الإسـتفادة من آراء جميـع الأئمـة والمجتهـدين وعلـومهم وتعريـف النـاس بمكانـة هـؤلاء الأئمـة وعلو قدرهم وجليل أعمالهم وعظيم جهودهم فإن فضلهم مما سارت به الركبان ويقـر به الكاره والمحب سواء مع عدم التعصب الذى يؤدى إلى تحزب كل طائفة لقول إمام أصاب أم أخطأ فتكـون المحبـة والـبغض عنـدهم علـى ذلـك ولا ينبغـى التنقـيص مـن أحدهم وتتبع زلاته كما قال : سعيد بن المسيب إنه ليس من شـريف ولا عـالم ولا ذى فضل إلا وفيه عيب ولكن من الناس من لا ينبغى أن تذكر عيوبه من كان فضـله أكثـر من نقصه وهب نقصه لفضله وقال : عبـد الله بـن المبـارك إذا غلبـت محاسـن الرجـل مساويه لم تذكر المساوىء وإذا غلبت المساوىء عن المحاسن لم تذكر المحاسن وقال : ابن القيم الجوزية ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعا أن الرجل الجليل الـذى لـه فى الإسلام قدم صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منـه الهفـوة والزلة هو فيها معذور بـل ومـأجور لإجتهـاده فـلا يجـوز أن يتبـع فيهـا ولا يجـوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين وقال أيضا وكيف يعصم مـن الخطـأ من خلـق ظلومـا جهـولا ولكـن مـن عـدت غلطاتـه أقـرب إلـى الصـواب ممـن عـدت إصاباته .

النهى عن الجدال والمراء ووجوب إتباع الحق

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنـا زعـيم ببيـت فـى ربـض الجنـة لمـن تـرك المراء وإن كان محقا " رواه أبو داود

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ثم تلا **رسول الله صلى الله عليه وسلم** هذه الآية (مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ) (الزخرف 58)

قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم" من ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى ربض الجنة ومن تركه وهو محق بنى له فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها " رواه أبو داود والترمذى وبن ماجة

وقال الأوزاعى بلغنى أن الله إذا أراد بقوم شر ألزمهم الجدل ومنعهم العمل فإن الجدل يعمى البصيرة ويجعل صاحبه حاملا للواء الشر ولا ينصاع للحق وقد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم" إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم " رواه البخارى

وأسوأالجدال الجدال فى القرآن فقد قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " المراء فى القرآن كفر " رواه أبو داود

وقال الشافعى المراء فى الدين يقسى القلب ويورث الضغائن وقال : جعفر بن محمد إياكم والخصومة فى الدين فإنها تشغل القلب وتورث النفاق .

الباب السابع

الفهم عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم

ذكر الإمام ابن قيم الجوزية عن الفهم فقال يجب أن نفهم عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مراده من غير غلو ولا تقصير ولا يحمل كلامه ما لا يحتمله ولا يقصر بع عن مراده وما قصره من الهدى والبيان وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله بل سوء الفهم عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم أصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام بل هو أصل كل خطأ فى الأصول والفروع ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد فيتفق سوء الفهم فى بعض الأشياء من المتبوع مع حسن قصده وسوء القصد من التابع فيا محنة الدين وأهله والله المستعان وهل أوقع القدرية والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وسائر الطوائف أهل البدع إلا سوء الفهم عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم حتى صار الدين بأيدى أكثر الناس هو موجب هذه الأفهام والذى فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فمهجور لا يلتفت إليه ولا يرفع هؤلاء به رأسا ولكثرة أمثلة هذه القاعدة تركناها فإنا لو ذكرناها لزادت على عشرة ألوف حتى إنك لتمر على الكتاب من أوله إلى آخره فلا تجد صاحبه فهم عن الله تعالى ورسوله مراده كما ينبغى فى موضوع واحد وهذا إنما يعرفه من عرف ما عند الناس وعرضه على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وأما من عكس الأمر بعرض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على ما إعتقده وإنتحله وقلد فيه من أحسن به الظن فليس يجدى الكلام معه شيئا .

معنى التكفير لغة واصطلاحا

معنى التكفير تفعيل من الكفر وهو مصدر كفر يقال : كفره تكفيرا والتكفير فى اللغة التغطية والستر والكفر فى الشرع نقيض الإيمان والجحود

ومنه قوله : تعالى (إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ) (القصص 48)

أى جاحدون قال : صاحب المختارالكفر شرعا تكذيبه صلى الله عليه وسلم فى شىء مما جاء به من الدين بالضرورة ومعنى التكفير إصطلاحا نسبة أحد من أهل القبلة إلى الكفر .

الحكم التكليفى بالتكفير

التكفير للمسلم حكمه على نوعين : -

الأول : التحريم . وهذا فى المسلم الباقى على إسلامه لأن الأصل بقاء المسلم على إسلامه حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك لنصوص شرعية منها

قوله : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا) (النساء 94)

دلت الآية الكريمة على أن الإنسان إذا أعلن إسلامه بأى إعلان شرعى كقوله السلام عليكم يكون معصوم الدم والعرض والمال ويحرم تكفيره ولأن الأحكام تناط بالمظان لا على القطع وإطلاع السرائر ..

أيضا قوله صلى الله عليه وسلم " من صلى صلاتنا وإستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهو مسلم له ما لنا وعليه ما علينا " . رواه البخارى

وأيضا " إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فقد باء أحدهما فإن كان كما قال وإلا رجعت عليه " . رواه مسلم

وأيضا "من دعا رجل بالكفر أو قال عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه ". رواه مسلم

التحرز من تكفير المسلم

التحرز من تكفير المسلم : لا خلاف بين الفقهاء فى أنه لا ينبغى أن يكفر مسلم أمكن حمله كلامه على محمل حسن أو كان فى كفره خلاف وأن ما يشك فى كفره لا يحكم به فإن المسلم لا يخرجه من الإيمان إلا جحود ما أدخله فيه إذ الإسلام الثابت لا يزول بالشك وإتفق الفقهاء أنه لا يفتى بردة مسلم إذا قال قولا أو فعلا يحتمل كفرهوغيره .

ما رود فى السنة النبوية النهى عن تكفير المسلم

روى جابر رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا منى دمائهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزوجل " . صحيح مسلم

إن الأحكام الفقهية تبنى على الظواهر والله تعالى يتولى السرائر فمن قال : لا إله إلا الله فقد عصم نفسه وعرضه وماله بالتيقن ويحرم تكفيره وقال : صلى الله عليه وسلم " من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله تعالى " رواه أصحاب السنن

دلت الأدلة الشرعية دلالة واضحة على وجوب التحرز من تكفير المسلم ووضع الفقهاء ضوابط تضبط فروع التكفير مؤداها منع التكفير بالإحتمال والشك والظن .

ما ذكره أئمة المذاهب الفقهية

أولا : الفقه الحنفى . قال : ابن نجيم المصرى . والذى تحرر أنه لا يفتى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان فى كفره إختلاف . قال الحصكفى لا يفتى بشىء إلا فيما إتفق عليه المشايخ . وروى الطحاوى لا يخرج الرجل من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه ثم ما تيقن أنه ردة يحكم به وما يشك أنه ردة لا يحكم به إذ الإسلام الثابت باليقين لا يزول بالشك وينبغى للعالم إذا رفع إليه هذا ألا يبادر بتكفير أهل الإسلام .

ثانيا : الفقه المالكى . قال القرافى فليس إراقة الدماء بسهل ولا القضاء بالتكفير .

ثالثا : الفقه الشافعى . قال الغزالى والذى ينبغى أن يميل المحصل إليه الإحترازعن التكفير ما وجد إليه سبيلا فإن إستباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة

والمصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم .

رابعا : الفقه الحنبلى قال ابن تيمية لا يجوز تكفير المسلم بذنب فعله ولا بخطأ أخطأ فيه كالمسائل التى يتنازع فيها أهل القبلة إنى من أعظم الناس نهيا عن أن ينسب معين (رجل) إلى الكفر أو تفسيق أو معصية إلا إذا علم أنه قد قامت الحجة عليه .

التحذير من الإعتداء على الدين

الإسلام دين الله تبارك وتعالى للبشرية جمعاء من لدن آدم حتى محمد صلى الله عليه وسلم والدين من حيث معناه الإصطلاحى يراد به ما شرعه الله تعالى لعباده من أحكام سواء ما يتصل منها بالعقيدة أو الأحكام العملية أو الأخلاق ولفظ الشرع يتفق مع مدلول الدين وقد دل المصدران الأساسيان الرئيسان القرآن والسنة على أن الإسلام له شعبتان أساسيان لا يتحقق وجوده إلا بهما : -

الأول : العقيدة بأركانها الستة .

الثانى : الشريعة وهى الأحكام العملية للمكلفين فى العبادات والمعاملات وغيرهما مما ذكر فى الشريعة . لا يتحقق حقيقة ومعنى الإسلام إلا إذا أخذت العقيدة والشريعة حظها من التحقق ولا توجد حقيقة الإسلام ولايتحقق معناه إلا إذا أخذت كل واحدة من العقيدة والشريعة حظها من التحقق والوجود فى باطن الإنسان وظاهره

وقد شرعت الشريعة الغراء تدابير إحترازية وتدابير زجرية للمحافظة على قدسية الدين وحرمته وإلتزام أهله به وتعظيم شعائره ومن ثم فإن الإعتداء على الدين يعد من أعظم الجرائم والموبقات لأنهم يعتدون على أنفس ما يحتاجه الإنسان وأثمن ما وهبه الله تعالى وليحذر المعتدين على الدين أن عدوانهم هو عدوان على النظام العام للمسلمين وعلى عقول وقلوب الناس وعلى مشاعرهم وأفكارهم

قال : تعالى (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) (الطلاق 1)

بواعث التكفير

مما يبعث على الغرابة صدور تكفير فى الماضى والحاضر من مسلمين لمسلمين لأسباب واهية ولعل أسباب التكفير خاصة المعاصر ترجع إلى عوامل أهمها

أولا : التعصب المذهبى . كثيرا ما تضيع الحقائق وتغيب الجواهر بين الركام وتتشابه الأشباح فى الظلام ويكون الإجتراء والإفتراء هو الأصل والفهم العلمى والإدراك المعرفى السديد هو الإستثناء .

صورمن الإفتراء والإجتراء على الشرع الحنيف

إبتداع جماعات منسوبة إلى الدين غير خاف على من له أدنى بصر وتبصر بالشريعة الإسلامية إيجابها للوحدة فى إطار أمة واحدة وتحريمها للفرقة ولو كانت ستحقق مصالح ومن النصوص القطعية

قوله : تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (آل عمران 103)

وقوله : تعالى (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) (الأنفال 46)

وأيضا تقديم الأمن العام للمجتمع علة مجرد الإيمان

قال : تعالى (إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (طه 94)

ما رورد فى السنة النبوية

عن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه قال : " كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى فقلت : يا رسول الله إنا كنا فى جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر ؟ قال : نعم فقلت له هل بعد هذا الشر من خير قال : نعم وفيه دخن قلت : وما دخنه قال : قوم يستنون بغير سنتى ويهتدون بغير هدى تعرف منهم وتنكر قلت : هل بعد ذلك الخير من شر قال : نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها فقلت : يا رسول الله صفهم لنا قال : نعم هم قوم من جلدتنا أى من أنفسنا وعشيرتنا ويتكلمون بألسنتنا قلت : يا رسول ما ترى إن أدركنى ذلك قال : تلزم جماعة المسلمين وإمامهم قلت :

فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام قال : فإعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك " صحيح مسلم

وبطبيعة الحال فإن كل فرقة أو جماعة تدعى أنها على الحق ةغيرها على الباطل وأنها هى أمة الإسلام هذا الفهم السقيم يصطدم بالضرورة مع النصوص الشرعية

ثانيا : إستحلال الدماء والأموال والأعراض . من المعروف أن الإنسان إذا نطق بالشهادتين فقد عصم دمه وماله وعرضه لقوله : صلى الله عليه وسلم " كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه " صحيح مسلم

وعليه فقتل المسلم حال عصمته المذكورة يجب على قاتله القصاص فى الجناية العمدية أو الدية فى الجناية غير العمدية وإتلاف ماله يستوجب الضمان .

ثبوت العصمة بمعناها الشرعى لغير المسلمين

وتثبت العصمة بمعناها الشرعى أيضا : لغير المسلمين إما بالعهد من ولى الأمر ومن أهل الحل والعقد أوبعقد الذمة أو مجرد الأمان ولو من أحاد المسلمين قال : صلى الله عليه وسلم " ألا من ظلم معاهدا أو إنتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة " سنن أبى داود

ثالثا : الحكم على الناس . إما من جهة العقيدة أو من جهة الشريعة فأما من جهة العقيدة فهى أمر باطنى لا يعلمه إلا الله وأمامن جهة حكم الشريعة . فلا يحكم إلا بالكفر الصريح كإنكار شىء من أركان الإيمان أو من أركان الإسلام أو مما هو معلوم من الدين بالضرورة بعد الإستتابة .

أما : القصور فى شىء من الشعائر كسلا فلا يحكم بالكفر .

رابعا : تغيير المنكر باليد . من الممارسات الخاطئة إعتقاد منسوبى هذه الجماعات أن المنكر لا بد أن يزال بالقوة الجبرية باليد ومن ثم يتعللون بإقدامهم على حوادث العنف بفهم سقيم ونظر كليل لقضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وغير خاف على ذى بصيرة وبصر أن المهمة تكون فى الأمور العامة الكبرى لطائفة مؤهلة

يقول القرطبى الأمر بالمعروف باليد على الأمراء وباللسان على العلماء وبالقلب على الضعفاء يعنى عوام الناس . يقول : ابن تيمية فذو السلطان أقدر من غيرهم

وعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم فإن مناط الوجوب هو القدرة فيجب على كل إنسان بحسب قدرته قال : الله تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) (التغابن 16)
ويقول : الزمخشرى . الإنكار الذى بالقتال فالإمام وخلفاؤه أولى منهم لأنهم ألم بالسياسة ومعهم عدتها فمن يلجأ لإزالة المنكر غير السلطات التنفيذية يكون مجترئا على النصوص الشرعية ولا يسلم من المؤاخذة وأنه غالبا سيلجأ إلى إزالة الضرر بضرر أشد إما بضرر يلحقه فى بدنه وإما بضرر فى الأمة كإحداث فتن والقاعدة الشرعية الضرر لا يزال بمثله .

خامسا : قلة الفقه بالدين . لقد تجرأ بعض الناس على إصدار الأفكار الخاصة فى الأمور الإعتقادية من خلال نظرتهم غير المتعمقة فى بعض الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية دون علم ببقية النصوص المتصلة بمناط الإستشهاد أو أخذهم بالمتشابهات وترك المحكمات أو بالجزئيات مع إغفال القواعد الكلية مع أن الواجب على كل من يتصدر للفتوى فى الناحية العقيدية أن يكون محيطا بالتأمل وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والأساليب اللغوية المختلفة المجازية والمشتركة وغيرها مما يجعلنا نوصى بطلب العلم ونؤكد على أهمية الحرص على التفقه فى الدين والإلتزام بالتخصص الدقيق وقت الحاجة الضرورية فالعامل من غير علم يفسد أكثر مما يصلح والأخذ بظواهر النصوص فى كل حال كان من أهم الأسباب التى أوجدت الفرقة بين الكثير من المسلمين فمن الواجب على المتسرعين من المكفرين لغيرهم بغير حق أن يفهموا جوهر العقيدة الإسلامية فهما يتلائم وأصول التشريع السماوى ولا يجعلوا الأمورغيرالدينية مسوغا للتكفير كالذاتية وغيرها وليتق الله فى عصرنا الحاضر من يكفرون المسلمين ويضلونهم لمخالفتهم أرآئهم وظواهر ما عندهم من نصوص بآراء لأولئك أيضا .

سادسا : الغرور والعجب بالنفس . قد يتخذ بعض الناس من عبادته سبيلا للإستعلاء على غيره وينظر إليهم بنظرة فيها شىء من السخرية والتحقير ظنا أن العلماء تهاونوا فى موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكرولا يدرى أن جمهرة العلماء

قرروا أن السكوت على المنكر مخافة الوقوع فى منكر آخر أكبر منه واجب تطبيقا لقاعدة إرتكاب أخف الضررين واجب .

سابعا : الإضطهاد السياسى . نحن بصدد إظهار أن الإضطهاد السياسى والفكرى والتضييق على أصحاب الفكر الحر يولد غالبا إتجاهات منحرفة لا تعمل إلا فى الظلام الدامس وتتجنب العمل فى وضوح النهار ويكون تركيزها منصبا على التكفير أو التفسيق أو التبديع أو التجريح بأى أسلوب من أساليب التشهير بحق أو باطل وغالبا لا يكون إلا بباطل وهذا حدث بالفعل حين قرأوا ظواهر النصوص ورأوا أن منها قوله : تعالى

(وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ) (المائدة 44)

أخذوا يكفرون ولم يفرقوا بين الكفر الإعتقادى أو الحقيقى أو العملى أو المجازى ونسوا أن النى صلى الله عليه وسلم قال : " يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون فمن كره فقد برىء ومن أنكر فقد سلم ولكن من رضى وتابع قالوا يا رسول ألا نقاتلهم قال لا ما صلوا " رواه مسلم

أى منكره بقلبه وأنكر بقلبه ولذا نوصى بعدم الغلو وبالبعد عن التطرف والتنبه إلى وجود فرق بين الكفر الإعتقادى والكفر العملى والتفقه فى الدين كما نوصى بوجود حرية فكرية واعطاء الفرصة لأصحاب الفكر أن يفصحوا عما يدور بخلدهم وعدم الكبت والبعد عن الإضطهاد السياسى وتوجيه الشباب برفق ولين بالحكمة والموعظة الحسنة لا بالشدة والعنف فإن الشدة لا تولد إلا قسوة أشد وغلظة أعنف .

ثامنا : التأويل الفاسد للنصوص . لقد وردت كلمة الكفر والكافرين فى القرآن الكريم فى عدة آيات وبعضها يراد به كفر النعمة وبعضها الآخر يراد به الكفر الأكبر الذى منه عدم الإيمان بالله ورسوله أو إنكار الأمور المعلومة من الدين بالضرورة و إستحلال الأمور المحرمة والمعلوم إباحتها من الدين بالضرورة .

قول بن تيمية عن الكفر

قد نبه الإمام ابن تيمية فقال : إن الكفر نوعان

أحدهما : كفر النعمة

والثانى : الكفر بالله . والكفر بالنعمة هو ضد الشكر لا الكفر بالله فإذا زال الشكر خلفه كفر النعمة لا الكفر بالله وذلك لأن من ترك فروع الإيمان لا يكون كافرا حتى يترك أصل الإيمان وهو الإعتقاد **إذ** يلزم من زوال فروع الحقيقة زوال إسمها والخلط بين الكفرين الأكبر والأصغر مما وقع فيه بعض الناس فى القديم والحاضر فجهل البعض بهذه التفرقة جعلهم يظنون أن الكفر معناه واحد ومن ثم فقد حكموا على بعض الناس بالكفر ونسوا أن الكفر قد يطلق ويراد به الكفر الأصغر الذى لا يخرج عن الملة وتوهموا أن كل من يرتكب كبيرة من الكبائر يكفر كفرا ينقله عن الملة الإسلامية بالكلية ويدخله فى الكفر العقدى وغفلوا عن أن أهل السنة والجماعة قرروا عدم تكفير مرتكب الكبيرة وفوضوا أمره إلى الله عزوجل إن شاء عاقبه وإن شاء غفر له وتجاوز عن سيئاته ونقول لا يجوز أن يكون علم الشريعة كلا مباح بدعوى أن الإسلام ليس حكرا على فئة من الناس وأنه لا يعرف طبقة من رجال الدين ولكن يعرف علماء الدين المتخصصين وقد علمنا القرآن والسنة أن نرجع إلى أهل الذكر والخبرة قال : تعالى (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل 43)

كما قال : صلى الله عليه وسلم " إن الله لا يقبض العلم إنتزاعا من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبقى عالما إتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " رواه البخارى ومسلم

تاسعا : التقليد المطلق أو الأعمى . التقليد الأعمى يعد أحد العوامل التى ربما توقع فى تكفير الآخرين أو تفسيقهم أو نسبتهم إلى البدعة والتقليد فى العرف هو عبارة عن محاكاة الغير فى قوله أو فعله أو هيئته وفى الاصطلاح هو الأخذ بقول الغير من غير معرفة الدليل وربما يكون المقلد متعصبا لمذهب معين أو متحمسا لإتجاه محدد أو منتميا إلى فرقة يحبها ومن ثم يكون تقليده بغير علم وربما يقول ما لا يعلم فيكون قد إرتكب محرما .

موقف الشرع من التقليد والمقلدين موقفا جادا

وقف الشرع من التقليد والمقلدين موقفا جادا وذلك فى قوله : تعالى (الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر 18) .

وفى تفسيرها يقول الإمام الرازى تفيدنا الآية أن النظر العقلى واجب لأنه تعالى بين أن الهداية والفلاح مرتبطان بما إذا سمع الإنسان أشياء كثيرة فإنه يختار منها ما هو أحسن وأصوب ومن المعلوم أن تمييز الأحسن والأصوب عما سواه لا يحصل بالسماع لأن السماع صار قدرة مشتركة بين الكل لأن قوله : تعالى (الذين يستمعون القول) يدل على أن السماع قدر مشترك فيه فثبت أن تمييز الأحسن عما سواه لا يتأتى بالسماع وإنما يتأتى بحجة العقل قال : أمير المؤمنين على كرم الله وجهه لا تعرف الحق بالرجال وإعرف الحق تعرف أهله وقال الإمام الغزالى العاقل من ينظر فى نفس القول فإن كان حقا قبله وإن كان باطلا تركه وأيضا كان الإمام الغزالى دور لا ينكر فى الرد على المقلدين بوجه عام وخاصة الذين يرددون كلام الآخرين دون محاولة الفهم وإدراك الحقائق علة وجهها الصحيح .

عاشرا : محدودية الثقافة . بعض الناس يحصر نفسه فى إتجاه معين فيعكف على قراءة الكتب التى تمثل هذا الإتجاه وربما يكون قائما على أسس غير علمية وقد لا تخلوا هذه الكتب من تحامل على الإتجاهات الأخرى لأن عوامل التسامح وتبادل العذر فيما أختلف فيه الإطلاع على ما إختلف فيه العلماء ليعلم منه تعدد المذاهب وتنوع المآخذ والمشارب وعلى من يقرأ عن مذهب من المذاهب أن يقرأ فى مصادره الأصلية ولا يكتفى بالقراءة لمذهب معين واحد بل عليه أن يقرأ من كتب المذاهب الأخرى .

فصل

ثورة الإعلام المعاصر وفتنة التكفير

إذا كانت ثورة الإعلام المعاصرة قد مثلت نعمة كبرى من نعم الله فى العلم الحديث عندما يسرت على الناس سبل المعرفة وأتاحت ثمرات العقول الإنسانية لجماهير الأمم والشعوب من مختلف الحضارات والقارات والطبقات فإن لهذه الثورة سلبيات عديدة منها فيما يتعلق بنقل كثير من المسائل الجدلية والخلافية من مصادرها المتخصصة والمقصورة على العلماء المتخصصين إلى الكتب الجمهورية والمواقع المتعددة على الشبكة العالمية للمعلومات وهى كتب ومواقع غدت فى أحيان كثيرة تغرى وتستدرج جمهورا كبيرا من غير المتخصصين بل وغير المؤهلين للإطلاع على مسائل وقضايا ومجادلات تزعزع ما لدى الجمهور من اليقين دون أن يكون هذا الجمهور قادرا على تحصيل يقين بديل لذلك الذى زعزعته هذه الجدليات وما فيها من شبهات كما تنشر هذه الكتب الجمهورية ومواقع الإنترنت وبعض الفضائيات خلافات الفرق وصراعات المذاهب وجدليات التيارات الفكرية بين العامة فتشعل نيران التعصب والتمزق بين جماهير أمة الإسلام لقد نقلت وسائل الإعلام والإتصال هذه كثيرا من مسائل علم الكلام الفلسفية وأدلتها الجدلية وهى أدلة لا تحقق طمأنينة إيمانية لأنها ليست الأدلة الفطرية نقلتها إلى عامة الجمهور وجمهور العامة وبعد أن كانت الجدليات الكلامية سلاحا فى مواجهة خصوم الإسلام وفى التدافع بين المؤمنين والمعاندين نقلت كثير من المنابر الإعلامية ومواقع الإنترنت التى أنشأتها مذاهب وتيارات إسلامية نقلت هذه الجدليات الكلامية إلى العامة والجمهور حتى لقد رأينا أخطر القضايا وهى قضية تكفير من يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله يشيع الحديث عنها والجدل حولها والتقاذف بها بين من لا يحسن الفقه لفروع العبادات والمعاملات فضلا عن الفقه الدقيق للكلام فى أصول الإعتقادات بل لقد غدت شهوة الشغب فنا من الفنون التى يتبارى فى عرض فصول المتفرغين له ويسعى لإدمان مشاهدته وتفريع الغرائز الصراعية فى متابعة جمهور عريض من الناس فبعد أن كان المنهاج الإسلامى يدعوا إلى لجام العوام عن علم الكلام وبعد أن كنا نقرأ فى

مصادر هذا العلم على لسان حجة الإسلام أبى حامد الغزالى وغيره التحذير من تكفير الفرق وتطويل اللسان فى أهل الإسلام وإن إختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله صادقين بها غير مناقضين لها لأن الكفر حكم شرعى لا يدرك إلا بمدرك شرعى من نص أو قياس غير منصوص ولا يلزم كفر المؤولين ما داموا يلازمون قانون التأويل وأصول الإيمان ثلاثة هى الإيمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع ولا تكفير فى الفروع أصلا إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر فالتكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه والخطأ من ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة (مصة) من دم مسلم وأكثر الخائضين فى هذا التكفير إنما يحركهم التعصب واتباع الهوى دون النظر للدين والعصمة للدم مستفادة من قول لا إله إلا الله قطعا فلا يدفع ذلك إلا بدليل قاطع بعد أن كنا نقرأ هذا الكلام النفيس لحجة الإسلام الغزالى ونقرأ كذلك للأستاذ الشيخ الإمام محمد عبده قوله : أصل من أصول الأحكام فى الإسلام البعد عن التكفير ولقد إشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر بعد أن كنا نقرأ ذلك ونقف عند حدوده أصبح التكفير مادة من مواد الإعلام الجمهورى التى تشيع هذه الفاحشة الفكرية بين ملايين العوام حتى لقد تحولت المنابر الإعلامية والمواقع على الشبكة العالمية للمعلومات إلى آليات لإشاعة الريب والشكوك وزعزعة اليقين والطمأنينة بين الناس ومن ثم وسيلة لإشاعة المزيد من التمزق والإفتراق بين صفوف الأمة وجعل بأسها بينها شديدا الأمر الذى يوهن من بأسها فى مواجهة أعدائها وذلك على العكس من الصورة التى كانت لهذه الأمة فى صدر الإسلام

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) (الفتح 29)

(وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (الأنفال 63)

الإختلاف سنة من سنن الله فى عوالم الخلق

إذا كان الإختلاف سنة من سنن الله فى عوالم الخلق وميادين الفكر فإن إتفاق الأمة وإجتماعها على الجوامع الخمسة المكونة للأرض المشتركة بين شعوبها وأجناسها وقومياتها وأوطانها ومذاهبها وهى جوامع وحدة العقيدة والشريعة والحضارة والأمة والإسلام هو الشرط لجعل الإختلاف فى الفروع كالفقه والسياسة مثلا ظاهرة صحيحة تفتح أبواب السعة والرحمة والتيسير لجمهور المسلمين .

أما الخلاف : فى الأصول وخاصة فى أصول الإعتقاد فإنه الذى يفقد الأمة أساس وحدتها ويجعل تفريقها شيعا فى أصول الدين والإعتقاد .

التحذير من التكفير

إن لأهل السنة موقف واضح وحاسم وثابت فى رفض التكفير لمن يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ما دام قائما بحقوق هذه الشهادة التى هى شعار الإسلام العاصمة للدماء والأموال والحقوق وعن هذا الوقف الواضح والحاسم والثابت يعبر حجة الإسلام أبو حامد الغزالى فيقول : واعلم أن حقيقة الكفر والإيمان وحدهما والحق والضلال وسرهما لا ينجلى للقلوب المدنسة بطلب المال والجاه وحبهما بل إنما ينكشف ذلك لقلوب طهرت عن وسخ أوضار الدنيا أولا ثم صقلت بالرياضة ثانيا ثم نورت بالذكر الصافى ثالثا ثم غذيت بالفكر الصائب رابعا ثم زينت بملازمة حدود الشرع خامسا حتى فاض عليها النور من مشكاة النبوة وصارت كأنها مرآة مجلوة وصار مصباح الإيمان فى زجاجة قلبه مشرق الأنوار يكاد زيته يضىء ولو لم تمسسه نار وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ومعبودهم سلاطينهم وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم وشريعتهم رعونتهم وإرادتهم جاههم وشهواتهم وعبادتهم خدمتهم أغنيائهم وذكرهم وساوسهم وكنزهم وفكرهم إستنباط الحيل لما تقتضيه

حشمتهم فهؤلاء من أين تتميز لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان أبإلهام إلهى ولم يفرغوا القلوب من كدورات الدنيا لقبولها أم بكمال علمى وإنما بضاعتهم فى العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالهما هيهات هيهات هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى أو ينال بالهوينا فإشتغل أنت بنفسك ولا تضيع فيهم بقية زمانك .

من جعل الحق وقفا على واحد من النظار بعينه

فهو إلى الكفر والتناقض أقرب

لعلك إن أنصفت علمت أن من جعل الحق وقفا على واحد من النظار بعينه فهو إلى الكفر والتناقض أقرب .

أما الكفر : فلأنه أنزله منزلة النبى المعصوم من الزلل الذى لا يثبت الإيمان إلا بموافقته ولا يلزم الكفر إلا بمخالفته .

وأما التناقض : فهو أن كل واحد من النظار يوجب النظر وأن لا ترى فى نظرك إلا ما رأيت وكل ما رأيته حجة . **وأى** فرق بين من يقول قلدنى فى مجرد مذهبى وبين من يقول قلدنى فى مذهبى ونظرى جميعا وهل هذا إلا التناقض ولعلك تشتهى أن تعرف حد الكفر بعد أن تتناقض عليك حدود أصناف المقلدين فاعلم أن شرح ذلك طويل ومدركه غامض ولكنى أعطيك علامة صحيحة فتطردها وتعكسها لتتخذها مطمح نظرك وترعوى بسببها عن تكفير الفرق وتطويل اللسان فى أهل الإسلام وإن إختلفت طرقهم ما داموا متمسكين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله صادقين بها غير مناقضين لها فأقول : الكفر هو تكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام فى شىء مما جاء به والإيمان تصديقه فى جميع ما جاء به ولا ينجيك إلا أن تعرف حد التكذيب والتصديق وحقيقتهما فيه فينكشف لك غلو هذه الفرق وإسرافها فى تكفير بعضها بعضا فأقول : التصديق إنما يتطرق إلى الخبر بل إلى المخبروحقيقته الإعتراف بوجود ما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده إلا أن للوجود خمس مراتب ولأجل الغفلة عنها نسبت كل فرقة مخالفها إلى التكذيب فإن الوجود ذاتى وحسى وخيالى وعقلى وشبهى فمن إعترف بوجود ما أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن وجوده بوجه من هذه الوجوه الخمسة فليس بمكذب على الإطلاق

واعلم أن كل من نزل قولا من أقوال صاحب الشرع على درجة من هذه الدرجات فهو من المصدقين وإنما التكذيب أن ينفى جميعا هذه المعانى ويزعم أن ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لا معنى له وإنما هو كذب محض وغرضه مما قاله التلبيس أو مصلحة الدنيا وذلك هو الكفر المحض والزندقة .

لا يلزم كفر المتأولين من فرق أهل الإسلام

لا يلزم كفر المتأولين وما من فرقة من أهل الإسلام إلا وهو مضطر إليه فأبعد الناس عن التأويل أحمد بن حنبل وأبعد التأويلات عن الحقيقة وأغربها أن تجعل الكلام مجازا أو إستعارة وهو الوجود العقلى والوجود الشبهى ومن الناس من يبادر إلى التأويل بغلبات الظنون من غير برهان قاطع ولا ينبغى أن يبادر إلى كفره فى كل مقام بل ينظر فيه فإن كان تأويله فى أمر لا يتعلق بأصول العقائد ومهماتها فلا نكفره ولعل الظن فى مثل هذه الأمور التى لا تتعلق بأصول الإعتقاد يجرى مجرى البرهان فى أول الإعتقاد فلا يكفر فيه ولا يبدع والزندقة المطلقة أن تنكر أصل الميعاد عقليا وحسيا وتنكر الصانع للعالم أصلا ورأسا وأما إثبات المعاد بنوع عقلى مع نفى الآلآم واللذات الحسية وإثبات الصانع مع نفى علمه بتفاصيل العلوم فهى زندقة مقيدة بنوع إعتراف بصدق الأنبياء .

وصية وقانون

أما الوصية : فأن تكف لسانك عن أهل القبلة ما أمكنك ما داموا قائلين لا إله إلا الله محمد رسول الله غير مناقضين لها والمناقضة تجويزهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعذر أو بغير عذر فإن التكفير فيه خطر والسكوت لا خطر فيه .

أما القانون : فهو أن تعلم أن النظريات قسمان قسم يتعلق بأصول القواعد وقسم يتعلق بالفروع وأصول الإيمان ثلاثة الإيمان بالله ورسوله وباليوم الآخر وما عداه فروع واعلم لا تكفير فى الفروع أصلا إلا فى مسألة واحدة وهى أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول صلى الله عليه وسلم بالتواتر ولكن فى بعضها تخطئة كما فى الفقهيات وفى بعضها تبديع كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة واعلم أن الخطأ فى أصل الإمامة وتعيينها وشروطها وما يتعلق بها لا يوجب شىء منه التكفير

ولا يلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ويجعلون الإيمان بالإمامة مقرونا بالإيمان بالله وبرسوله ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم فى الإمامة فكل ذلك إسراف إذ ليس فى ذلك واحد من القولين تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم أصلا ومتى وجد التكذيب وجب التكفير وإن كان فى الفروع نعم لو أنكر ما ثبت بأخبار الآحاد فلا يلزمه به الكفر ولو أنكر ما ثبت بالإجماع فهذا فيه نظر لأن معرفة كون الإجماع حجة قاطعة فيه غموض يعرفه المحصلون علم أصول الفقه فهذا حكم الفروع وأما الأصول الثلاثة وكل ما لا يحتمل التأويل فى نفسه وتواتر نقله ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض .

أهل السنة لا يكفرون أحدا يشهد أن لا إله إلا الله

محمد رسول الله

إن جمهور أهل السنة والجماعة بلسان أبو حامد الغزالى لا يكفرون أحدا من أهل القبلة يشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله لا يكفرون الشيعة الإمامية يقولهم فى الإمامة ورغم تكفير جمهور الشيعة لمن لا يتفق معهم فى عقيدتهم فى الإمامة ولا يكفرون أحدا من المتأولين الذين يلتزمون قوانين التأويل ولا يكفرون أحدا من الفرق المخالفة مثل المعتزلة أو المشبهة أو غيرها لأن معيار الإيمان هو التصديق بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعيار الكفر هو التكذيب لما جاء به الرسول فى الأصول ومن هنا كان زجرهم عن المسارعة إلى التكفير وتأكيدهم على أن هذه القضية فقهية شرعية لا تثبت إلا بأصل أو قياس على هذا الأصل ولا تثبت بالرأى والعقل .

الإحتراز من التكفير واجب

الإحتراز من التكفير واجب : ومن ثم فإن الإحتراز من التكفير واجب ما وجد المرء إليه سبيلا فإن إستباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله خطأ والخطأ فى ترك ألف كافر فى الحياة أهون من الخطأ فى سفك محجمة من دم مسلم .

البعد عن التكفير أصل من أصول الأحكام فى الإسلام

يقول : الإمام الغزالى وبعبارة الأستاذ الإمام محمد عبده أصل من أصول الأحكام فى الإسلام البعد عن التكفير ولقد أشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد دينهم أنه إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الإيمان من وجه واحد حمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر .

الباب الثامن

التقريب بين المذاهب الإسلامية

إن فى الحديث عن التقريب بين المذاهب الإسلامية هناك خلط بين المفاهيم المرادة من وراء المصطلحات التى يستخدمها الباحثون فى هذا الميدان فالتقريب بين المذاهب غير التوحيد للمذاهب وكلاهما متميز عن إحتضان جميع المذاهب والإستفادة من الملائم فى أحكامها وإجتهادات مجتهديها ثم إن المذاهب قد يراد بها المذاهب الفقهية وقد يراد بها المذاهب الكلامية لذلك لا بد بتحديد وتحرير مضامين ومفاهيم كل مصطلح من هذه المصطلحات فالتقريب هو الإنطلاق من تمايز المذاهب المتعددة والمختلفة والحفاظ على تمايزها وإختلافها مع العدول عن نفى مذهب للمذاهب الأخرى بالتعصب لمذهب واحد ورفض ما عداه فالتقريب هو تعايش بين المذاهب المختلفة مع إكتشاف الإطار العام الجامع لها ومناطق الإتفاق بينها وتحديد مناطق التمايز والإختلاف .

أما التوحيد بين المذاهب : فإنه يعنى دمجها جميعا فى مذهب واحد ونفى قاعدة التعدد والتمايز والإختلاف وبين هذين المصطلحين يأتى الإحتضان والإستفادة من المذاهب المختلفة والمتمايزة بإعتبارها إجتهادات إسلامية فى إطار علم واحد وحضارة واحدة ودين واحد والنظر إلى الأحكام التى أثمرتها الإجتهادات المذهبية المختلفة بإعتبارها التراث الواحد للأمة الواحدة ومن ثم الإستفادة بالملائم منها الذى يلبى حاجات تحقيق المصالح والضرورات بحكم تمايز الزمان والمكان وتنوع العادات والتقاليد والأعراف أى توسيع دائرة الترجيح بين الأحكام والإجتهادات من نطاق المذهب الواحد إلى جملة المذاهب كلها ومفهوم الإحتضان هذا من الممكن أن يكون ثمرة من ثمرات التقريب .

أما المذاهب : أما مصطلح المذاهب فإنه يطلق على الفقهية التى هى علم الفروع وإجتهادات الفقهاء فى إطار الشريعة الإسلامية الواحدة التى هى وضع إلهى ثابت عبر الزمان والمكان وقد يطلق هذا المصطلح (المذاهب) على المذاهب الكلامية أى التصورات والإجتهادات التى أبدعها علماء أصول الدين فى إطار العقائد الإسلامية

وخاصة الإلوهية وصفات الذات الإلهية والنبوات والرسالات وما يتعلق بها من مكانة الإنسان فى الكون وأفعال هذا الإنسان

التقريب بين المذاهب الفقهية الإسلامية يهدف إلى الخروج من التعصب لواحد منها ضد الآخر

قد بذلت جهودا وقامت للتقريب بين المذلهب الفقهية الإسلامية بهدف الخروج من التعصب لواحد منها ضد ما عداه والإستفادة من كل الإجتهادات فيها لتلبية إحتياجات التشريع للمستجدات العصرية فى العصر الحديث فلعل دعوة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى التقرير الذى كتبه لإصلاح القضاء الشرعى أن يكون أبرز هذه الدعوات فى عصرنا لإحتضان كل مذاهب الفقه الإسلامى والإستفادة من إجتهاداتها فى القضاء والتقنين الحديث لفقه الشريعة الإسلامية فلقد كانت الدولة العثمانية تلتزم المذهب الحنفى وحده وبفقهه وحده بحكم القضاء ويفتى المفتون فى ولاياتها رغم تمذهب الناس فيها بالمذاهب السنية الأربعة الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى .

دعوة الإمام محمد عبده إلى إحتضان كل المذاهب الفقهية

دعا الإمام محمد عبده إلى إحتضان كل المذاهب الفقهية والإستفادة من إجتهادات جميع مجتهديها لما فى ذلك من فتح باب الإجتهاد بالترجيح بين الأحكام والتيسير على الناس وتلبية حاجات المستجدات .

حركة التقنين للفقه الإسلامى بمصر

لقد كانت حركة التقنين للفقه الإسلامى بمصر فى مقدمة الحركات التى وضعت دعوة الإمام محمد عبده فى الممارسات والتطبيق ففى التعديلات التى أدخلت على بعض مواد قوانين الأسرة الأحوال الشخصية تمت الإستفادة من المذلهب الفقهية المختلفة بما فى ذلك المذهب الجعفرى للشيعة الإثنى عشرية والمذهب الزيدى للشيعة الزيدية ولما قامت مصر بإصدار موسوعة الفقه الإسلامى موسوعة جمال عبد الناصر إعتمدت كل المذاهب الفقهية الموثقة مصادرها وإحتضنت أحكامها وإجتهادات مجتهديها جميعاوهى المذاهب السنية الأربعة والمذهب الظاهرى فكانت للفقه المصرى إذا جاز التعبير الريادة فى إنتهاج هذا الطريق الذى لا يكتفى فقط بالتقريب

بين المذاهب الفقهية أى رفض التعصب لمذهب واحد ضد ما عداه وإنما تجاوز الموقف المصرى هذا التقريب إلى إحتضان كل المذاهب والعمل على الإستفادة من الملائم الملبى لإحتياجات الأمة ومستجدات العصر من إجتهادات المذاهب الفقهية جميعا .

جماعة التقريب بين المذاهب السنية والشيعة الإمامية بوجه خاص

لقد رأس هذه الجماعة الزعيم المصلح محمد على علوية باشا وكان فى مقدمة مؤسسيها والعاملين فى ميدان جهودها الفقهية والفكرية الأئمة والعلماء الأعلام الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمد مصطفى المراغى والشيخ مصطفى عبد الرازق والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد المدنى والشيخ على الخفيف والشيخ عبد العزيز عيسى والشيخ سيد سابق وغيرهم من أئمة علماء السنة كما ضمت هذه اللجنة فى إطار دار التقريب كوكبة من علماء الشيعة الإثنى عشرية مثل آية الله أفا حسين البروجردى والسيد محمد تقى الدين القمى الذى تولى الأمانة العامة للجماعة والسيد محمد الحسينى آل كاشف الغطاء والسيد شرف الدين الموسوى والسيد محمد جواد مغنيه والسيد صدر الدين شرف الدين وغيرهم وكانت مجلة رسالة الإسلام لسان حال هذه الجماعة من أبرز المنابر الفكرية التى تجسدت فيها الجهود التى بذلت فى هذا اللون من التقريب بين المذاهب الإسلامية وفى إزالة الشبهات والعقبات من ميادين العلاقة بين السنة والشيعة على وجه الخصوص كذلك كانت جهود الشيخ محمود شلتوت من أبرز ما تمخضت عنه إجتهادات هذا اللون من التقريب بين المذاهب الفقهية فلقد كتب عن مقاصد هذه الدعوة وجهود هذه الجماعة فقال : إن الدعوة إلى التقريب هى دعوة إلى التوحيد والوحدة هى دعوة السلام والإسلام كنت أود أن أستطيع تصوير فكرة الحرية المذهبية الصحيحة المستقيمة على نهج الإسلام والتى كان عليها الأئمة الأعلام فى تاريخنا الفقهى أولئك الذين كانوا يترفعون عن العصبية الضيقة ويربأون بدين الله وشريعته عن الجمود والخمول فلا يزعم أحد أنه أتى بالحق الذى لا ريب فيه وأن على سائر الناس أن يتبعوه ولكن يقول هذا مذهبى وما وصل

إليه جهدى وعلمى ولست أبيح لأحد تقليدى وإتباعى دون أن ينظر ويعلم من أين قلت فإن الدليل إذا إستقام فهو عمدتى والحديث إذا صح فهو مذهبى ولقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم وأسهمت منذ أول يوم فى جماعتها وفى وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة ثم تهيأ لى بعد ذلك وقد عهد إلى بمنصب مشيخة الأزهر أن أصدرت فتواى فى جواز التعبد على المذاهب الإسلامية الثابتة الأصول المعروفة المصادر المتبعة لسبيل المؤمنين ومنها مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية وقرت بهذه الفتوى عيون المؤمنين المخلصين الذين لا هدف لهم إلا الحق والألفة ومصلحة الأمة وظلت تتوارد الأسئلة والمشاورات والمجادلات فى شأنها وأنا مؤمن بصحتها ثابت على فكرتها وأؤيدها فى الحين بعد الحين فما أبعث به من رسائل إلى المتوضحين أو أرد به على شبه المعترضين وفيما أنشىء من مقال ينشر أو حديث يذاع أو بيان أدعوا به إلى الوحدة والتماسك والإتفاق حول أصول الإسلام ونسيان الضغائن والأحقاد حتى أصبحت والحمد لله حقيقة مقررة تجرى بين المسلمين مجرى القضايا المسلمة بعد أن كان المرجفون فى مختلف عهود الضعف الفكرى والخلاف الطائفى والنزاع السياسى يثيرون فى موضعها الشكوك والأوهام بالباطل وها هو ذا الأزهر الشريف ينزل على حكم هذا المبدأ مبدأ التقريب بين أرباب المذاهب المختلفة فيقرر دراسة فقه المذاهب الإسلامية سنيها وشيعتها دراسة تعتمد على الدليل والبرهان وتخلوا من التعصب لفلان وفلان ولقد سئل فضيلة الشيخ الإمام محمود شلتوت الإمام الأكبر شيخ الأزهر أن بعض الناس يرى أنه يجب على المسلم لكى تقع عبادته ومعاملاته على وجه صحيح أن يقلد أحد المذاهب الأربعة المعروفة وليس من بينها مذهب الشيعة ؟ فهل توافقون فضيلتكم على هذا الرأى على إطلاقه فتمنعون تقليد مذهب الشيعة الإثنى عشرية مثلا ؟

فكان جواب فضيلة الإمام الشيخ محمود شلتوت على هذا السؤال .

إن الإسلام لا يوجب على أحد إتباع لمذهب معين بل نقول إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادى ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره أى مذهب كان ولا

حرج عليه فى شىء إن مذهب الجعفرية المعروفة بمذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة فمن كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والإجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقهم ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات .

ذلك نص فتوى الإمام محمود شلتوت فى التقريب بين المذاهب الفقهية وفى جواز التعبد والتعامل وفق أحكامها جميعا دون تعصب لمذهب ضد ما عداه وجواز التعبد والتعامل من قبل أهل السنة وفق فقه المذهب الجعفرى للشيعة الإمامية الإثنى عشرية على وجه التحديد ورغم أن هذه الفتوى قد وجدت صدى عظيما وواسعا ومستمرا فى الدوائر الشيعية ورفعت من مقام الشيخ محمود شلتوت فى هذه الدوائر حتى لقد تم الإحتفال به وبآية الله البروجردى فى طهران ولقد ترجم علماء الشيعة فتواه هذه إلى مختلف اللغات إلا أنه لم تصدر فتوى مناظرة لها من أى مرجع من مراجع الشيعة ولم يفتى واحد من هؤلاء العلماء الأعلام بجواز تعبد وتعامل المسلم الشيعى وفق فقه المذاهب الفقهية السنية حتى يكون التقريب متبادلا بين الأطراف المتعددة وليس من طرف واحد لحساب الطرف الثانى .

جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية أثمرت ثمرات طيبة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة

إن هذه الجهود العلمية العظيمة التى بذلتها جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية والتى أثمرت ثمرات طيبة فى ميدان التقريب بين السنة والشيعة وهى الجهود التى يحاول مواصلاتها قدر الإمكان وعلى نحو من الأنحاء المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب بطهران .

التقريب بين المذاهب يمثل الميدان الحقيقى للجهاد الفكرى

إن التقريب هو الذى يوحد الأمة فى الأصول والثوابت وفى أمهات العقائد والمسائل الفكرية وهذا هو ميدان علم الكلام والجهد التقريبى الغائب والمطلوب هو نزع الألغام الفكرية التكفيرية التى تقصم وحدة الأمة بالتكفير لفريق من الفرقاء أو مذهب من المذاهب لأن التكفير هو نفى للآخر يقصم وحدة الأمة وهو خطر لا علاقة له بالفقه الذى هو علم الفروع ولا بالإجتهادات والإختلافات الفقهية التى هى ظاهرة صحية تثمر الغنى والثراء فى الأفكار والسير والسعة للأمة كلها فى تطبيق هذه الأحكام

وإذا كانت هذه الألغام الفكرية التكفيرية التى تتغذى بها وعليها عقول قطاعات من العلماء فى بعض الحوزات العلمية وفى بعض الدوائر الفكرية السنية كما تتغذى عليها نزعات التعصب عند العامة إذا كانت هذه الألغام قد غدت راسخة بل ومتكلة فإن الموقف الممكن والعمل إزاءها يمكن تصورها فيما يلى : -

أولا : تحديد نطاق هذه الألغام الفكرية . وأغلبها لحسن الحظ تابع من نقل القضايا الخلافية من نطاق الفروع إلى نطاق أصول الإعتقاد وتحويلها من ثم إلى نفى وتكفير للمخالفين .

ثانيا : إعتماد منهج وسنة التدرج . فى تطبيق خطة إزالة هذه الألغام الفكرية التكفيرية من الكتب التراثية وخاصة التى يدرس منها فى الحوزات العلمية والجامعات الإسلامية وذلك بحذفها من الطبعات الجديدة لكتب التراث هذه وفق المنهاج المتعارف فى تهذيب كتب التراث .

ثالثا : الإتفاق فى إطار حركة التقريب بين المذاهب الإسلامية . على منع تدريس هذه الإجتهادات التكفيرية فى الحوزات والجامعات الإسلامية التى تكون عقول العلماء فى مختلف بلاد الإسلام ولنا فى منهاج الأزهر الشريف النموذج والقدوة فى هذا الميدان فهو يحتضن كل مذاهب الأمة الفقهية والكلامية سلفها وخلفها على حد سواء مع إستبعاد التكفير والتفسيق لأى مذهب من المذاهب أو فرقة من الفرق الإسلامية حفاظا على وحدة الأمة التى هى فريضة إلهية تعلو إجتهادات المجتهدين ومذاهب المتمذهبين وصدق الله العظيم فى قوله

(إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء 92)

ذلك هو الميدان الحقيقى للجهاد الفكرى فى التقريب بين المذاهب الإسلامية إنه علم الكلام علم الأصول فى الإعتقاد وليس علم الفقه والمذاهب الفقهية التى تتخصص فى الفروع وإختلافاتها رحمة واسعة ولا تفسد الود بين المسلمين .

فصل

الإسلام والأزهر والتقريب

فى مقالة عن الإسلام والأزهر والتقريب كتب فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف دراز داعيا إلى ضرورة العمل على جمع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وتصفية الخلافات بينهم بعرضها على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه السلف الأول من المؤمنين ثم أضاف أنه سوف يظهر أنهم فى الحقيقة متحدون غير مختلفين فالأصول واحدة والوسائل واحدة وما الخلاف إلا فى التطبيق ولعمرى إذا جاز الخلاف بين المسلمين فى الفقه والفروع فكان منهم الحنفى والمالكى والحنبلى والشافعى والزيدى والإمامى وأزال الله فى هذا العصر ما كان بينهم فى عداوة وبغضاء فلم لا يجوز بينهم إختلاف هادى عف فيما هو وراء الأصول المتفق عليها من ألوان المعارف الفكرية التى ليست من العقائد لقد ذهبت فكرة البحث من المشترك إلى ما هو أبعد فى إقتراح نشرته المجلة للشيخ عبد العزيز عيسى أحد علماء الأزهر ودعا فيه إلى إنشاء معهد خاص فى إطار الأزهر لدراسة المذاهب والأفكار الدينية فى كافة الأقطار الإسلامية بحيث يمكننا من سهولة ويسر أن نعرف أوجه الوفاق والخلاف على صورة محدودة وأن نصلح ما أفسده الدهر ونحقق ما زوره التاريخ وننشر فى ربوع كل دولة ما عند الأخرى فيتبادل المسلمون الثقافة الصحيحة ويعرف بعضهم بعضا على حق وتزول من بينهم الجفوة والقطيعة ويأخذوا سبيلهم إلى الوحدة والألفة التى لا يصلح أمرهم إلا عليها .

جماعة التقريب وأهدافها وحقيقة مهمتها

فى البيان الأول : لدار التقريب أثيرت هذه القضية حيت تلقت الجمعية تساؤلات من بعض الحجازيين عن حقيقة مهمتها وهل تتناول إدماج المذاهب الإسلامية بعضها فى بعض كما يردد أهل العلم فى الحجاز وإختار البيان أن يرد من خلال إقتباس نصوص من رسالة بعثت بها الجمعية إلى الملك عبد العزيز آل سعود حين أرادت أن تقدم نفسها وتشرح أهدافها وقد جاء فى الرسالة ما يلى :-

أولا : أن جماعة التقريب .لا تريد المساس بالفقه الإسلامى ولا إدماج مذاهبه بعضها فى بعض بل هى على النقيض من ذلك ترى فى هذا الإختلاف الفقهى مفخرة للمسلمين وحسن تقدير للصالح التى ما أنزل الله شريعته إلا لكفالتها وصونها وكل ما تبذله الجماعة من جهود فى سبيل الفقه الإسلامى إنما هو فى دائرة خدمته وتنميته وتسليط نوره الوهاج على شئون الحياة الإسلامية كلها وبحث المشكلات التى وجدت ولم يتضح للناس حكم الله فيها .

ثانيا : ولن تمد الجماعة يدها إلا لأرباب المذاهب الإسلامية . التى تعتقد العقائد الصحيحة التى يجب الإيمان بها .

ثالثا : وهى ترى أن بعض المنتسبين إلى المذاهب الإسلامية . يجعلون لبعض المعارف والآراء الى لا صلة لها بالعقائد الصحيحة أهمية طاغية تدفعهم إلى التخاصم والتقاطع والتنابز بالألقاب ونسيان ما جمع الله عليه القلوب وألف به بين المسلمين وترى أن أعداء الإسلام والطامعين فى إستعمار بلاده وإذلال أهله يتخذون من هذه الخلافات أبوابا يلجون منها إلى مقاصدهم الباغية ويعملون كل ما فى إستطاعتهم على إذكاء نيرانها ليضربوا بعض المسلمين ببعض ثم يضربونهم جميعا.

رابعا : وتؤمن إيمانا عميقا بأن من أهم الواجبات الدينية . على كل ذى علم ورأى فى شعوب المسلمين على إختلاف طوائفهم ومذاهبهم الإسلامية العمل على تبصير المسلمين بدينهم وقطع أسباب الخلاف والتفرقة بينهم ببيان ما هو عقيدة يجب الإيمان بها وما هو معارف لا يضر الخلاف فيها وأن من بين هذه المعارف ما يظن أنه من العقائد وهو ليس منها .

خامسا : فالغرض من تأليف جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية . هو أن تكون مركزا إسلاميا لهذه الفكرة تتركز فيه الجهود لجميع المقتنعين بها فى أنحاء العالم شرقيه وغربيه وتتجاوب لديه أصواتهم وأبحاثهم وآراؤهم فى رفق وحسن تقبل فيتهيأ لها جو من البحث العلمى الخالص على ضوء القواعد الإسلامية الصحيحة وحينئذ تنجلى أمام المسلمين أسباب الإختلاف فيما وراء العقائد الدينية والأحكام الشرعية فيعالجونها ويصلون فى المسائل والنظريات الخلافية نفسها إلى الرأى الصحيح الذى يهدى إليه المنطق والدليل فإذا بقى بعد ذلك ما لم تجتمع عليه القلوب أو تقطع به البراهين كان أمره بعد ذلك هينا لا ينبغى أن يفضى إلى التقاطع والتناكر والتقاذف وإنما هو الخلاف فى الفقه والفروع ويعذر فيه العلماء بعضهم بعضا ويتبادلون الإحترام والمودة والتعاون كما هو شأن المؤمنين وقد جسدت دار التقريب موقفها من المذاهب المختلفة حين طبعت ووزعت فى موسم الحج جدولا مفصلا عن أحكام الحج على المذاهب المتعددة الحنفى والمالكى والشافعى والحنبلى والإمامى والزيدى

وقد راجت هذه الجداول فى البلاد الإسلامية رواجا عظيما ولفت أنظار كثير من المسلمين إلى أن آراء فقهاؤهم فى فروع عبادتهم ليست من التباعد والخلاف بحيث توجد الخصومة والفرقة والتباغض فيما بينهم .

الهدف من جماعة التقريب إزالة الخلاف بين المسلمين

تنبه إلى أهمية هذه المسألة الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء فكتب فى المجلة مقالة تحت عنوان بيان إلى المسلمين قال : فيها من المقطوع به أن ليس المراد بالتقريب بين المذاهب الإسلامية إلا إزالة أصل الخلاف بينهما إلى أقصى المراد وجل الغرض هو إزالة أن يكون هذا الخلاف سببا للعداء والبغضاء والغرض تبديل التباعد والتضارب بالإخاء والتقارب .

ضوابط التقريب

بداية يحسن أن أشير إلى أنه ليس من الكيس أن نفهم التقريب بين المذاهب الإسلامية الكلامية التوافق بين هذه المذاهب وليس من الكياسة كذلك أن نفهم من التقريب أن يتحول المعتزلى إلى أشعرى والإمامى إلى معتزلى أو يتسنن أو يتشيع سنى كل ذلك

لـيس واردا إنمـا المـراد مـن التقريـب إسـتثمار مـا وصـلت إليـه المـذاهب الإسـلامية الكلامية وبيان سعة أفقه وقـدرة هـذا الفكـر علـى التصـدى والمواجهـة لكـل التيـارات المناوئة للإسلام .

التقريب هو أن يتحد الإسلام على أصول الإسلام

إذا التقريب أن يتحد أهل الإسلام على أصول الإسلام التى لا يكـون المسـلم مسـلما إلا بها وأن ينظر الجميع فيما وراء ذلـك نظـرة مـن لا يبتغـى الغلـب ولكـن يبتغـى الحـق والمعرفة الصحيحة فنحن جميعا نؤمن بالله ربا وبسـيدنا محمـد صـلى الله عليـه وسـلم نبيا ورسولا وبالقرآن كتابـا وبالكعبـة قبلـة وبيتـا محجوجـا وبـأن الإسـلام مبنـى علـى خمس المعروفة وبأنه ليس بعده دين ولا بعد رسوله نبى ولا رسول وبأن كل مـا جـاء به حق والجزاء فى الدار الآخرة حق والجنة حق والنار حق وما إختلفنا فيه من شـىء فحكمه إلى الله ورسوله أى أننا متفقون على أسباب الخـلاف إذا الأمـة الإسـلامية وإن إختلفت فيها المدارس الفكرية تملك أسسا مشتركة تستطيع بها أن تجمع شتاتها وتوحد كلمتها .

الأصول الثابتة المشتركة

فهى أمة واحدة ذات دين واحد وكتاب واحد ورسول واحد هـذه الأصـول الثابتـة التـى تشترك فيها الأمة فإذا أدركتهـا جيـدا وإلتزمـت بمقتضـاها فـإن ذلـك يجعـل منهـا أمـة واحدة تلتقى على وحدة الغاية ووحدة المنهج ووحـدة القيـادة ووحـدة العقيـدة ولا بـأس من تنـاول هذه الأسس بإيجاز لتتضح المعالم المضيئة فى الطريق .

وحدة الغاية

وحدة الغاية : حيث إن المسلمين جميعا يدركون غاية وجودهم فـى هـذه الحيـاة وهـى الطاعة الكاملة لله عزوجل قال : تعالى

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات 56)

وإدراك هذه الغاية أساس أصيل من وحدة المسلمين .

وحدة المنهج

وحدة المنهج : وهذا المنهج الذى يجب اتباعه وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (آل عمران 103)

ولـيس بهـذا المـنهج إلا مصـدر واحـد وهـو الله سـبحانه وتعـالى فهـو الـذى وضـعه للمسلمين فإذا إتضحت هذه الحقيقة فى أذهان المسلمين وأشرقت فـى قلـوبهم المؤمنـة تمثلوها فى واقعهم وسلوكهم .

وحدة القيادة

لقد شاء الله أن يكون الإسلام آخر الرسـالات السـماوية فـى الأرض وأن يكـون سـيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آخر الرسل فيه أكمـل الله الـدين وبـه خـتم المرسـلين وهـذه الحقيقة يجب أن تتضح فى أذهان المسلمين إذ بقدر وضوحها وإلتـزامهم بهـا بقـدر مـا يتيسر للأمة الإجتماع .

وحدة العقيدة

العقيدة هى الأساس الذى يرتفع عليه بناء الدين فـإذا قـوى الأسـاس سـهل علـى الأمـة تصـحيح أوضـاعها وأمكـن لهـا الإجتمـاع والبقـاء وحـين تكـون العقيـدة واضـحة فـى الأذهان مشرقة فى القلوب تزول الحواجز التى قامت بين الأمة فالحق كـل الحـق أنـه لا ضرر على المسلمين فى أن يختلفوا فإن الإختلاف سـنة مـن سـنن الإجتمـاع ولكـن الضرر فى أن يفضى بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج علـى مقتضـى الأخـوة التـى أثبتها الله فى كتابه العزيز لا على أنها شىء يؤمر به المؤمنون لكـن علـى أنهـا حقيقـة واقعـة رضـى النـاس أم أبـوا (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) (الحجرات 10)

فالخلاف فيما يتعلق بالعقائد لم يتجاوز الحد النظرى ولا الإتجاه الفكـرى فـإن العلمـاء الذين تصدوا لهذا لم يجـرى بينـهم خـلاف أدى إلـى إمتشـاق الحسـام وطبيعـة حيـاتهم العلمية لا تسمح لهم بأن ينقلوا الخلاف من ميـدان القـول إلـى ميـدان العمـل ولـم يكـن الإختلاف النظرى ليصل فى حدته إلى أن يجعلوه عمليـا ولـم تظهـر الحـدة إلا فـى أن

يحكم كل واحد على الآخرين بالخطأ والإبتداع ومهما يكن قدر الإختلاف النظرى فى العلوم الإعتقادية فإنه لم يمس لب الإسلام ولم يكن الإختلاف فيما علم من الدين بطريق قطعى ولا شك فيه أو فى أصوله التى لا مجال لإنكارها والتى تعد من أركان الإسلام التى يقوم عليها بناؤها فالخلاف حول أوائل المقالات أو المعارف الكلامية يجرى حول معارف إسلامية تبلور كثيرا من الحقائق وتصقل العقول والأفهام وتحدث بإحتكاكها وميضا يكشف سبل البحث وطرائق الإستدلال تلك هى خلافات المذاهب الإسلامية الكلامية وهى فى باطنها تشير إلى الوحدة لا التفرقة وتنبىء عن الإجماع لا عن التشتت فلم يكن الإختلاف فى وحدانية الله تعالى وشهادة أن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا فى أن القرآن نزل من عند الله العلى القدير وأنه معجزة النبى الكبرى ولا فى أنه يروى بطريق متواتر نقلته الأجيال الإسلامية كلها جيلا بعد جيل ولا فى أصول الفرائض كالصلوات الخمس والحج والصوم ولا فى طريق آداء هذه التطبيقات وبعبارة عامة لم يكن الخلاف فى ركن من أركان الإسلام ولا فى أمر علم من الدين بالضرورة كتحريم الخمر والخنزير وأكل الميتة والقواعد العامة للميراث وإنما الإختلاف فى أمور لا تمس الأركان ولا الأصول العامة إن هذه الخلافات فى جوهرها تنبىء عن معنى الوفاق فهى ترتبط بأصل واحد وهو الكتاب والسنة ومدارس الفكر الإسلامية المختلفة داخل الإسلام شىء طبيعى مرغوب فيه ليس منه بد ما دام الإسلام دينا حيا لا حياء لكى يزداد حياة .

التأكيد على المشترك بين السنة والشيعة

فى معنى التأكيد على المشترك بين السنة والشيعة كتب الشيخ حسنين مخلوف مفتى مصر فى رسالة الإسلام يقول : إننى من المؤمنين بفكرة التقريب العاملين على أن يدرك المسلمون جميعا مزاياها وما تؤدى إليه من جمع كلمتهم وتوحيد أهدافهم

فالإسلام هو دين الوحدة كما هو دين التوحيد وقد حرصت شريعته على أن تقر فى الناس أسس التضامن والتكافل الإجتماعى والتعاون على البر والتقوى وعلى أن تنزع من بينهم أسباب العداءات والضغائن وما ينزغ به الشيطان بينهم ليفشلوا وتذهب ريحهم .

القواعد الخمس التى بنى عليها هذا الدين

تحث على الوحدة والألفة

وهذه القواعد الخمس التى بنى عليها هذا الدين المتين آثرت كلها إلى توطيد أمر المسلمين على الوحدة والألفة وإتفاق الغاية فالمسلمون جميعا يقيمون الصلاة فى أوقات خمس مكتوبة ليست ستة عندد فريق ولا أربعة عند فريق آخر وهم متفقون عليها بأعيانها ومتفقون على أعداد ركعاتها وعلى قبلة المصلى فيها وقد شرعت فيه الجماعات والجمعات والصلوات العامة فى المناسبات كصلوات العيد والإستسقاء والكسوف ونحو ذلك كل ما يراد به إشعار المسلمينبالوحدة والألفة وإتفاق المصالح والإستواء أمام ربوبية الله جل وعلا وما يسرى على الصلاة يسرى بذات القدر على الشهادتين وعلى الزكاة والصيام والحج وهذه هى الأركان التى لا يختلف عليها المسلم تشكل أساسا متينا للتوحيد والوحدة بين أبناء الأمة .

التقريب مدخل لوحدة المسلمين

من المؤكد أن موضوع الإسلامية والسبل المختلفة للتقارب النظرى والعملى بين الأمة قد شكل هاجسا أساسيا لدى كثير من النخب الإسلامية منذ زمن بعيد لأن كلفة التفرق والتناحر فى الداخل الإسلامى كانت ولا تزال عالية ولأن هذه المساعى الحميدة المشكورة لم ترقى على مستوى القدرة على كبح جماع التطرف المذهبى والسعى لإقصاء الطرف الآخر ولم تفلح كذلك فى إيقاف النزيف الدموى فى جروح الجسد الإسلامى إلى يومنا هذا فإنه من المنطقى أن تخضع كل هذه المحاولات لمراجعات عميقة وموضوعية للكشف عن مكان الخلل فيها وتصحيحها غير أننا فى هذه العجالة لا ندخل فى هذه المراجعة الذاتية والأسباب الحقيقية وراء هذه الإخفاقات الكبيرة فى المشاريع الوحدوية رغم أهميتها وإلحاح الحاجة الإسلامية إليها بل نسعى للتركيز على جانب من جوانب المشروع التقريبى .

التقريب بين المذاهب الإسلامية بين عقد الأربعينيات والعقود الحالية

تجربة التقريب بين المذاهب الإسلامية بين عقد الأربعينيات والعقود الحالية دراسة لجوانب السلبيات والإيجابيات فنقول : تتأثر فكرة التقريب بالظروف السياسية فتنشط

حين يتحرر قرار العلماء والمفكرين من تأثير السلبية ولقد كانت حركة تقريبية رائدة إنطلقت من دار التقريب وجماعة التقريب من القاهرة ووضعت هذه الحركة لها خطة مدروسة فى حقل الأصول والفروع لنشر ثقافة التقريب وحققت عبر مجلتها رسالة الإسلام نجاحا فى إزالة الحواجز النفسية وتصحيح المفاهيم لذى السنة والشيعة ويتحمل المجمع العالمى للتقريب بين المذاهب الإسلامية اليوم مسئوولية رفع الرآية مرة أخرى .

من نتائج تجربة التقريب

ما الذى فعلته هذه النخبة من الرجال الذين إلتقوا على فكرة التقريب بين المذاهب وروادهم حلم توحيد الأمة وجمع كلمتها إن كل من تحدث فى موضوع التقريب لا بد أن يتوقف أو ينطلق من الفتوى التى أصدرها الإمام محمود شلتوت بعدما صار شيخا للأزهر الشريف وهى الأولى من نوعها التى أجازت التعبد على مذهب الشيعة الإمامية الإثنى عشرية والزيدية وكثيرون ينسون أن الشيخ شلتوت رحمه الله كان من مؤسسى جماعة التقريب بين المذاهب وأن الفتوى من ثمار جهد علمائها الذى تواصل حثيثا لمدة عشرين عاما تقريبا إلى جانب الفتوى فإن جماعة التقريب أصدرت مجلة باسم رسالة الإسلام ظلت تصدر طيلة أربعة عشرة عاما .

كما أنها إعتمدت تفسير للقرآن الكريم إجتمع عليه علماء السنة والشيعة وهو تفسير مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسى الذى إستغرق تهيئته للنشر عشرون عاما وأشرف على هذه العملية ثلاثة من أكابر علماء الأزهر هم الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد المدنى وقد شرعوا فى تجميع الأحاديث النبوية المتفق عليها بين السنة والشيعة وقطعوا شوطا طيبا فى هذا الصدد رغم أن هذا الجهد لم يرى النور وإذا ألقيت نظرة ثانية على ما حققته اللجنة فى عمرها القصير نلاحظ ما يلى :-

أولا : أنها أحيت فكرة التقريب وجمعت حولها كبار علماء السنة والشيعة .وكان عملها هذا أهليا محضا حركته الغيرة على الإسلام والمسلمين ولم يكن لهذا العمل علاقة بأى نظام سياسى أو مؤسسة رسمية .

ثانيا : أنها طرحت مشروعها من خلال مجلة رسالة الإسلام . التى ظلت تخاطب المسلمين كافة طيلة أربعة عشرة عاما .

ثالثا : أنها نجحت فى ضم الفقه الشيعى إلى المذاهب الإسلامية . التى تخضع للدارسة فى منهج الفقه المقارن بالأزهر الشريف .

رابعا : أنها قطعت شوطا كبيرا بإصدار تفسير القرآن الكريم متفق عليه . وسعت إلى تحقيق الفكرة نفسها عن طريق تجميع الأحاديث النبوية المتفق عليها أيضا معنى ذلك أن جماعة التقريب أنجزت خطا بالغا الأهمية على صعيد تحويل التقريب من حلم وفكرة إلى عمل مشترك جاد تبلور فى مجموعة من الآثار العلمية التى بقيت لأجيال المسلمين إلى يوم الدين .

محاور مجلة الإسلام

إذا كان تفسير الطبرسى نموذجا للعمل العلمى الذى ترجم عملية التقريب فإن الأفكار التى طرحتها مجلة رسالة الإسلام تمثل صلب المشروع وتعكس كيفية رؤية أصحابه له ولذلك فإنها تعد بحق صوت التقريب الأمر الذى يجعلها جديرة بأن تصبح مادة للدراسة المعمقة ولذلك فهى بحاجة إلى وقفة أطول .

إن قارىء أعداد المجلة يلاحظ أنها ظلت طيلة الأربعة عشر عاما تتحرك على محاور عدة فى مقدمتها خمسة شنعرض لها بالتوالى هى :-

الأول : إستنكار فرقة المسلمين .

الثانى : الدفاع عن الحق فى الخلاف .

الثالث : رفض توحيد المذاهب .

الرابع : الأصول المتفق عليها بين أهل السنة والشيعة . ومن ثم السعى الدؤب للتنبيه إلى مساحة المشترك بين الطرفين .

خامسا : رد الشبهات التى تردد فى أوساط أهل السنة بشان الشيعة ومذهبهم .

إستنكارفرقة المسلمين وتمزقهم

فيما يتعلق بإستنكار فرقة المسلمين وتمزقهم فإنه لا يكاد نص من المجلة يخلو من تعبير عنه وكان البيان الذى أصدره مؤسسوا دار التقريب عقب أول إجتماع لهم فى

30 ربيع الأول عام 1366 هجرية هو أوضح إعلان عن الفكرة فبعد أن أشار البيان إلى ثراء الفقه الإسلامى إنتقد ممارسات المقلدين والمتعصبين للمذاهب الذين كلت هممهم عن حمل ما كان يحمله سلفهم فى العلم والنظر وهو ما صادف عهود الضعف السياسى وإنقسام الأمة الإسلامية إلى دويلات صغيرة لا ربطها رابطة ولا تجمعها جامعة ومن شأن الضعف السياسى إذا أصيبت به أمة أن يخيل إلى أبنائها أنهم أقل من سواهم قوة وعلما وتفكيرا وأنه تركد معه ريح العلم ويفتر نشاط العلماء بهذا وبغيره أضاف البيان تأثر أكثر المشتغلين بالفقه فحكموا على أنفسهم وعلى جميع أهل العلم فى زمانهم بأنهم ليسوا أهلا للنظر والإستنباط ولا لفهم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن ثم حكموا بإغلاق باب الإجتهاد وترتب على ذلك أن وقف الفقه وجمد وأن تعصب كل منهم لرأى إمام وزعم أنه الحق وأن ما سواه باطل وأسرفوا فى ذلك إسرافا بعيدا حتى كان منهم من لا يصلى وراء إمام يخالفه فى مذهبه ومن لا يزوج إبنته لفلان أو يتردد فى أكل ذبيحة فلان أو قبول قضاء فلان لمجرد أنه يخالفه فى المذهب ثم حصروا الأئمة الذين أوجبوا إتباعهم فى عدد معين وهكذا أضاف الأفق فى الأتباع والأشياع مما إتسع له أفق المتبوعين .

ما تحدث به فضيلة الشيخ محمد الغزالى

تحت عنوان على أوائل الطريق

إستهلها فضيلة الشيخ محمد الغزالى رحمه الله بكلام المستشرق المجرى جولد تسهير ذكر فيه أن الملك نادر شاه المتوفى سنة 1747 ميلادية سعى جاهدا كى يعقد مع الأتراك صلحا ينقى الجو بين الشيعة والسنة ويضع حدا للخلاف القائم بين الفريقين ووضع لذلك مشروعا جديدا كاد يخرج إلى حيز التنفيذ لولا أن المنية عاجلته فمات دون أن تحقق أمنيته . وقد أشارت كتابات الفقيه السنى عبد الله بن حسين السويدى الذى كان معاصرا لتلك الفترة إلى أن نادر شاه عقد مجمعا دينيا جمع فيه فقهاء الفريقين وقد إتفق هؤلاء الفقهاء على ضم التشيع إلى المذاهب السنية وجعله مذهبا خامسا يقبل به المسلمون كافة وقد صار من السهل بعد قليل بموجب هذا الإتفاق أن يخصص مقام خامس للمذهب الجعفرى فى دائرة الحرم المكى بجوار مقامات

المذاهب الأربعة السنية وصار لزاما منذ ذلك الوقت الإقرار بسنية هذا المذهب إمتدح المستشرق المجرى هذه الخطوة لكنه قال : إن حلم التوفيق بين الطرفين كان أمنية بعيدة ذلك أن الحقد المتوارث الذى يحمله كلا الفريقين للآخر والضغائن التى شطرت فقهاء المذهبين جعلتهم بعد موت نادر شاه لا يتصوبون سياسة التسامح والوفاق وعلق الشيخ الغزالى على ما كتبه جولد تسهير قائلا : لقد أحسست وخزا فى فؤادى وأنا أقرأ كلمة الإسلام الشيعى والإسلام السنى لقد ترددت على لسان المستشرق المجرى مرارا وتساءل ؟ ما الذى حدث حتى نكب الإسلام بهذه الفرقة ؟ثم قال : الشيخ فى رده .

الحقيقة أن هناك أناسا لا يتقون الله فى دينهم ولا فى أمتهم أطلقوا غيوما داكنة من الإشاعات والظنون كانت العملة الدفينة فى تمزيق الشمل وملىء الرءوس بطائفة من التصورات الباطلة والمشاعر المنحرفة وجماهير العامة للأسف الشديد ضحايا لتجاذب متبادل لا أساس له ويوم ينكشف الغطاء عن الحقيقة سيحزن كثيرون لما أرسلوا من أحكام وأطلقوا من عبارات .

ما تحدث به فضيلة الشيخ محمد تقى القمى فى هذا الشأن

كتب الشيخ محمد تقى القمى يقول : كان الوضع قبل تكوين جماعة التقريب يثير الشجن فالشيعى والسنى كل كان يعتزل الآخر وكل كان يعيش على أوهام ولدتها فى نفسه الظنون أو أدخلتها عليه سياسة الحكم والحكام أو زيفتها له الدعاية المغرضة كان يسود الفريقين جو من الظلام فلا يرى أحدهما فى صورة الآخر إلا شبحا تحوطه الظلمة ولا يتكلم عنه إلا بما توحى به الظلمة ولا يقرأ عنه إلا ما تسمح به حلكة الظلام ثم أضاف فضيلته إن الفرقة بين المسلمين ظلت غذاءا مناسبا للحكم والحكام قرون عدة دأب فيها كل حاكم على إستغلالها لتثبيت سلطانه وتحطيم عدوه ثم جاءت السياسات الأجنبية فوجدت فى هذه الفرقة خير وسيلة لتدخلها وبث نفوذها ودعم سلطانها وفرض سياستها الحق كل الحق أنه لا ضرر على المسلمين فى أن يختلفوا فإن الإختلاف سنة من سنن الإجماع ولكن الضرر كل الضرر فى أن يفضى بهم الخلاف إلى القطيعة والخروج على مقتضى الإخوة التى أثبتها الله فى كتابه العزيز لا

على أنها شيء يؤمر به المؤمنون ولكن على أنها حقيقة واقعة رضى الناس بها أم أبوا .

هكذا كتب الشيخ محمد تقى القمى فى الأعداد الأولى لمجلة رسالة الإسلام فى مقالة بعنوان (نقط على الحروف) أو (مزيد من الإيضاح) .

خلاف نرضاه وخلاف نأباه

فى هذا المعنى عاد فضيلة الشيخ القمى إلى التأكيد عليه فى مقالة أخرى بعنوان خلاف نرضاه وخلاف نأباه وفيه قال : هناك خلاف تمليه طبيعة الفكر أو التفكير وتقتضيه سنن الإجتماع ونحن نقبله وهناك خلاف يصطنع إصطناعا ونحن نرفضه ونأباه إننا نقبل الخلاف الفكرى ما دام فى دائرة معقولة ونرحب بالخلاف المذهبى لأنه وليد آراء إجتهادية مرجعها الكتاب والسنة أو ما أعطاه الكتاب أو السنة قوة الحجية ونرحب بما عند الشيعة وأهل السنة تؤمنان بما يجب على المسلم أن يؤمن به وإن إختلفنا فى مسائل فقهية وتميزنا فى مسألة الولاية والخلافة ونرحب كذلك بالمعارف الكلامية لأنهما ميدان من ميادين التفكير للمسلم أن يجول فيه نحن نرحب بهذه الخلافات كلها بل نعتز كمسلمين بالكثير منها لأنها إن دلت على شيء فإنما تدل على الحرية الفكرية ولأنهما إن أحسن النظر إليها تسعد الأمة وتكفل رقيها وتبقى على سلامتها إن هذه الخلافات فى جوهرها تنبىء عن معنى الوفاق فهى ترتبط بأصل واحد هو الكتاب والسنة وليس معنى هذا أن فى السنة خلافا بمعنى أن البعض يقبل ما صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنهم قد يختلفون فى الفهم أو التفسير أو فى أن هذا صدر عن الرسول الأعظم أو لم يصدر أما من لا يأخذ بما أمر به الرسول فليس بمسلم فالآراء الإجتهادية إذن يجمعها الكتاب والسنة وليس بعد هذا من وفاق .

أما الخلاف : الذى لا نرحب به ولا نقبله بل نرفضه ونقاومه . فهو الخلاف الذى يقوم على الكراهية والبغضاء وتغذية الشبه والأوهام ويوجد البلبلة فى صفوف الأمة ويؤدى إلى تفريق كلمة المسلمين ذلك خلاف لا يتفق والخلق الإسلامى ولا يستند إلى

المعارف الإسلامية حمل لواءه مؤلفون كتبوا قبل التثبت تارة وبداعى الهوى تارات فسودوا الشيعة فى نظر أهل السنة وسودوا صحيفة أهل السنة فى نظر المتشيعين بعضهم خلط بين أهل السنة والنواصب وأكثرهم خلطوا بين الشيعة والغلاة وبينهما وبين الفرق البائدة وألصقوا بها آراء لا تمت إليها بصلة بل الشيعة منها براء .

تصويب صورة الشيعة الإمامية فى الذهن الإسلامى العام

نشرت مجلة الرسالة مقالات عدة لفتت الأنظار إلى ضرورة التفرقة بين مدارس الإعتدال والغلو فى الساحة الشيعية ومقالة العلامة الدكتور محمد جواد مغنية الغلاة فى نظر الشيعة الإمامية نموذج لذلك وفيها ذكر أن علماء الإمامية نموذج لذلك وقال : إن علماء الإمامية متفقون على نجاستهم وعدم جوازالزواج منهم أو تغسيل موتاهم وعدم توريثهم وهؤلاء هم الذين زعموا أن جزءا إلهيا حل فى جسم على بن أبى طالب وبه يعلم الغيب والرعد صوته والبرق تبسمه وغيرهم يقول : بأن جعفر الصادق هو إله الزمان أو أولئك الذين زعموا أن الله جل جلاله خلق الأئمة ثم إعتزل تاركا لهم خلق العالم وتدبير شئونه .

الخلافات بين السنة والشيعة

سلط الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء الضوء على بعض خلافات السنة والشيعة فقال : إن أعظم تلك الخلافات وأهمها على الإختلاف هو قضية الإمامة حيث ذكر أن الطائفتين وقعت منها على طرفى نقيض فالشيعة ترى أن الإمامة أصل من أصول الدين وهو رديفة التوحيد والنبوة وأنها منوطة بالنص من الله ورسوله وليس للأمة فيها الرأى والإختيار شيء كما لا إختيار لهم فى النبوة بخلاف أهل السنة فهم متفقون على عدم كونها من أصول الدين ومختلفون بين قائل بوجوب نصب الإمام على الرعية بالإجماع ونحوه وبين قائل بأنها قضية سياسية ليست من الدين فى شيء لا من أصوله ولا من فروعه ثم أضاف فضيلة الشيخ كاشف الغطاء متسائلا مع أن التباعد الشاسع بين الفرقتين فى هذه القضية هل تجد الشيعة تقول : أن من لا يقول بالإمامة غير مسلم كلا ومعاذ الله أو تجد السنة تقول : أن القائل بالإمامة خارج عن الإسلام لا وكلا إذا فالقول : بالإمامة وعدمه لا علاقة له بالجماعة الإسلامية

وأحكامها من حرمة دم المسلم وعرضه وماله ووجوب أخوته وحفظ حرمته وعدم الجواز لغيبته إلى الكثير من أمثال ذلك من حقوق المسلم على أخيه .

مسألة الطعن فى الصحابة

ذهب فضيلته إلى أبعد فى المصارحة فقال : إن أحد أسباب المشاحنة بين السنة والشيعة ما يتردد من أن الشيعة ترى جواز المساس بكرامة الخلفاء أو الطعن فيهم وفند-تلك المقولة بحجج منها : -

أولا : فليس هذا من رأى جميع الشيعة وإنما هو رأى فردى من بعضهم وربما لا يوافق عليه الأكثر . كيف وفى أخبار الأئمة الشيعيين النهى عن ذلك فلا يصح معاداة الشيعة أجمع لإساءة المتطرفين منهم .

ثانيا : أن هذا على فرضه لا يكون موجبا للكفر والخروج عن الإسلام . **بل** أقصى ما هنالك أن يكون معصية وما أكثر العصاة فى الطائفتين ومعصية المسلم لا تستوجب قطع رابطة الإخوة الإسلامية معه قطعا .

ثالثا : قد لا يدخل هذا فى المعصية أيضا ولا يوجب فسقا إذا كان ناشئا عن إجتهاد وإعتقاد وإن كان خطأ فإن المتسالم عليه عند الجميع فى باب الإجتهاد أن للمخطىء أجر وللمصيب أجران وقد صحح علماء السنة الحروب التى وقعت بين الصحابة فى الصدر الأول كحرب الجمل وصفين وغيرهما بأن طلحة والزبير ومعاوية إجتهدوا وهم وإن أخطئوا فى إجتهادهم ولكن لا يقدح فى عدالتهم وعظيم مكانتهم **وإذا كان** الإجتهاد يبرر ولا يستنكر قتل آلاف النفوس من المسلمين وإراقة دمائهم فبالأولى أن يبرر ولا يستنكر معه أى مع الإجتهاد تجاوز بعض المتطرفين على تلك المقامات المحترمة .

مسألة تقليد المذاهب ونقص القرآن الكريم

رد فضيلة الشيخ محمد المدنى على من انتقد تقليد غير المذاهب الأربعة عند أهل السنة خصوصا الشيعة الإمامية الذين يعتقدون أن القرآن قد دخله النقص ويروون عن فاطمة رضى الله عنها أن الذى بقى منه نصف الذى نزل أو ما فى معنى ذلك

قال : فى رده إن تقليد غير المذاهب الأربعة جائز شرعا وواجب المسلم إذا تعذر عليه أن ينال الأحكام من أدلتها أن يسأل أهل الذكر وليس عليه أن يلتزم مذهبا معينا إذ لا واجب عليه إلا ما أوجبه الله ورسوله ولم يوجب الله ورسوله علة أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة قال : شارح مسلم الثبوت فإيجابية تشريع شرع جديد قال ولك أن تستدل عليه بأن إختلاف العلماء رحمة بالنص فى حق الخلق فلو ألزم العمل بمذهب معين كان نقمة وشدة ثم قال : وأما إن الإمامية يعتقدون نقص القرآن ؟ فمعاذ الله وإنما هى روايات رويت فى كتبهم كما روى فى كتبنا وأهل التحقيق من الفريقين قد زيفوها وبينوا بطلانها وليس فى الشيعة الإمامية أو الزيدية من يعتقدون ذلك كما أنه ليس فى السنة من يعتقده ويستطيع من شاء أن يرجع إلى مثل كتاب الإتقان فى علوم القرآن للإمام السيوطى السنى ليرى فيه أمثال هذه الروايات التى نضرب عنها صفحا .

ما ذكره الشيخ السعيد أبو الفضل الطبرسى فى كتابه مجمع البيان لعلوم القرآن

وفى ذلك يقول الشيخ السعيد أبو الفضل بن الحسن الطبرسى من كبار علماء الإمامية فى كتابه وهو بصدد الكلام عن الروايات الضعيفة التى تزعم أن نقصا ما دخل القرآن يقول ما نصه روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن فى القرآن تغييرا ونقصانا والصحيح - من مذهب أصحابنا خلافه وهو الرأى الذى نصره المرتضى قدس الله روحه وإستوفى الكلام فيه غاية الإستيفاء فى جواب المسائل الطرابلسيات وذكر فى مواضع إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المستورة فإن العناية اشتدت والدواعى توفرت على نقله وحراسته وبلغت إلى حد لم تبلغه فيما ذكرناه لأن القرآن معجزة النبوة ومأخذ العلوم الشرعية والأحكام الدينية وعلماء المسلمين قد بلغوا فى حفظه وحمايته الغاية حتى عرفوا كل شىء إختلفوا فيه من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته فكيف يجوز أن يكون مغيرا أو منقوصا مع العناية الصادقة والضبط الشديد وقال : أيضا قدس الله روحه .

إن العلم بتفسير القرآن فى صحة النقل كالعلم بجملته وجرى ذلك مجرى ما علم ضرورة من الكتب المصنفة ككتاب سيبويه والمزنى فإن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما حتى لو أن مدخلا أدخل فى كتاب سيبويه بابا من النحو ليس من الكتاب لعرف وميز وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب وكذلك القول فى كتاب المزنى ومعلوم أن العناية بنقل القرآن وضبطه أصدق ممن العنايية بكتاب سيبويه ودواوين الشعراء وذكر أيضا أن القرآن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله مجموعا مؤلفا على ما هو عليه الآن وإستدل على ذلك بأن القرآن كان يدرس ويحفظ جميعه فى ذلك الزمان حتى عين جماعة من الصحابة له وأنه كان يعرض على النبى صلى الله عليه وسلم وآله ويتلى عليه وأن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبى بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم وآله عدة ختماتوكل ذلك يدلى بأدنى تأمل على أنه كان مجموعا مرتبا غير مبتور ولا مبثوث وذكر أن من خالف ذلك من الإمامية والحشوية لا يعتد مجموعا فإن الخلاف فى ذلك مضاف إلى قوم من أصحاب الحديث نقلوا أخبارا ضعيفة ظنوا صحتها لا يرجع بمثلها عن المعلوم المقطوع على صحته

فهذا كلام صريح واضح فى الدلالة على أن الإمامية كغيرهم فى إعتقاد أن القرآن لم يضع منه حرف واحد وأن من قال بذلك فإنما يستند إلى روايات ظنها صحيحة وهى باطلة .

فصل

وقفة مع تدريس فقه الشيعة بالأزهر الشريف

اعتبر الشيخ محمد المدنى تدريس فقه الشيعة فى كلية الشريعة بجامعة الأزهر بمثابة رجة البعث وكانت هذه الخطوة قد أثارت لغطا فى أوساط العلماء قام الشيخ بتنفيذ ما تردد وقال : إن بعض الناس تسألوا كيف يدخلون فقه الشيعة فى الأزهر مع أن المذهب مذهب الذين يعتقدون أن جبريل إنما بعث بالرسالة إلى على فأخطأه ونزل بها على محمد وأن عليا قد حل فيه جزء من الإله وقال : فى الرد على السؤال ما يلى :-

إن كلمة الشيعة تطلق على عشرات المذاهب التى تنتسب إلى الإسلام حقا أو باطلا وبعض هذه المذاهب ضال منحرف عن الأصول الإسلامية وبعضها متمسك بما يجب الإيمان به مثله فى ذلك كمثل مذاهب أهل السنة وإن خالفهم فى بعض الفروع الفقهية أو النظريات والمسائل التى هى من قبيل المعارف الكلامية .

والفريق الأول : من المنتسبين باسم الشيعة وهم الضالون المنحرفون لا يعدون من أهل الإسلام وإن إدعوه لأن العبرة فى ثبوت الإسلام إنما هى بالإيمان بأصول العقائد الإسلامية وعدم إنكارها وما هو معلوم من الدين بالضرورة وهؤلاء ليسوا كذلك وقد إنقرضوا ولم يعد لهم أثرا فى العالم الإسلامى ولو فرضنا أن لهم بقية فى كهف من الكهوف أو طرف من الأطراف فليسوا منا ولسنا منهم وهم كفار خارجون على ملة الإسلام ملعونين من أهل السنة والشيعة .

أما الشيعة : الذين تقرر إدخال فقههم فهم الشيعة الإمامية الإثنى عشرية وقد لقبوا بالإمامية لأنهم يقولون بأن إمامة على ثابتة بالنص ولقبوا بالإثنا عشرية لأنهم يسوقون الإمامة إلى إثنى عشر إماما أولهم على بن أبى طالب وآخرعم محمد بن الحسن العسكرى الملقب بالحجة وهم يسكنون إيران والعراق وسوريا ولبنان وباكستان والهند وغيرها من البلاد العربية والإسلامية ويؤمنون بأصول الإسلام كلها ولا يستطيع أحد من أهل القبلة أن يحكم بكفرهم وكل ما بينهم وبين السنة من إختلاف إنما هو فيما وراء الأصول التى يجب الإيمان بها لتحقق مفهوم الإسلام وينسب فقههم

إلى أئمتهم من أهل البيت النبوى واشتهر باسم الفقه الجعفرى نسبة إلى أحد هؤلاء الأئمة وهو جعفر الصادق بن محمد الملقب بالباقر وهؤلاء الشيعة الإمامية يلعنون أهل المذاهب المنسوبة إلى الشيعة من الغلاة فى شأن على ويتبرءون منهم ويحكمون بكفرهم ونجاستهم ولهم كتبهم فى العقائد والفقه والأصول وأسرار الشريعة والأخلاق والتصوف وعلوم اللغة العربية وقد نبغ منهم كثير من الفقهاء وأهل الحديث والرواية والأدباء والأصوليين والمتكلمين وغيرهم ولهم أثر واضح فى العلوم الإسلامية فى مختلف العصور الشيعة الزيدية وهم يسكنون اليمن غالبا ومذهبهم منسوب إلى الإمام زيد العابدين وهو أقرب مذاهب الشيعة إلى أهل السنة ولا ينازع أحد فى شأنهم مع كونهم أيضا ملقبين بلقب الشيعة ثم أضاف – إذن فلا يستقيم القول بأن الشيعة كلها تقول برسالة على وألوهيته أو تغالى فى شأنه فإن هذا القول على إطلاقه خطأ ويجب التفريق بين الشيعة المهتدين والشيعة الضالين أو المنحرفين كما يجب الحذر عند سماع أى نقل عن الشيعة والتحرى عن القائل منهم بذلك حتى لا يحمل قول ضال على فرقة مهتدية لم تقله .

قراءة وحاشية فى التقريب بين المذاهب الإسلامية

ما تحدث به فضيلة الدكتور أحمد كريمة أستاذ الشريعة الإسلامية جامعة الأزهر

المساعى المشكورة للتقريب

قد كانت مساع مشكورة للتقريب بين هذه المذاهب الإسلامية فيما يعرف بالتقريب ومن رواد ذلك فضيلة الإمام محمود شلتوت رحمه الله يقول : بفتوى شهيرة وأرآء عظيمة منها إن الإسلام لا يوجب على أحد من أتباعه اتباع مذهب معين بل نقول :

إن لكل مسلم الحق فى أن يقلد بادىء ذى بدء أى مذهب من المذاهب المنقولة نقلا صحيحا والمدونة أحكامها فى كتبها الخاصة ولمن قلد مذهبا من هذه المذاهب أن ينتقل إلى غيره ولا حرج عليه من ذلك وأن مذهب الجعفرية المعروف بمذهب الشيعة الإمامية الإثنا عشرية مذهب يجوز التعبد به شرعا كسائر مذاهب أهل السنة فينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة

فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى يجوز لمن ليس أهلا للنظر والإجتهاد تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقهم ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات لسنا حريصين على أن تكون دراستنا فى الأزهر لمجرد العلم والتحصيل إنما نحن ندرس للإستيعاب والفهم ثم التطبيق والعمل بكل ما يمكن العمل به وفقه الشيعة مأخوذ ببعض أحكامه فى كثير من القانون عندنا وكثير من علمائنا عمل ببعض أحكام العبادات عندهم ونحن إنما نرجع إلى الكتاب والسنة فمتى لم يخالف الرأى أصلا من الأصول الإسلامية الصحيحة ولم يتعارض مع نص شرعى فلا بأس من تطبيقه والأخذ به وذلك هو التقريب المنشود والتيسير المرجو .

التعاون فى الأصول العامة والإعذار للمخالف فى الفروع : ثم يقول : التعاون فى الأصول العامة والإعذار للمخالف فى الفروعيات وإعادة النظر وفق فقه المرجعيات وفقه الموازنات فى الأمور الخلافية كأعمال بحثية بوسائل سياسية شرعية وبآليات البحث العلمى المعتمدة وضبط الإصطلاحات التاريخية ضبطا بتأصيل وتنظير وتجرد والبعد التام عن قذائف التكفير والتنابز بألقاب مسيئة ونعوت رديئة كالبدعة والفسق وتنحية عوادى السياسة من إشعال العصبيات المذهبية بين المسلمين لمزيد من إلهاء وإضعاف وإنهاك وكراهية وبغضاء .

وختاما يقول : (يا ليت قومى يعلمون) .

الباب التاسع

مفهوم التقدم فى الإسلام

إن كلمة التقدم من الكلمات البارزة التى تكاد تطبع العصر كله بطابعها وهو يعنى دائما نوعا واحدا من التقدم وهو التقدم فى مجالات الحضارة ووسائل العيش وأساليب الحياة والجوانب الإقتصادية والعلمية أى التقدم المادى وحده وهو تقدم مطلق غير محدود يرى أن لا تقف أى حواجز دونه أو أى معوقات فى سبيله وهو يهدف عادة فيما يرمى إليه القائلون بهذا المصطلح ومردوده ما يسمى بالرفاهية ولا شك أن للتقدم قانون أصيل فى تاريخ الإنسان ولكنه لا يقف عند الجانب المادى وحده ولا يفترض الإغضاء عن قيم كثيرة فى سبيل إندفاعه إلى آخر المدى فمفهوم التقدم فى الإسلام يدفع الإنسان دائما إلى الأمام ويؤكد القيم الإنسانية العليا الثابتة معا وأنه لا يضحى بالجانب الروحى فى سبيل المادى ولا يعلى من شأن الجانب المادى وحده أو يفرده بالإهتمام فالتقدم فى مفهوم الإسلام نفسى ومعنوى ومادى وسياسى وإقتصادى وإجتماعى وفى كل مجال التقدم المادى يكون هذا التقدم مشروطا بالقيم الأساسية والأخلاقية بغير إذلال للخلق إيمانا بأن الحوافز المعنوية تعطى التقدم المادى قيما عليا وقد أكدت الأحداث التاريخية والدراسات العلمية أن الإسلام قادر على إعطاء طابع الحركة فى مجال التقدم فى ظل مفهومه الجامع المتكامل .

مفهوم التقدم وإرتباطه بالإسلام

قد أشار إلى مفهوم التقدم وإرتباطه بالإسلام العلامة جوستاف لوبون حين قال : للشباب العربى والمسلم ممن زاره فى منزله بباريس فى أوائل القرن العشرين إن السبب فى إنحطاط الشرق هو تركه روح الدين وتشبهه بالعقائد الباطلة وأن قوة الدين قوة أدبية كما أن الشعب الذى يريد الرقى يجب ألا يقطع الصلة التى تربطه بماضيه وأن العلوم الحديثة لا تفيد المسلمين إلا إذا إقترنت بدينهم ولم تنفصل عنه .

التخلف مصدره إنحراف المسلمين عن الإسلام

إذا وصف المسلمون فى العصور الأخيرة بالتخلف فليس من دليل علمى يؤكد أن الإسلام كان مصدرهذا التخلف بينما هناك عشرات الأدلة العلمية تؤكد على أن هذا

التخلف كان مصدره إنحراف المسلمين عن الإسلام فى مناهج حياتهم الإجتماعية والسياسية والتربوية وغيرها .

جوهر الإسلام يدعوا إلى النهضة والتقدم

إن كل الوقائع تكذب ما يذهب إليه كتاب الإستعمار ودعاة التغريب وخصوم العرب والمسلمين من أن التخلف فى العالم الإسلامى إنما يعود إلى جوهر الإسلام الداعى إلى التقدم والنهضة والذى حين طبق تطبيقا صحيحا بهر الدنيا بما قدم لها آيات العلم والفن وما شكلت حضارته من حياة كانت غاية فى السماحة والحيوية والإنتاج والبناء فى شتى مجالات الحياة .

المسلمون تخلفوا عندما إنحرفوا عن جوهر الإسلام

قد إرتبط تخلف المسلمين تاريخيا بالتخلى عن أصول الإسلام ومفاهيمه والإنحراف عن طابعه وجوهره وإلتماس أساليب وافدة لم تزد المسلمين إلا تأخرا وجمودا .

المسلمون قدموا للإنسانية منهج المعرفة الإسلامية

إن الأسلوب الذى إتخذه قادة المسلمون فى تدبير شئون الدولة وبناء الحضارة من شأنه أن ينقض مزاعم الذين يتحدثون عن جوهر الإسلام دون أن يتعمقوا فى مضامينه الحقيقية التى تدعواإلى التقدم الكامل المعنوى والمادى فقد حمل المسشلمون أمانة العلم والحضارة ألف عام وقدموا إلى الإنسانية منهج المعرفة الإسلامية ذى الجناحين القلب والعقل كما قدموا لها المنهج العلمى التجريبى نواة الحضارة الحديثة.

فصل

الأصالة ومفهومها فى الفكر الإسلامى

مفهوم الأصالة فى الفكر الإسلامى كان دائما بمثابة أساس البناء فالتجدد قوة من القوى التى إعترف بها الإسلام باسم الإجتهاد وجعلها علامة على الحركة واليقظة وجعلها مرتبطة بالأصالة رباط القديم بالحديث والماضى بالحاضر فالأصالة هى ذلك التراث الإسلامى النقى والميراث الحى الذى تشكل عليه الفكر الإسلامى إستمدادا من القرآن والسنة النبوية تفسره وتطبقه ثم نما الفكر الإسلامى حلقة بعد حلقة وعصرا بعد عصر فى ظلال الأصالة لم ينفصل عنها لم ينقطع وإمتدت شراينه على مدى العصور وظل محافظا على أصالته فى أحلك الأزمات وأسوأ فترات الضعف والتخلف وكان القرآن الكريم هو الدم الذى يجرى فى هذه الشرايين لم ينقطع ولم يتوقف فالأصالة فى مفهوم الإسلام تجدد متصل يتجه نحو الكمال يحفظ القيم الأساسية وينميها ثم هو مقاومة لدوافع الإنحراف والتخلف معا فالأصالة ترتبط بالتجدد فى نفس الوقت الذى ترتبط فيه بمقاومة التبعية .

الفكر الإسلامى حين ينفتح على المعاصرة
لا ينسى قيمته وذاتيته

إن الفكر الإسلامى حين ينفتح على المعاصرة لا ينسى قيمته وذاتيته التى لا تذوب ولا تنصهر فى معرض النقل والإقتباس فالأصالة لا تحد من المعاصرة والتجديد ولكنها تعمل على تحرير القيم من التبعية والتقليد ذلك أن أخطار الشعوبية فى تاريخ الإسلام القديم والتغريب فى تاريخه الحديث إنما تحاول أن توسع مجال المعاصرة بحيث تقضى على الأصالة أو تذيب القيم الأصيلة للفكر الإسلامى فى بوتقة الأممية

لقد كان الإسلام فى تاريخه كله قادرا على تحقيق الإلتزام بالعصر والتقدم والتجديد دون أن يفقد الأصالة وليست الأصالة تشبثا بالماضى أو تعصب له وليست هى تقديس التاريخ ولكنها إيمان بالقيم الثابتة وتأكيد الوجود الذاتى ومحافظة على كيان الأمة فى أصالة فكرها .

قضية التجديد ومفهومها فى الفكر الإسلامى.

إن الدعوة الحقة حين تدعوا إلى التجديد لا تفصله عن القديم ولا تعزله عن الماضى بل تجعل الماضى سبيلا إلى الجديد ومن التطور رابطة بين القديم والحديث .

التجديد لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون بين الماضى والحاضر

تجمع المفاهيم العلمية على أن التجديد لا يمكن أن يقوم إلا على أساس تعاون بين الماضى والحاضر حيث يبنى العمل فى حاضره على أساس العمل فى ماضيه وأن التجديد هو إبداع الحى فى آثار الميت ولا شك أن التجديد قانون طبيعى وقانون ثابت فإن لم يكن تجديد فتدهور وإنحطاط وشأنه فى الفكر هو شأنه فى الكائنات الحية يبد أن له أصوله ومقوماته وقواعده التى تقرر بأنه ينفصل عن أرضيته وقاعدته ولا ينقطع عن تطوره الطبيعى .

قيمة القديم فى حفظ الثبات الإجتماعى

لقد أكد الباحثون المنصفون قيمة القديم قال : كارل بيرسون إن من أقوى المؤثرات التى تحفظ الثبات الإجتماعى وتحول دون تخلخله تلك الصفة التى نبغضها صفة الجمود على القديم لا بل نقول : بأن العداء الصارخ الذى تقابل به الجماعات الإنسانية كل الفكرات الجديدة لمن أخص تلك المؤثرات وهذه الصفات هى بمثابة الكور الملتظة نيرانا والتى بدونها لا نستطيع أن نفصل بين المعدن الصحيح والفضلات الزائفة وهى التى تحمى الجسم الإجتماعى من أن يترك معرضا لتغيرات تخريبية فجائية قد تكون غير مفيدة آنا أو بالغة أقصى الضرر آنا آخر .

المحافظة قانون طبيعى وهى تحمى الأمم

أما المحافظة فهى قانون طبيعى وسنة كونية وهى التى تحمى الأمم من آثار الغزو الخارجى وبها إستطاع العرب والمسلمون الصمود فى مهاب الغزو التترى والصليبى والإستعمارى جميعا وهى التى تحمى شخصيات الأمم من أن تزيف أصالتهاأو تمسخ ذاتيتها .

المحافظة أشرف الظواهر فى تاريخ الأمم

لقد كانت ظاهرة المحافظة فى فترة الضعف والتخلف من أشرف الظواهر فى تاريخ الأمم فهى تمثلت فى نوع من الإنطواء على الذات فى مواجهة الأخطار الجائحة فكانت روح المحافظة إذ ذاك نوعا من الدفاع عن الذات وهى التى حفظت للمسلمين والشعوب لغتهم وشريعتهم وتاريخهم ولقد أكد العلماء المنصفون جميعا فى علم التاريخ أن ظاهرة المحافظة التى مرت بالفكر الإسلامى خلال الغزوات التترية والصليبية والإستعمارية هى بمثابة موقف حضارى أصيل مكن من صيانة القيم من الإنحراف والانهيار فى ظل إعصار دخيل يدمر كل شىء .

رفض الإسلام مبدأ التقليد والتبعية

إن التقليد هو المتابعة بغير يقين عقلى أو إقتناع برهانى والمقلد فى مفهوم الفكر الإسلامى لا يعد عالما ذلك أن العلم إنما هو المعرفة الحاصلة عن دليل وقد ذم الإسلام أصحاب الرأى الذى لا يستند إلى دليل وقد رفض الإسلام مبدأ التقليد والتبعية وأكد أن التقليد يمنع الأصالة وأن المعرفة التبعية ليست معرفة حقيقية .

موقف الفكر الإسلامى من التقليد

يقف الفكر الإسلامى من التقليد موقفا واضحا فى كلا مجاليه القديم أو تقليد الوافد تقليد القديم بغير برهان تقليد الوافد الأجنبى بغير ضرورة وكلاهما يجب أن تحرر منهما الأمم التى بلغت مرحلة الرشد الفكرى وتسقط فيهما الأمم الضعيفة وأخطر الأمور أن تدعى الأمم إلى التحرر من تقليد قديمها لتقع فى تقليد الأجنبى عنها وكلاهما يفسد الشخصية والذات ولكل أمة ثقافتها وقيمها ومراجعها النفسى والإجتماعى فلا تحتاج إلى تقليد أمة غيرها فى أسلوب تفكيرها أو تعتنق قيمها ومفاهيمها ولقد كان الفكر الإسلامى منفتحا دوما على ثقافات الأمم دون أن يتخلى عن مقوماته .

التقليد رق قد حذر الإسلام منه الإنسان إلى الأبد

إن التقليد هو آداة الإنحطاط وإن أخص خصائص التقليد هو الإتباع من غير روية ولا فهم والإقتناع لا عن تفكير ولكن عن ثقة السائل بالمسئول والتابع بالمتبوع .

ما ذكره (تارد) فى كتابه قوانين التقليد

قال : إن الفكرة التى لا تتفق مع أفكارنا والتى تصدم فى نفوسنا بعقيدة أو تضاد رغبتنا أو حاجتنا هى فكرة مرفوضة لا نقلدها ففى اللغة لا نقبل الكلمة ولا نحبها إلا إذا إستجابت لحاجة الفكرة وإلا إذا وقعت على ما نعتقده وما نحسه فى نفوسنا والقانون المقبول هو إستجابة لعقائدنا وما سد نقصنا فى حاجتنا .

ما ذكره الدكتور محمد أحمد الغمراوى

إذا كان المسلمون يطلبون النجاة فليطلبوها داخل الإسلام لا فى خارجه وهم يخطئون طريق الرشد إذا قلدوا الغرب فى نظمه الإجتماعية .

فصل

العقيدة الإسلامية وصلاح الجماعة

مما لا شك فيه أن العقيدة الإسلامية كانت المنبع الوحيد للمسلمين الأولين نالوا بها كل خير لجماعتهم ثم حملوا هذا الخير لغيرهم من الشعوب والأقطار التى وصل إليها الإسلام .

العقيدة الإسلامية سببا فى التغيير الإجتماعى والقضاء على الفرقة

وقد كانت العقيدة الإسلامية سببا فى التغيير الإجتماعى الذى حدث فى بيئات سادت فيها الفرقة وإنتشرت بينها الحروب فتحولت بفضلها إلى جماعة متماسكة يربط بينها أخوة الإيمان فقد ترك الإيمان آثارا واضحة فى الحياة الفردية والحياة الإجتماعية فى آن واحد فانعكس ذلك على السلوك المعاشى والإجتماعى .

التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق

لقد جاء الإسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب ويشركه مع العواطف والإحساس فى إرشاد البشر إلى طريق السعادة فى الدارين ويبين لهم ما اختلفوا فيه وبرهن لهم أم دين الله واحد فى جميع الأجيال ومشيئته فى إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة وطالبهم برعاية أجسادهم واصلاح سرائرهم وجعل روح العبادة الإخلاص فى العمل القائم على العلم وقضى بأن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق وشرع لهم شريعته تؤدى إلى سواء السبيل وتنبت بينهم الوفاق .

مبدأ الإسلام الأول هو بداية توحيد الأفراد والجماعات

إن المبدأ الإسلامى الأول لا إله إلا الله هو بداية عملية توحيد الأفراد والجماعات وعلى أساسه تنتظم الروابط المختلفة بين الجماعات تحت رابطة الإسلام وهذا المنهج الإسلامى يختلف اختلافا نوعيا عن غيره من مناهج تدعوا إلى إحتكار بعض أشكال الروابط الإجتماعية مثل روابطة الأسرة ورابطة الوطن ورابطة القومية وتدعوا إلى عالمية طاغوتية أما المنهج الإسلامى فيقدم مشروعا توحيديا شاملا لعدد كبير من الروابط الإجتماعية ويضع لكل منها حدودا وضوابط بحيث يقضى على روح

العصبية الضيقة المحدودة وتفتح المجال لروح التوحد مع الأطر الإجتماعية الأوسع نطاقا وعندما يقال : بأنه لا قومية فى الإسلام أو لا قبلية أو عصبية أو لا عائلية فى الإسلام لا يعنى هذا أن الإسلام ينكر هذه الروابط ويعمل على إلغائها بل يقدم نظاما أحكم للروابط بين الناس فى كافة هذه الأطر على قواعد إسلامية فتقوم الأخوة بين المؤمنين على أساس التقوى والعمل الصالح والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان فالإسلام ينطلق من الإقرا ر بوجود روابط متعددة ولكنه ينظم وجود كل منها ودورها ضمن نظرة توحيدية شاملة ليغنيها ويمنع عنها الإنحراف .

النظرة الشاملة تهدف إلى خلق روح التفاهم والتعاون بين كل الأمم والشعوب

إن النظرة العالمية الشاملة للإسلام لا تهدف إلى إذابة الأقوام والقضاء على هويتهم بل تهدف إلى خلق روح التفاهم والتعاون بين كل الأقوام والشعوب ومن ثم فنظرة الإسلام العالمية الشاملة لا تنكر على إنسان حبه لأهله ووطنه وقومه ولا تنكر عليه القيام بواجب الدفاع عن أهله ووطنه وقومه حين يلحق بهم أذى أو يحيق بهم ظلم فالبشر لا تنتظم حياتهم بلا روابط عائلية ووطنية وقومية ولكن هذه الروابط لا تستقيم إلا فى ظل وحدة أكثر رقيا أو بمعنى أدق فى ظل رابطة الإسلام وطالما كانت الرابطة على أى مستوى فى خدمة الوحدة البشرية وفى خدمة الحق فإنها تكون رابطة إيجابية صالحة .

منهجية الإسلام التوحيدية

إن المنهجية الإسلامية التى تقول : بالتوحيد تهدف إلى تحويل ختلف الجوانب التى يشملها التوحيد إلى أعضاء فاعلة ضمن الوحدة تماما كأعضاء الجسد الواحد بحيث يقوم كل عضو بدوره الفعال الإيجابى الحيوى فى إشباع حاجته من جانب وفى إغناء الوحدة الكلية من جانب آخر وتقوم منهجية الإسلام التوحيدية على رفض الطغيان فى جانب من الجوانب أو تجاوزه لحدوده .

كما تقوم على رفض إلغائه أو التعدى عليه وهذا يؤدى إلى تنظيم العلاقات والروابط ضمن وحدة حية متفاعلة متوازنة يربطها التوحيد ويحضها العدل والحق فى مواجهة التشتت والعزلة .

العقيدة الإسلامية تستند إلى مفهوم الوحدة فى الإصلاح الإنسانى الإجتماعى

قد أشار الأستاذ محمد رشيد رضا فى كتابه الوحى المحمدى إلى ما أسماه الوحدات الثمان وهى وحدة الأمة ووحدة الجنس البشرى ووحدة الدين ووحدة التشريع بالمساواة فى العدل ووحدة الأخوة الروحية والمساواة فى التعبد ووحدة الجنسية الدولية ووحدة القضاء ووحدة اللغة .

وحدة الأمة

نظر الإسلام إلى مفهوم وحدة الأمة بإعتباره الأصل الأول الجامع لكل صور الوحدة فى العقيدة الإسلامية

قال : تعالى (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (الأنبياء 92)

وقد خاطب الله عزوجل جميع الأنبياء بهذه الوحدة

(يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (المؤمنون 51-52)

ولكن كان لكل نبى أمة من الناس هم قومه وأما خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم فأمته جميع الناس

أما الأصل الثانى : وهو وحدة الدين . وتكون هذه الوحدة بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم وهذه الوحدة تتضمن الدعوة إلى التآلف والتعارف وإلى ترك التعادى بالتخالف .

أما الأصل الثالث : وهو وحدة الدين . بإتباع رسول واحد جاء بأصول الدين الفطرى ولكن الإسلام دين حرية الإعتقاد جعل الدين يقوم على الإختيار لا على الإكراه

(لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (البقرة 256)

الأصل الرابع : وحدة التشريع . وذلك بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الإسلام فى الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر والبر والفاجر والغنى والفقير والقوى والضعيف .

الأصل الخامس : الوحدة الدينية . بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين فى أخوته الروحية وعباداته وفى الإجتماع بين الناس فى الصلاة والحج وغيرهما من أمور العبادة والإجتماع .

الأصل السادس : وحدة الجنسية الدولية . بأن تكون جميع البلاد الإسلامية متساوية فى الحقوق العامة .

الأصل السابع : وحدة القضاء . بما فى ذلك مساواة جميع الناس أمامه طبقا للشريعة العادلة إلا أنه يستثنى الأحكام الشخصية الدينية مراعاة لحرية العقيدة وجعل إحتكام غير المسلمين فى أمور الزوجية ونحوها إلى رؤساء ملتهم ويجوز لهم إذا أرادوا الإحتكام إلى الشريعة الإسلامية . وهذا ضرب من التسامح والمساواة ليس له فى غير الإسلام مثيل .

الأصل الثامن : وحدة اللغة . إنه بدون لغة واحدة يصعب تحقيق مصالح البشر على أسس التعاون والتعارف والتآلف بالصورة التى ينشدها الإسلام ومن هنا جعل الإسلام لغة الدين والتشريع والحكم لغة جميع المؤمنين به والخاضعين لشريعته ولذلك تكرر فى القرآن الكريم أنه كتاب عربى وتكرر الأمر بتدبره والتفقه فيه والإتعاظ والتأدب به .

توحيد هذه الأمم والشعوب بتقرير هذه الأصول

إن تقرير هذه الأصول فى العلاقات الإجتماعية يؤدى إلى توحيد الأمم والشعوب ويؤلف بينها ولو تمسك بها المسلمون على الأقل لما وقع بينهم من الشقاق والحروب ما وقع ولما وصلوا إلى هذه الحالة من الضعف العام ولما ظهرت بينهم الشعوبية التى مزقت الأخوة الإسلامية .

منهج العقيدة الإسلامية ينقذ البشرية مما تعانيه من الخواء الروحى

إن منهج العقيدة الإسلامية هو حده الذى ينقذ المجتمعات البشرية مما تعانيه من الخواء الروحى المتعارض مع فطرة البشر فى عصر سادت فيه المتع الحسية بسبب التقدم العلمى والإنجاز الصناعى الذى لم يقابله مماثل فى الجوانب الروحية للإنسان.

الإنحراف عن المنهج الإلهى هو الذى يؤدى إلى الشر والفساد

إن الإنحراف عن المنهج الإلهى هو الذى يقذف بالناس فى آتون محرق من الشر وطوفان من الفساد وأزمات مستعصية فى كل جوانب الحياة نفسية وخلقية وفكرية وسياسية وإقتصادية وإجتماعية ولوعادوا إلى العيش فى ظل عقيدة التوحيد لزال ما يعانوه من شقاء ونكد وفراغ لأن الرجوع إلى الله وحكمه وشرعه يرد كل شىء إلى أصوله الثابتة وقواعده الخيرة وموازينه العادلة بما يتوافق مع فطر الناس التى فطرهم الله عليها وقد قال الله عزوجل (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) .

(الروم 30)

الباب العاشر

مشكلة تخلف العالم الإسلامى

يقول الإمام محمد عبده إننا إذا إستقرينا أحوال المسلمين للبحث عن أسباب الخذلان لا نجد إلا سببا واحدا هو القصور فى التعليم الدينى ذلك لأن البعد الدينى لدى الإنسان يمثل مركز الدائرة فى تكوين الشخصية ومن هنا يمتد تأثيره إلى كل الخطوط التى تصل هذا المركز بمحيط الدائرة إن الدين بالنسبة للإنسان بمثابة الحاسة أوالبوصلة التى لا غنى عنها ولقد كان الإسلام مهمازا للمسلمين يحثهم على جلائل الأعمال ومصباحا لبصائرهم يسترشدون به فى إستعراف الأحوال وتقويم الأفكار وعاطفا يعطف قلوبهم على الأمم بالعفو والرحمة وحسن المعاملة حتى رضيتهم الأرض سادة وقادة لسكانها .

الدين يحقق الإرتقاء المعنوى والمادى

الدين يحقق الإرتقاء المعنوى والمادى : والدين هو الذى يحقق الإرتقاء المعنوى والإرتقاء المعنوى هو الذى يبعث على الإرتقاء المادى والأمم تعلو حضاريا بفضل العقل والعلم ولا تتحضر بدون الدين والأخلاق وتعلو حضاريا بفعل العقل والعلم ولكنها لا تستمر متحضرة بدون الدين والأخلاق .

الدين والعلم مصدر السعادة فى الدنيا والآخرة

إن أعمال الإنسان تصدر عن إرادته وإرادته تنبعث عن آرائه وآراؤه هى نتاج عقيدته وعلمه فالدين والعلم مصدر الأعمال كلها دنيوية وأخروية وسعادة الناس فى دنياهم وأخراهم لا تتحقق إلا بالإيمان والعمل وأن حياة الناس تضيق وتتسع بقدر ما يعلم ويعمل به وإن أقوى شرط فى النجاح قوة العزيمة فيه بأن يصر الإنسان على الفوز بغرضه فإن ضعفت فيه ضاع نجاحه وهذا شأن المسلمين اليوم وإن من أكبر التقوى علو الهمة ومن أكبرها السعى فى مصلحة الأمة ونفع الناس .

المشكلة ليست فى الدين وإنما الفهم الخاطىء للدين وعدم ربط مبادئه وقيمه بقضايا العصر

يؤكد الشيخ الإمام محمد عبده أن المشكلة ليست فى الدين وإنما فى الفهم الخاطىء للدين وعدم ربط مبادئه وقيمه بقضاي العصر لقد إنصرفت الأذهان عن القرآن والسنة وإنحصرت فى كتب الفقهاء على ما فيها من الإختلاف فى الآراء وما تراكم عليها من الخزعبلات والفكر المتخلف الذى إستمر فى الوجود وإكتسب نوعا من القداسة بسبب التقليد بحيث طمست حقيقة الإسلام المشعة البناءة وتعطلت وظيفته الأصلية كمهماز للرقى والتقدم المادى والروحى .

فصل

الحضارة والفرائض الغائبة

نحن نزعم أن مشكلة المسلمين فى عالم اليوم مشكلة حضارية فى المقام الأول فكل الدول الإسلامية التى يشكل سكانها حاليا أكثر من خمس سكان العالم مندرجة تحت عنوان الدول النامية وهذا تعبير مهذب فى وصف الدول المتخلفة بعد أن كانت الأمة الإسلامية قائدة العالم كله فى العصور الوسطى من الناحية الحضارية أما ما يراه المرء هنا أو هناك فى عالمنا الإسلامى المعاصر من قشرة حضارية فهذا لا يعنى التحضر فإذا كان المسلمون يتمتعون فى بلادهم بثمار الحضارة المعاصرة يستهلكون ما تنتجه من وسائل متعددة فإن ذلك يؤكد أن المسلمين قد أصبحوا زبائن دائمين فى سوبر ماركت الآخرين .

أما التحضر الحقيقى فإنه ينبع من الداخل ولا يمكن إستيراده ولا نريد هنا بطبيعة الحال أن نكون متشائمين إلى الحد الذى يجعلنا عاجزين عن إبداع حضارة إسلامية جديدة إنما الهدف هو أن نفتح عيوننا وعقولنا من جديد على قيم الحضارة الإسلامية لتبعث فى نفوسنا الأمل وتغرس فى عقولنا الثقة فى قدرتنا على بناء حضارتنا من جديد حتى لا نظل فى إطار التبعية للآخرين ونحن بذلك لا نحلق فى دنيا الأوهام وإنما نقف على أ رض صلبة من قيم الإسلام الحضارية التى على أساسها أقام المسلمون فى السابق حضارتهم الزاهرة .

المسلمون والحضارة فى عالم اليوم

إن العطاء الحضارى الذى قدمه المسلمون إلى العالم أمر لا ينكره إلا جاهل أو مكابر وقد إعترف العلماء الغربيون المنصفون بفضل الحضارة الإسلامية على الحضارة الغربية وكانت مؤلفات علماء المسلمين التى ترجمت إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى الأوروبية بمثابة الضوء الكاشف الذى أضاء العقول والأفهام فى أوروبا حينذاك وفتح الطريق إلى عصر النهضة التى بدأت أوروبا تتخلص من العقبات التى كانت تعوق حركتها فانطلقت تبنى حضارتها الحديثة فى الوقت الذى بدأت فيه الحضارة الإسلامية تتراجع عن موقعها الريادى فتوقف عطاؤها الحضارى منذ

سقوط الأندلس حتى اليوم وتبدلت المواقف وأصبح المسلمون عالة على غيرهم من الأمم بعد أن كانت لهم الريادة الحضارية فى غابر الزمان وقنعوا حتى اليوم بأن يكونوا مجرد مستهلكين لمنتجات الحضارة الحديثة وهذا واقع مؤلم لا نستطيع إنكاره ولكننا فى الوقت نفسه لا نعمل بما فيه الكفاية للخروج من هذا النفق المظلم وعلينا أن ندرك أن العالم الذى نعيش فيه والذى هو عالمنا جميعا لم يعد فيه مكان للضعفاء ولا للمتواكلين ولن تعد فيه قوة الأمم تقاس بكثرة المال أو العتاد الحربى وإنما بقوة العلم فالذى يملك العلم يملك القوة ويحظى بالإحترام والتقدير ويحسب له الآخرون ألف حساب فهل من سبيل إلى استعادة المسلمين لأمجادهم التى كانت لهم فى يوم من الأيام .

سبب ضعف المسلمون هو الفرقة

كان أكثر ما يؤرق الشيخ رشيد رضا وقادة الاصلاح فى زمنه هو الفرقة التى تحكم علاقة المسلمين ببعضهم فهى سبب الضعف والهوان الذى يعيشونه وهى الذريعة والفرصة التى يتخذها خصوم الإسلام وأعدائه للنيل من المسلمين وهزيمتهم وإغتصاب أرضهم وثرواتهم وحرمانهم من الحرية والإستقلال وقد ألح فى كثير من أعداد مجلة المنار على هذه الناحية مبينا ما آلت إليه أحوال المسلمين فى زمانه على يد أفرادهم وحكامهم وأعدائهم ودعا إلى هبة يقوم بها نفر من علمائها وأصحاب العقول فيها من أجل الوحدة والإتفاق والإعتصام بحبل الله ويعد المنار عنصرا من عناصر الدعوة للعمل للأمة وإصلاحها يقول : الشيخ رشيد رضا فى إفتتاحية السنة التاسعة للمنار إن المسلمين أمسوا كالريش فى مهب الحوادث وكالغثاء فى مجرى سيول الكوارث لا أرى لخواصهم فيما يراد منهم ولا شعور لعوامهم فيما يراد بهم وللأجانب يد فى تصرف حكامنا فى سياستنا ويد فى تصريف أموالنا فى مصلحتهم دون مصلحتنا ويد تطبع الأرواح بأخلاق وعادات تنافى آداب ملتنا وتوقع فى عقائد العقول أفكارا تقوض بناء وحدتنا .

إن لم تستيقظ الأمة من نومها فيستبدلون الإنفصام بالإعتصام

فلن يشعروا بمعنى الأمة

ثم يقول إن لم تستيقظ الأمة من نومها ولم تبعث دولة من موتها إلا بصيحة من أولى الألباب وتستعفى العقول والألباب الذى يغير الله ما فى نفوس أقوامهم بما يلقيه من الحكمة فى ذلاقة ألسنتهم ونفثات أقلامهم فيستبدلون الإنفصام بالإعتصام والشقاق بالإتفاق والفرقة بالوحدة وبذلك يشعر الأفراد بمعنى الأمة ويعملون بالتعاون فيكونوا أمة وما المنار إلا صحيفة أنشئت لتأييد دعاة العلم للأمة والعمل لها سواء منهم من دعا إلى الإصلاح معها ومن يدعو إليه معها ولتكثير سواد الدعاة الذين يتعلمون للأمة ويعملون للأمة .

القضاء على الفرقة وأسبابها بالإبتعاد عن مسائل الخلاف

لذا رأى الشيخ رشيد رضا أن القضاء على الفرقة وأسبابها أمر ممكن من خلال تأليف كتاب يحوى ما إتفقت عليه كلمة المسلمين بكل فرقهم فى المسائل التى تتعلق بصحة الإعتقاد وتهذيب الأخلاق وإحسان العمل والإبتعاد عن مسائل الخلاف بين الطوائف الإسلامية الكبرى كالشيعة وترسل نسخ بعد ذلك من هذا الكتاب إلى جميع البلاد الإسلامية وحث الناس على دراستها والإعتماد عليها كما طالب بتأليف كتب تهدف إلى توحيد الأحكام فيقوم العلماء بوضع هذه الكتب على الأسس المتفق عليها فى جميع المذاهب الإسلامية وتتفق مع مطالب العصر ثم تعرض على سائر علماء المسلمين للإتفاق عليها والتعاون فى نشرها وتطبيق أحكامها .

دسائس أعداء الإسلام لتفريق وحدة الأمة الإسلامية

تحدث القرآن الكريم فى الكثير من آياته عن الحقد والبغضاء والحسد الذى تمتلىء به صدور أعداء هذا الدين مما يدفعهم إلى مواصلة الليل بالنهار فى الكيد له ومحاولة القضاء عليه يقول : تعالى

(وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ) (البقرة 109)

وفى بيان سبب هذا الحسد يقول : تعالى

(وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ) (البقرة 120)

فهذه هى العقيدة وبسببها يدبرون المؤامرة تلو الأخرى بين أبناء هذا الدين بغية الوصول إلى الهدف الذى تحدثت عنه الآية الأخرى فى

قوله : تعالى (وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً) (النساء 89)

وأعداء الدين يعملون كجبهة واحدة يستوى فى ذلك اليهود والنصارى والوثنيون وغيرهم .

بث الفرقة من أهم مؤامراتهم

من بين أهم مؤامراتهم بث الفرقة والشحناء فى إثارة القومية والعنصرية فنشروا أسباب الفرقة والشحناء داخل المجتمعات الإسلامية كما يلى : -

أولا : كانت البداية ترويج الاشاعات الكاذبة . عن تعرض الأقليات غير المسلمة للاضطهاد والتعذيب ودفع هذه الطوائف إلى الثورة وإثارة الفتن والإضطرابات بغية إتاحة الفرصة للتدخل الأجنبى .

ثانيا : تقدم القومية العربية كبديل للوحدة الإسلامية . بزعم أن الدين لا يصلح لوحدة العرب لوجود أقليات غير مسلمة داخل كثير من الدول العربية .

ثالثا : تتمثل فى إحياء العنصرية والشعوبية القديمة . كبعث الفرعونية فى مصر والفينيقية فى بلاد الشام والآشورية فى العراق والفارسية فى إيران والطورانية فى تركيا والبربرية فى بلاد المغرب العربى وذلك بهدف تغليب النزعة الإقليمية المحلية على نزعة الجامعة أو الرابطة الإسلامية الواحدة .

رابعا : إثارة الفتن والقلاقل الطائفية والعنصرية . داخل الوطن أو الإقليم الواحد مثلما حدث ويحدث فى لبنان وجنوب غرب وشرق السودان والجزائر والصومال والعراق وأفغانستان ومن أجل تنفيذ هذه الخطوات كان لا بد من الحفاظ على تفرقة الأمة عن طريق ما يلى :-

أولا : الحفاظ الدائم على الخلاف بين السنة والشيعة . وهذا ما كشفه مؤتمر التنصير عام 1906 والذى عقد فى القاهرة برئاسة صمويل زويمر كبير المنصرين حيث قال

: لنعلم أن الوحدة الإسلامية هى الخطر الأكبر علينا لذلك يجب أن نعمل على تفرقة المسلمين بإثارة الفتن بين السنة والشيعة .

ثانيا : تقسيم الأمة الإسلامية . إلى دويلات صغيرة عام 1917 بعد أن اجتمع أعداء الأمة وعقدوا اتفاقية سايكس بيكون .

ثالثا : فى عام 1924 نجحوا فى القضاء على الرمز الذى يجمع المسلمين تحت راية واحدة ألا وهو الخلافة الإسلامية .

رابعا : تعمد الإستعمار بقاء فتيل النزاع . بين هذه الدويلات قابلا للاشتعال من خلال الصراعات الحدودية بين معظم الأقطار الإسلامية .

خامسا : زرع إسرائيل داخل الجسد الإسلامى . لعزل مسلمى أفريقيا عن مسلمى آسيا ولتكون ركيزة وقاعدة للهيمنة الأمريكية على العالم الإسلامى .

أسباب ضياع المجد

لقد من الله تعالى على المسلمين برسوله صلى الله عليه وسلم فأنقذهم من الكفر إلى الإيمان ومن الجهالة العمياء إلى العلم الذى عرفوا به أنفسهم وربهم إلى بلغوا العزة والمجد والتمكين فى الأرض بحسن الإقتداء به مبلغا وسخر لهم عوالم ملكه وملكوته وأقامهم به مقام الخلفاء عنه سبحانه مجانبين الكفر والضلال والبدع والظلم وأدام لهم هذا المجد والعز بمزيد من فضله حتى لم يبقى على وجه الأرض عز ولا سلطان إلا للقرآن فأصبح العالم أجمع إما أهل ذمة لله ورسوله أو معاهدون لهم لما هذا المجد وإنتشر النور بما أقاموا فيه من الإخلاص لذاته وكانت الأمة الإسلامية إذ ذاك كل فرد منها وجهه إلى الله تعالى عاملا للخير العام غيورا لله على من خالف السنة وكان الحاكم عليها القرآن والسنة ولم يكن يضرهم إذ ذاك تنقل الخلافة من قبيلة لأخرى أو من عربى لتركى لأن الأمة بأجمعها مقبلة على الله عاملة بوصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى فتحت الدنيا فتنافسوها كما تنافسها الأمم السابقة فاضطروا لحبهم الدنيا إلى مخالفة الوصايا الشرعية وإلى تعدى الحدود وصار كل فرد يعمل لنفسه من غير رعاية لأحكام الله ولا رحمة بأخيه ولا خوف من يوم الحساب فتحوا بهذا العمل على أنفسهم بابا من الشرور دعا إليه إرتكاب الآثام والتحاسد فأهملوا إقامة الحدود

وتهاونوا بأحكام القرآن حرصا على الدنيا وبخلا بالأنفاس أن يعمروها بالطاعة فسلط الله بعضهم على بعض فلم يعتبروا فتفرقوا والله تعالى يقول : (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا) (آل عمران 103)

دعاهم التنافس إلى أن صاروا أحزابا وشيعا وتركوا الحق وراء ظهورهم فتركهم الحق ووكلهم إلى أنفسهمووطمع فيهم كل من كان يهابهم وتمكن منهم من كانوا عبيدا لهم وسرعان ما تناسوا هذا المجد وغفلوا عن وسائله التى بها وصلوا إليه وهى العمل بكتاب الله والمحافظة على وصايا رسول الله صلى الله عليه وسلم والإقتداء بهدى أئمة السلف الصالح فانتشرت تلك الأمراض فى جسد المجتمع الإسلامى .

أضاع المجد الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا

قال : الله تعالى (إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ) (الأنعام 159)

معلوم أن الله تعالى أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين فبين للناس بيان الحريص على العالم الرءوف الرحيم بالمؤمنين فلم يتضح لهذا البيان الجلى لأهل الكفر بالله فحزن صلى الله عليه وسلم حتى كادت تذهب نفسه عليهم حسرات من الرحمة بهم فعطف الله عليه حبا ورحمة فقال : سبحانه

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ) (الأنعام 159)

وقال : سبحانه (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (طه 1-2)

وقال : تعالى

(فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا) (الكهف 6)

وكلمة فرقوا قرأها الإمام على رضى الله عنه فارقوا وفرقوا وفارقوا بمعنى واحد

فإن من ترك العمل يشىء من الدين فرقه وفارقه كتارك الصلاة عمدا والمكذب بالقدر فإنه فرق الدين وفارقه وبقى أن نعلم من هم الذين فرقوا دينهم قال : بعض الصحابة هم أهل الكتاب وقال : بعضهم هم أهل البدع والضلال من الأمة فكأن الله تعالى يثبت فى فؤاد حبيبه صلى الله عليه وسلم بهذا الخبر الذى يفيد براءته ممن سبقه من المفارقين الحق وممن كانوا فى عصره ممن فرقوا دينه كالذين قالوا نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ولا خلاف بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسير الآية بأهل الكتاب وغيرهم ممن فارقوا الحق أو المبتدعين المضلين من الأمة فإنه من فسر الآية بأهل الكتابين حكم على أهل البيدع المضلة بالتفرقة وقد روى ابن جرير بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الآية

(إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا) (الأنعام 159)

هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة

إذا تقرر ذلك بمعنى الآية والله أعلم أنها خبر من الله أخبر به نبيه صلى الله عليه وسلمأنه برىء ممن فارق دينه الحق فكانوا فرقا أو شيعا أو فارقه بالردة بعد الإسلام أو بعدم قبول الإسلام وأنه ليس منهم وليسوا منه وهؤلاء هم كل الملل والنحل الذين لم يكونوا على ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه سواء كانوا من الكفار أو من الزنادقة والمبتدعة وملحدة المتفلسفة والشاطحين من المنتسبين كذبا إلى أئمة الهدى كل هؤلاء فرسول الله صلى الله عليه وسلم برىء منهم وأما الكفار بالله فإن لهم لونا واحدا وهو الكفر وقد بين لنا الله عزوجل جلى البيان فيهم ولم يبق إلا أهل البدع المضلة الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعا وهم فى الحقيقة أعوان الشيطان وأنصار الباطل وهم أنواع كثيرة حصروا فى اثنين وسبعين فرقة اختلفوا بحسب توافت جواهر النفوس والشرور وهم الذين فرقوا دينهم فبعضهم عمل بشىء من الدين وترك شيئا أو جعل المرغب فيه فى منزلة الواجب وقام ففرق المجتمع وبعضهم يزيد شيئا من عنده على الدين فيراها أتباعه فوق الفرائض ويجعلونها دينا

ويفارقون الجماعة وبعضهم يكفر المسلمين بترك فضيلة لا تضر ولا تنفع وبعضهم يسمع كلام العلماء فيتأوله من أهل المعرفة بجهالة فيقع فى الكفر من حيث لا يعلم ويتخذ فهمه دينا ويفارق الحق وهؤلاء أضر الخلق على المسلمين .

تنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الحالة التى انتهى إليها الشرق بإزاء الغرب

لقد تنبأ النبى صلى الله عليه وسلم بهذه الحالة التى انتهى إليها الشرق العربى بإزاء الغرب فقال : لأصحابه يوما كيف بكم إذا إجتمع عليكم بنو الأصفر إجتماع الأكلة على القصاع ؟ فقال : عمر رضى الله عنه أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله أم من كثرة ؟ قال : بل من كثرة ولكنكم غثاء كغثاء السيل قد أوهن قلوبكم حب الدنيا فوهن القلب بحب الدنيا على ما ينطوى فى هذه العبارة من المعانى المختلفة هو علة الشرق ولا دواء لهذه العلة غير الأخلاق ولا أخلاق بغير الدين الذى هو عمادها .

الباب الحادى عشر

طريق الوحدة المتكاملة

إن من المسلم به أن الأمة الإسلامية أمـة واحـدة وإن اختلفـت شـعوبا وقبائـل وتباينـت لسانا وألوانا لأن الإسلام الحنيف ربط بين المسـلمين بربـاط أخـوة الـدين التـى تـزول معها جميع الفوارق .

الأخوة الدينية جعلت المجتمع الإسلامى وحدة مؤتلفة

إن من فضل الله سبحانه وتعـالى علـى الأمـة الإسـلامية أن يسـر لهـا طريـق الوحـدة الكاملة والرابطة القوية والتجمع الهائل بما أرسل لها من رسـول رحـيم وبمـا أعطاهـا من كتاب كريم فكانت أخوة المسلمين فوق كـل الحـواجز الجنسـية والعرقيـة والقوميـة والحزبية والسياسية هذه الأخوة ربطت بين المسلمين ووحدت صفوفهم وجعلـتهم أمـة واحدة لأنهم يملكون وحدة الأصل الإنسـانى ووحـدة العقيـدة ووحـدة مصـدر التشـريع ووحدة العبادات ووحدة المبادىء والأخلاق ووحدة الأهداف والغايات والمصير

ويوم أن كانت الـأمة الإسلامية تدرك هذه القيم كان لها شأنها وإعتبارهـا إلا أن الأمـة عاشت ألوانا من الصراع حال دون وحدتها بصورة فاعلة مما كان سببا فى أن تعـدوا عليها أمم تتربص بها تريد الهيمنة عليها ومنعها من أن تـزل قـوة تعلـى كلمـة الله فـى دنيا الناس تمثلت بعـض ألـوان الصـراع فـى التعصـب المـذهبى الأعمـى الـذى فـرق المسلمين طوائف على الرغم من وحدة الأصول بين المـذاهب الكلاميـة والفقهيـة وأن الإختلاف بينهما إختلاف فى مسائل فرعية وقضايا جزئية وهو إخـتلاف لا ينبغـى أن تتمخض عنـه خصـومات وصـراعات لأنـه فـى جـوهره مظهـر مـن مظـاهر الحريـة الفكرية فى الإسلام وآية من آيات صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان .

إسترجاع وحدة المجتمع الإسلامى

لقد مرت أقطار العالم الإسلامى بفترات تاريخيـة طويلـة منـذ مجـىء الإسـلام وحتـى نهاية القرن الماضى وهى تخضع للوحدة السياسية فقد كانت هناك قيادة واحدة ودولـة واحدة للعالم الإسلامى أثناء حكـم الخلفـاء الراشـدين وفـى العصـر الأمـوى والعصـر العباسى الأول حدث إنشقاق فى خلافـة أبـى جعفـر المنصـور ثـانى خلفـاء العباسـيين

حيث إستقل عبد الرحمن الداخل المعروف بصقرقريش بالأندلس وأسس الدولة الأموية فيها وظل بقية العالم الإسلامى الممتد الأرجاء تحت قيادة واحدة ودول إسلامية واحدة هى الدولة العباسية فى القرن الثالث الهجرى عندما نشأت الدويلات الإسلامية التى كانت تحكم ذاتيا تحت القيادة العباسية وعندما إجتاح المغول بقيادة هولاكو بلاد ما وراء النهر وإيران ودخلوا بغداد سنة 656 هجرية 1258 ميلادية سقطت الخلافة العباسية وأسس المغول دولتهم الإسلامية فى الجزء الشرقى من العالم الإسلامى وسيطر المماليك على مصر وفى عام 1561 ميلادية قام السلطان سليم الأول بتوحيد العالم الإسلامى مرة أخرى تحت قياة واحدة ما عدا إيران واستمرت الدولة الإسلامية منذ ذلك التاريخ ولمدة أربعة قرون حينما تفككت وحدة العالم الإسلامى مرة أخرى بعد إنتهاء الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا فى الحرب وبعدها أطبق الإستعمار على بقية العالم الإسلامى ولا شك أن الوحدة السياسية التى جمعت أقطار العالم الإسلامى كان لها أثرها العظيم فى تقدم وتطور الشعوب والمجتمعات الإسلامية مما جعل العالم الإسلامى فى فترات الوحدة أقوى شعوب الأرض آنذاك غير أن هناك وحدة أخرى غير الوحدة السياسية أو وحدة التاريخ أو اللغة وما شابهها كانت تجمع شعوب العالم الإسلامى ومجتمعاته سواء كان هذا العالم متحدا سياسيا أو كان دولا متفرقة هذه الوحدة التى جمعت شعوب ومجتمعات العالم الإسلامى :-

أولا : وحدة القوانين التى تسود فى العالم الإسلامى والمستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية .

ثانيا : وحدة القواعد والنظم الإجتماعية التى كانت تشمل جوانب الحياة الإجتماعية المختلفة . فالحل إذاإسترجاع وحدة المجتمعات الإسلامية ويتمثل فى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وبناء النظم الإجتماعية على أسس إسلامية وقد كانت وحدة المجتمعات الإسلامية سائدة ومسترة طوال التاريخ الإسلامى حتى أواخر القرن الماضى حيث كانت تطبق القوانين المستمدة من أحكام الشريعة الإسلامية فى معظم

المجالات المختلفة ولما إحتل المستعمر البلاد الإسلامية تغيرت النظم الإجتماعية نتيجة الغزو الفكرى الإستعمارى ونتيجة لما قام به المستعمر من تغيير هذه النظم وسوف يؤدى بناء النظم الإجتماعية الإسلامية وتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية وتنقية الثقافة العربية الإسلامية من المفاهيم العلمانية إلى سيادة وسيطرة قيم المجتمع الإسلامى وقوانينه على جميع المجالات السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية وغيرها فى المجتمع الإسلامى .

فصل

إحياء وظائف الحسبة الإسلامية فى مجال العلم والمعرفة

الحق يقضى بأن نقرر أن ثمة وظائف كثيرة تبتدى وتلوح خلف العناية بإحياء الحسبة الإسلامية بهذا المجال .

أولا : وظيفة تحقيق مقاصد الشريعة . إن الدعوة إلى إحياء الحسبة الإسلامية تحقق مقاصد الدين بما أن حفظ العقل أحد هذه الكليات الكبرى وجلى أن شيوع المعلومات المشوهة المغلوطة يمثل ضررا بالغا على مسيرة العقل وقدراته على الإستنباط والإجتهاد وترقية الحياة .

ثانيا : القيام بوظيفة التناصح فى الأمة . ذلك أنه مما كان وأمر به المصطفى صلى الله عليه وسلم التناصح بين الناس فى مستويات حياتهم المختلفة وبين طبقاتهم جميعا.

إحياء الحسبة الإسلامية فى مجال العلم والمعرفة معروف منذ القدم فى أروقة العلم عند المسلمين

لعل أصرح الأمثلة على تطبيقه واعلانه ما ظهر فى أجواء الجدل حول تجريح الرجال وتصحيح الأقوال وعلاقتهما بالغيبة والنميمة ورد العلماء على ذلك بالنفى وإنتفاء العلاقة بينهما قياما بواجب النصيحة لله وكتابه ورسوله صلى الله عليه وسلم لدرجة حملت على التأليف المستقل فى هذا الباب إذ كتب ابن رجب الحنبلى كتابه عن الفرق بين النصيحة والتغيير مقررا أن نقد أخطاء العلماء فيما يتعلق بما يقع منهم فى العلم لا يدخل فى الغيبة ولا فى التغيير يقول : أن ذكر الإنسان بما يكره محرم إذا كان المقصود منه مجرد الذم والعيب فأما إن كان فيه مصلحة لعامة المسلمين وكان المقصود منه تحقيق تلك المنفعة فليس بمحرم بل مندوب إليه وقد قرر علماء الحديث هذا فى كتبهم فى الجرح والتعديل وذكروا الفرق بين جرح الرواة وبين الغيبة وردوا من سوى بينهما من المتعبدين وغيرهم ممن لا يتسع علمه ولا فرق بين الطعن فى رواة حفاظ الحديث ولا التمييز بين من تقبل روايته منهم ومن لا تقبل وبين تبيين أخطاء من أخطأ فى فهم معانى الكتاب والسنة وتأول شيئا منها على غير تأويله وتمسك بما لا يتمسك به ليحذر من الإقتداء به وقد أجمع العلماء على جواز ذلك أيضا

ولهذا تجد فى كتبهم المصنفة فى أنواع العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه وإختلاف العلماء وغير ذلك ممتلئة من المناظرات ورد أقوال من تضعف أقواله من أئمة السلف والخلف من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ولم يترك أحدا من أهل العلم ولا إدعى فيه طعنا على من رد عليه قوله ولا ذما ولا نقصا ولقد أطلنا فى هذا النقل لندلل على عمق وضوح آثار العمل بالحسبة الإسلامية فى مجال العلم والمعرفة تحقيقا لوظيفة النصيحة لله تعالى ولكتابه الكريم ولنبيه صلى الله عليه وسلم .

ثالثا : القيام بواجب الأمانة والمسئولية الفردية العلمية . والأمر الذى يتصل بالوظيفة السابقة لكن من جانب تعبدى فردى يقوم به صاحبه قياما بالواجب فى حق نفسه ذلك أن من رأى فى نفسه قدرة على شيء لزمه الوفاء به دينا وأمانة وتعبدا لله تعالى ولا سيما أن العلماء فى التصور الإسلامى يلزمهم عهد بتبيين العلم .

رابعا : تطوير المعرفة والإرتقاء بالحياة العلمية قياما بأمانة العلم . وقد إستقر أن العلم يزكوا بالسجال والمناقشة والإختلاف والتحليل وفتح باب القول فى المسائل من جهاتها المختلفة فضلا عن أن تطوير أدوات البحث رهن فى بعض جوانبها بتقدمه فى النقد والمتابعة والإستدراك وغير ذلك وهذه الوظيفة مهمة جدا نظرا لعائدها على تجديد العلوم وتنقيتها وإثبات حقوق المؤلفين إلى غير ذلك من الكشف عن السرقات فى هذا المجال .

خامسا : الخوف من الوقوع فى إثم كتمان العلم : فلقد تواتر فى الشريعة التشديد على منع كتمان العلم وتأثيم من يكتم العلم بما يترتب عليه من إلجام فاعل ذلك بلجام من نار فكان ظهور تطبيقات الحسبة الإسلامية فى مجال العلم والمعرفة طلبا للنجاة والطهرة من إثم كتمان العلم وعدم تنبيه الناس صحيح أن هذه الوظيفة تمثل دافعا محركا للعناية بها لكنها أيضا وظيفة تتحقق بها لأن الله عزوجل بما أودعه فى هذه الديانة الشريفة من خصائص ذاتية قادرة على تجديد مسيرتها ومحاصرة عمل الغالين فيها والإثابة على جهاد المجتهدين فى ميدان خدمة العلم والمعرفة فى أروقتها إلتزاما بالأمر بالمعروف ودعمه فى مجال العلم وإلتزاما بالنهى عن المنكر والقضاء عليه فى المجال نفسه .

إن الإسلام العظيم يملك قدرة هائلة على تجديد مسيرة المنجز العلمى وتكميلها وتصحيحها .

ضرورة إحياء الفكر المقاصدى وتفعيله

فى رعاية الفكر المقاصدى وتفعيله آثارا وفوائد بالغة الأهمية والدقة ونذكر منها ما يلى : -

أولا : رعاية المقاصد تضبط الرؤية وتقوم الإختيارات . لا يمكن لراعى المقاصد وملاحظتها أن يختار إختيارا خطأ أو يستمر مع إختيار خطأ إن وقع دون تصحيح وتقويم بحيث يستقيم الإختيار مع الهدف الموجود والمقصد المرصود لأن ملاحظة المقصد تصحح إستخدام الوسائل وترشد الإختيارات وتقوم الرؤية وتضبطها .

ثانيا : رعاية المقاصد توحد الصف وتسرع فى تحقيق النتائج . ومن الفوائد المهمة فى تحكيم المقاصد فى كل واقع وكل فكرة وكل عمل ونشاط أنها توحد الصف الدعوى والعملى لأننا متى إتفقنا على الهدف فلن يكون بيننا خلاف إذ غياب الهدف أو المقصد يحل محله النزاع والخلاف وسعة الفجوة والهوة بين التيارات ويحل محل الهدف الأهواء الشخصية والمآرب الحزبية والمصالح الذاتية والفتنة الطائفية ويدور كل فريق حول تحقيق مصالحه الخاصة دون إعتبار للمصلحة العامة التى يجب أن تقدم وتصدر ويكون لها الإهتمام وعليها التركيز بعيدا عن تحقيق المآرب الشخصية وإتباع الهوى كما أن من شأن إسحضار الغايات والمقاصد دائما أن يعمل على تحقيق النتائج والأهداف المرصدة بأقل جهد وأقل تكلفة وأسرع وقت إذ الذى يغيب عنه هدفه يتخبط هنا وهناك ويصبح فريسة لسبل الشيطان وطرق الأبالسة من الجن والإنس ويضل ضلالا بعيدا وقد قال : الله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) (الأنعام 153)

وعن عبد الله بن مسعود قال : " خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا ثم قال : هذا سبيل الله ثم خط خطوطا عن يمينه وعن شماله ثم قال : هذه سبل متفرقة على كل

سبيل منها شيطان يدعوا إليه ثم قرأ (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام 153)

ثالثا : رعاية المقاصد تحفظ النسيج الإجتماعى . من أهم الفوائد التى تتحقق برعاية المقاصد أنها تعمل على حفظ النسيج الوطنى الإجتماعى من التحلل والتفسخ والإهتراء إذ أن تحكيم الأهداف العليا والمقاصد الكبرى التأسيسية يحفظ من التنازع كما أنه يقضى على النعرات الطائفية وهذه النعرات هى الحالقة لا أقول تحلق الشعر ولكن تحلق المجتمع وتهدد إستقراره وتبدد سلامته ويحل التنازع والفرقة والخلاف والتشرذم محل التفاهم والتعاون والوحدة .

رابعا : رعاية المقاصد تعين على التحديد الصحيح المآل . من الأمور بالغة الأهمية فى تصرفاتنا جميعا أن نراعى المآل الذى سيؤول إليه الفعل أو التصرف فكم من مصيبة حدثت وكان سببها عدم رعاية المآل وكم من أرواح أزهقت ودماء سالت وجراح جرحت لو راعينا مآل فعلنا أو نتيجة تصرفاتنا لما وصل الحال إلى ما وصل إليه ولهذا فإنه من الذكاء وتمام الحكمة أن ننظر إلى مآل الفعل قبل إختياره والتلبس به .

ما ذكره الإمام الشاطبى لخطورة المآلات وأهمية اعتبارها

لقد تنبه الإمام الشاطبى لذلك فقال : فى كلام مفصل منضبط النظر فى مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعا سواء كانت الأفعال موافقة أو مخالفة وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين باللإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل فقد يكون مشروعا لمصلحة فيه تستجلب أو لمفسدة تدرأ ولكن له مآلا على خلاف ما قصد فيه وقد يكون غير مشروع لمفسدة تنشأ عنه أو مصلحة تندفع به ولكن له مآلا على خلاف ذلك فإذا أطلق القول فى الأول بالمشروعية فربما أدى إستجلاب المصلحة فيه إلى مفسدة تساوى المصلحة أو تزيد عليها فيكون هذا مانعا من إطلاق القول بالمشروعية وكذلك إذا أطلق القول فى الثانى بعد المشروعية ربما أدى إستدفاع المفسدة إلى مفسدة تساوى أو تزيد فلا يصح القول بعدم

المشروعية وهو مجال للمجتهد صعب المورد إلا أنه عذب المذاق محمود الغب جار على مقاصد الشريعة .

خامسا : رعاية المقاصد تضبط الموازنة بين المصالح والمفاسد . ليس الفقيه من عرف المفسدة من المصلحة وإنما الفقيه هنا من جلب أعظم المصلحتين بتفويت أدناها ودفع أكبر المفسدتين بإرتكاب أخفهما ومن الفوائد المهمة التى نستثمرها من تفعيل المقاصد أنها تضبط الموازنة فى الإختيار بين المصالح بعضها وبعض وبين المفاسد بعضها وبعض فتحكيم المقاصد ورعايتها فى التفكير والحركة والإختيار يمكننا أن نختار المصلحة ونرفض المفسدة ونختار أعظم المصلحتين وهذا ما تواتر القول به فى ضوء فهم نصوص القرآن الكريم والسنة الشريفة عند العلماء الذين أفاضوا فى الحديث عن هذا مثل ابن تيمية وابن القيم وابن عبد السلام والشاطبى وغيرهم .

سادسا : رعاية المقاصد تحدد الأولويات ما يقدم وما يؤخر . لكل واقع أولوياته ولكل مؤسسة وكيان وهيئة ما يجب أن يقدم وما يجب أن يؤخر وأن الناظر فى أحكام الإسلام وفى كل مجالاته وأبوابه الفقهية والخلقية والعقيدية يجد فيها الأهم والمهم والواجب والفرض والمندوب والمستحب والمكروه والمحرم وهكذا ولقد قرر القرآن الكريم أن الأعمال ليست سواء وجعل النبى صلى الله عليه وسلم الإيمان شعب منها أعلى ومنها أدنى فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم " الإيمان بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء من شعب الإيمان " رواه مسلم

ومن الفوائد الجليلة التى تؤديها رعاية المقاصد فى كل عمل وكل قول أنها تضبط مسار إختيار الأولويات فقد تختلف على تصرف أو عمل ما فى واقع معين أنه الأولى الآن أو هو واجب الوقت ولكن حين نستحضر المقاصد ونستدعى الغايات ينضبط الميزان وتصح الموازنة ونختار التصرف الأولى وفق التصور المقاصدى الذى يرشحه الواقع ويضبطه الشرع .

فصل

دور المثقفون والوعى بمصالح الأمة

إن سؤالا من قبيل ؟ ما المطلوب على وجه التحديد من المثقفين الآن فى المجتمعات العربية الإسلامية ؟ إنه من الأهمية بمكان فى هذه الإنعطافة التاريخية التى تمر بها أمتنا وشعوبنا العربية أجل فهذا السؤال يهمنا كثيرا فى هذه المرحلة توسيع الهوة وتعميق الفجوة من شأنه تعطيل الحراك الصحيح المرتبط بالنهوض .

أثبت الواقع والتجربة أن توسيع الهوة وتعميق الفجوة بين المثقفين وأهل الرأى والقرار ما هو إلا صورة من صور الإستنزاف الذاتى الذى من شأنه تعطيل الحراك الصحيح المرتبط برغبة النهوض والتعيير الإيجابى على كافة الأصعدة ولا يعنى هذا بطبيعة الحال علق أبواب الحوار أو مصادرة حق الإختلاف فهذا ما لا يقول به عاقل أبدا وإنما المقصود أن تتوفر إرادة قوية مدعمة بعوامل النجاح تعمل على رصد العلامات والقواصم المشتركة بين التيارات الفكرية وإستثمارها على مستوى كل قطر لتعزيز الوحدة الوطنية وتفعيل مكونات الوئام والسلم الإجتماعى إنه بعد تراجع بريق الأفكار الغربية المعاصرة ثم ظهور العولمة مبشرة بمجموعة من النهايات ومنها نهاية التاريخ التى قال عنها المبشر اليابانى المتأمرك فوكوياما إلى جانب بروز نزعة التحالف والتكامل على أساس مصلحى يروم حفظ مصالح ورغائب الإنسان الغربى ومكتسبات الحضارة الغربية كأولوية عاجلة وثابتة يقول : فإنه بالمقابل من الواجب على مثقفى العالم العربى الإسلامة تقديم مصلحة المنطقة وشعوبها ومستقبلها وطموحاتها وتطلعاتها وهذا يقضى فتح المزيد من قنوات الحوار وتبادل الآراء بين النخب المثقفة الواعية المستوعبة للمتغيرات والتفاعلات الحضارية والفكرية والسياسية من أجل تفعيل العمل لتقريب الآراء ووجهات النظر ووضع قواعد موضوعية ومناخ ملائم يسمح للنخبة التى تعيش حالة من حالات الإغتراب الثقافى والإلحاق الفكرى بالآخر الحضارى بالتراجع عن تلك التوجيهات ومراجعة تلك المنطلقات والعمل على ترسيخ القناعات المفيدة والمؤدية إلى وضوح الرؤية وتصحيح المسار والمحافظة على مكاسب ومصالح أمتنا لأن واجب أهل

الأدب والفكر كما يقول : الدكتور محمد جابر الأنصارى فى مقال له بعنوان - أين يقف فكرنا وأين وصل واقعنا قائم على الحقائق الثابتة والقيم الراسخة والنظرات البعيدة والمواقف المبدئية ومسئولية الأديب والمفكر الأخلاقية والمعنوية أكبر وبما لا يقاس من مسؤولية السياسى فالناس أحيانا يتفهمون إنحناءة السياسى للظروف الوقتية من أجل تغيير الأمر الواقع مستقبلا لكنهم ينظرون للأديب والمفكر على أنه موقف أخلاقى وضميرى وفكرى وتاريخى قبل كل شىء فمقتضى هذا الكلام أن النخب أو الأنتلجنسيا فى العالم العربى والإسلامى عليها أن تبلور رؤية جديدة للتقارب والتفاهم وتقليص مساحات الإختلاف والتنافر والتباغض ولا شك أن رسم هذا الإطار والإلتزام بقواعده ومقرراته يتيح الحرية ولا يحجر على الرأى والنظر لكنه لا يجعل حرية التعبير والإبداع بابا للصراع وإستنزاف الطاقة الذاتية للأمة وقواها المذخورة فى إهابها أو داخل كيانها الكبير وبطبيعة الحال فإن هذا لا يعنى بحال إقرار الموقف أو الجوانب السلبية سواء فى تراثنا الفكرى أو فى واقعنا الماثل المعيش فهذا مما لا ينبغى أن يخطر على بال إنما المقصود وضع إطار عام أو خطة منهجية لتخفيف الفجوة والإختلاف بين التيارات الفكرية فى الساحة الثقافية العربية والإسلامية

إن عملا كهذا بات ملحا اليوم فى عصر التكلات أو التقاربات المصلحية أو المبدئية على حد سواء وأضحى يفرض نفسه فى واقعنا بكل آفاقه الثقافية والفكرية والسياسية والإقتصادية والإعلامية ونحوها .

نهوض هذه الأمة وتطور واقعها لا بد أن ينبثق من تاريخها وثقافتها

إن كل محاولة أو مبادرة جادة تستهدف إنهاض الأمة وتطوير واقعها إلى ما هو أفضل وأجدى لا بد أن تنبثق من تاريخ هذه الأمة ومن مرجعيتها الثقافية المتنوعة المكونة لهويتها وأصالتها لأن ترابط وحدات الزمن فى حياة الأمم يشترط فى كل محاولة نهوض أن يمتلك آصرة فاعلة وقادرة على ربط الحاضر بالماضى ووصل الراهن بالسابق ببصيرة ووعى لكنه وعى إستثنائى منسب للخطة الحضارية والزمنية الإستثنائية ولعله من حسن الطالع والحظ أن الواعين الحقيقيين من أبناء

أمتنا الكبيرة يدركون تماما قيمة ووزن هذه الخطوة الحضارية لأنهم على دراية بمراميها ومقاصدها البعيدة .

إن الحق ليس الشمعة التى تضيئك من الداخل فحسب بل هو أيضا الشعاع الذى تبصر عليه مسارك فى الحياة . **وليس** هناك أولى من المثقف بالإهتداء إلى الحق والرشد من أجل الإرتقاء بالأمة إلى المكانة والعزة التى تستحقها .

دعوة لمعالجة الخلاف الذى تعانى منه الأمة الإسلامية

دعوة لمعالجة الخلاف الذى تعانى منه الأمة الإسلامية : ولمعالجة ما تعانى منه الأمة الإسلامية الآن من خلاف فإننا ندعوا : -

أولا : السعى إلى العمل بما أورده الإمام أبو العزائم فى كتابه أصول الوصول .وهو أن نعتقد تفضيل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته رضى الله عنهم ورضوا عنه كافة وأن نسكت عما شجر بينهم وننشر محاسنهم وفضائلهم لتأتلف القلوب بذلك ونسلم لكل واحد ما فعله لأنهم أوفر وأعلى عقولا منا فقد عمل كل واحد بعلمه ومنتهى عقله فيما أدى إليه إجتهاده ولنفوض الأمور كلها إلى الله تعالى

(تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

(البقرة 134) .

فنحن بشر ومهما دققنا فى الأمر فلن نستطيع أن نصل للحقيقة والعدالة المطلقة والله أدرى بعباده ولنعمل بمقتضى قول الله تعالى (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (الحشر 10)

ثانيا : التفكير بمنطقية فى الأحداث ليتبين لنا مدى صحتها من عدمه . ومثل هذا نقل فعله عن الدكتور محمد حسين هيكل فى موضوع أسطورة عروس النيل فى كتابه الفاروق عمر والأسطورة تقول : إن أهل مصر كانوا يرمون فتاة عذراء بكامل زينتها فى نهر النيل وذلك تقربا للنهر طالبين منه الفيضان ليعم الخير وقد فند

الدكتور هذه الأسطورة مستعينا بعالم أثرى ووجد الحقيقة التى توافق المنطق وفصلها عن الخيال وكان لبحثه بالغ الأثر فى شطب هذه الأسطورة من كتب التدريس فى خمسينيات القرن الماضى .

ثالثا : نناشد أهل الإختصاص من عقلاء الأمة وعلمائها شيعة وسنة .بإعادة النظر فى بعض ما ورد فى كتب التاريخ فكثير من كتب التاريخ التى وصلت إلينا لم تكن بالدقة المطلوبة والعديد من الوقائع حرفت بسبب المصلحة فقد تدخلت السياسة فيما دون من أحداث تاريخية وتفننت فى كيفية المحافظة على الملك وصيغت بعض الأحداث بما يناسب أهواء المصالح لتلك السياسات التى كانت توجه الكتاب والمؤرخين عن طريق الترغيب أو الترهيب فيما يتناسب مع اتجاهاتها والتاريخ عادة ما يكتبه الذين بيدهم مقاليد أمور الدولة بما يناسب مصالحهم وأهوائهم وقد يصير ذلك أمرا مسلما به بين الناس بعد ذلك وأضرب لذلك مثلا : -

الشائع عند الناس أن الخلفاء الراشدين أربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلى والحقيقة أنهم خمسة وخامسهم الإمام الحسن بن على الذى بويع بالخلافة بعد والده الإمام على وإكتملت بخلافته ثلاثون سنة تماما مدة الخلافة الراشدة التى أخبر عنها النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تكون ملكا .

رواه الإمام أحمد وغيره

وهذا لا ينفى أن كتب التاريخ مادة عزيزيزة جديرة بالبحث والدرس فإذا أتيح لهذه التركة نخبة من أصحاب العقول الناضجة يتدارسون الأمر فيما بينهم فستدرك مواطن الضعف والقوة فى هذه المراجع وتنفى زيادات الهوى ورواسب الغرض ويتفقون على إطار يسع الجميع وبعد ذلك يعلنون ما إتفقوا عليه على عامة الناس وتوضح الآليات المنسبة لنشره وبث ثقافة الأخذ به وتطبيقه وهذا بلا شك يساعد على رأب الصدع ولم الشمل وهو خطوة هامة لنحقيق الوحدة الإسلامية الشاملة والتصدى لأعداء الأمة الخارجين الذين يتربصون بنا الدوائر ويستهدفونها جميعا لا فرق عندهم بين شيعى وسنى أو سلفى وصوفى أو جماعات أو إخوان ورحم الله الدكتور عبد

الودود شلبى الذى ألف كتابا بعنوان إلى من يهمه أمر هذه الأمـة مـن ملـوك ورؤسـاء وأئمة كلنا أخوة شيعة وسنة .

فصل

الواجب على الأمة اليوم

إن الحياة تتطلب من الأمة الإسلامية أن تطعم التاريخ خبر الشهادة والإستشهاد وأن تغرس أقدامها فى طريق السؤدد والمجد وأن تربى الأجيال على الإعتزاز بالعقيدة وحب الخير والإصلاح والصلاح ولهذا كان لا بد من إتجاه الأمة إلى تربية الأجيال تربية إسلامية تتولى المسئولية والإدارة تربية تجعل الإنسان إيجابيا يعيش فى حركة فكرية ونفسية وجسدية بناءة بعيدا عن السلوك التخريبى رافضا التحجر والجمود لا يرضى بالسلوك الإنسحابى الذى يتهرب من نشاطات الحياة ويبتعد عن مواجهة الصعاب تربية تؤهل الإنسان للعطاء تنمى فيه القدرة على الإنتاج والإبداع ويخطط أبعادها الإسلام لأن الحياة فى الإسلام ونظره عمل وبناء وعطاء وتنافس فى الخيرات تربية تجعل الشخصية الإسلامية شخصية متزنة لا يطغى على موقفها الإنفعال ولا يسيطر عليها التفكير المادى ولا الإنحراف الفكرى المتأتى من سيول العقل وإمتداد اللا معقول تربية تبنى الإنسان على أساس وحدة فكرية وسلوكية وعاطفية متماسكة على أساس من التنسيق والتوافق الفكرى والعاطفى والسلوكى المنتظم الذى لا يعرف التناقض ولا الشذوذ تربية تجعل المسلم يشعر دوما أنه مسئول عن الإصلاح وأنه يجب عليه أن ينهض بمسئوليته ويقودها نحو شاطىء العدل والسلام وإن أمتنا تتطلع إلى غد مشرق والتطلع يحتاج إلى علم وعمل وجهود بناءة تكون علامات مضيئة فى الطريق .

لا نهوض للأمة الإسلامية بغير الدين

إن نهضة الأمة الإسلامية لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان الدين الإسلامى واللغة العربية وما الإسلام فى حقيقته إلا مجموعة أخلاق قوية ترمى إلى شد المجموع من كل جهة وإذا كان لا بد للأمة فى نهضتها من أن تغير فإن رجوعنا إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة أعظم ما يصلح لنا من التغيير وما نصلح به منه فلقد بعد ما بيننا وبين بعضها وانقطع ما بيننا وبين البعض الآخر وإذا أخذنا فى أسباب القوة وإصطنعنا الأخلاق المتينة من الإرادة والإقدام والحمية

وإذا جعلنا لنا صبغة قوية خاصة تميزنا من سوانا وتدل على أننا روح وخلق .
إذا كان ذلك كله فلعمرى أى ضمير فى ذلك كله وهل تلك إلا الأخلاق الإسلامية الصحيحة وهل فى الأرض نهضة ثابتة يقوم على غيرها إن من خصائص هذا الدين الأخلاقى أنه صلب فيما لا بد للنفس الإنسانية منه إذا أرادت الكمال الإنسانى ولكنه مرن فيما لا بد منه لأحوال الأزمنة المختلفة مما لا يأتى على أصول الأخلاق الكريمة وليس يخفى أنه لا يغنى غناء الدين شىء فى نهضة الأمة الشرقية خاصة فهو وحدة الأصل الراسخ فى الدماء والأعصاب ومتى نهض المسلمون وهم مادة الشرق نهضوا إخوانهم فى الوطن والمنفعة والعادة من أهل الملل الأخرى ولما كان المسلمون إخوة بنص الدين وكانت مبادئهم واحدة ومنافعهم واحدة وكتابهم واحد فلا - جرم كان من السهل لو رجعوا إلى أخلاق دينهم وإنتبذوا ما يصدهم عن أن يؤلفوا من الشرق كله دولا متحدة يحسب لها الغرب حسابا .

الإتحاد فيه سعادة المجتمع والأفراد وتحصيل الخير العام

الإتحاد فيه سعادة المجتمع والأفراد وتحصيل الخير العام : بالإتحاد يعود المجد ويقهر الضد وبالإتحاد سعادة المجتمع والأفراد وتحصيل الخير العام وحفظه إلى أبد الآباد وليس بيننا وبين الإتحاد إلا أن نتذكر والذكرى تنفع المؤمنين ولنعلم مضار التفرقة فنكره حظوظنا وأهواءنا وملاذنا التى تدعوا إلى التفرقة ونكون جسدا واحدا يعمل كل فرد منا لخير المجتمع بقدر نفسه كما يعمل كل عضو لخير الجسد وللجسد قلب ورأس وجذع وأطراف ولكل عضو عمل خاص به ومتى تفرقت الأعضاء هلك الجسد وأعضاؤه فالأعضاء تنفع الجسد والجسد ينفعها وأكبر الجهاد جهاد النفس ومن قهرته نفسه أن يجاهدها كيف يجاهد غيرها وقد لاح للأبصار وميض برق الإتحاد فقوى الأمل وآن وقت العمل والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

الدين هو حقيقة الخلق الإجتماعى فى الأمة وهو من

أقوى الوسائل فى إيقاظ ضمير الأمة

الدين هو حقيقة الخلق الإجتماعى فى الأمة وهو الذى يجعل القلوب كلها طبقة واحدة على إختلاف المظاهر الإجتماعية عالية ونازلة وما بينهما فهو بذلك الضمير القانونى

للشعب وبه لا بغيره ثبات الأمة على فضائلها النفسية وفيه لا فى سواه معنى إنسانية القلب .

الرسالات الإلهية من أولى صورها إلى آخرها

رسالة إنسانية

هدف الإسلام هو الإنسانية فى أدق معانيها فى ذات الفرد وفى علاقة الأفراد بعضهم البعض والرسالة الإلهية من أولى صورها إلى آخرها هى رسالة إنسانية وبالتالى هى رسالة إجتماعية إنسانية على معنى أنها تدعوا لتحقيق الخصائص الإنسانية من العدل والرحمة والتضامن والتعاون والأخوة المشتركة فى الخير والمساركة فى دفع الضرر .

الحب والأخوة

إن الشعور بالتساوى فى الخصائص الإنسانية والقيمة الإعتبار تبعث فى نفوس الأفراد شعورا إستطاعة التفاهم وتبادل الرأى واحتمال اللقاء كما تبعث فيها وجها آخر هو شعورا بعدم وجود عقبات فى العلاقات بين بعضهم بعضا وبأن طريق العلاقات طريق مفتوح خال من الحجب والفواصل وإذا إستقر فى النفوس الشعور بإستطاعة التفاهم وتبادل الرأى بناء على الشعور بالمساواة فى القيمة والإعتبار فإن من نتائج ذلك التواد والتحاب والتآخى والإسلام عندما يؤكد فى رسالته أن طابع هذه الرسلة طابع إجتماعى يقوم على تقوية الأواصر بين الأفراد الذين يتكون منهم مجموع المسلمين بعد تصفية نفوس هؤلاء الأفراد وتحريرها من سلطان الهوى وتحكم الأنانية عندما يؤكد ذلك وهو يوصى فى تعاليمه بالتواد والتعاون ثم بالمحبة ثم الأخوة قيام المجتمع الإنسانى يتطلب إذا وعيا خاصا بضرورة الإجتماع كما يتطلب ترابطا على أساس من تحقيق الهدف المشترك الذى يجب أن يسعى إليه جميع الأفراد والمجتمعات المترابطين ثم بقاؤه بعد ذلك يقضى ظاهرة أخرى وهى ظاهرة التعاون بين الأفراد والمجتمعات فلا يكفى فى إستمرار قيام المجتمع أن يتعاهد جملة من الأفراد فى موطن ما أو فى ظروف معينة متشابهة ما لم يترابطوا فيما بينهم لتحقيق هدف واحد مشترك نظرا لرباط الموطن أو رباط الظروف المتشابهة بل لا من أن

يتعاونوا بعضهم مع بعض تعاونا عمليا يعبر عن هذا الترابط الذى قام بينهم ولهذا كان الدين من أقوى الوسائل التى يعول عليها فى إيقظ ضمير الأمة وتنبيه روحها وإهتياج خيالها إذ فيه أعظم السلطة التى لها وحدها قوة الغلبة على الماديات فسلطان الدين هو سلطان كل فرد على ذاته وطبيعته ومتى قوى هذا السلطان فى شعب كان حميا أبيا لا ترغمه قوة ولا يعنو للقهر ولولا التدين بالشريعة لما إستقامت الطاعة للقانون فى النفس ولولا الطاعة النفسية للقوانين لما إنتظمت أمة فليس عمل الدين إلا تحديد مكان الحى فى فضائل الحياة وتعيين تبعة حقوقها وواجباتها ذلك كله نظاما مستقرا فيه لا يتغير ودفع الإنسان بهذا النظام نحو الأكمل ودائما نحو الأكمل وكل أمة ضعف الدين فيها إختلت هندستها الإجتماعية وماج بعضها فى بعض فإن من دقق الحكمة فى هذا الدين أنه لم يجعل الغاية الأخيرة من الحياة غاية فى هذه الأرض وذلك لتنتظم الغايات الأرضية فى الناس فلا يأكل بعضهم بعضا فيغتنى الغنى وهو آمن ويفتقر الفقير وهوقانع ويكون ثواب الأعلى فى أن يعود على الأسفل بالمبرة وثواب الأسفل فى أن يصبر على ترك الأعلى فى منزلته ثم ينصرف الجميع بفضائلهم إلى تحقيق الغاية الإلهية الواحدة التى لا يكبر عليها كبير ولا يصغر عنها صغير وهى الحق والصلاح والخير والتعاون على البر والتقوى وما دام عمل الدين ؟ هو تكوين الخلق الثابت الدائب فى عمله المعتز بقوته المطمئن إلى صبره النافر من الضعف الأبى على الذل الكافر بالإستعباد المؤمن بالموت فى المدافعة عن حوزته المجزى بتساميه وبذله وعطفه وإيثاره ومفاداته العامل فى مصلحة الجماعة المقيد فى منافعه بواجباته نحو الناس ما دام عمل الدين هو تكوين هذا الخلق فيكون الدين فى حقيقته هو جعل الحس بالشريعة أقوى من الحس بالمادة ولعمرى ما يجد الإستقلال قوة هى أقوى له ؟ وأرد عليه من هذا المعنى إذا تقرر فى نفوس الأمة وإنطبعت عليه وهذه الأمة الدينية التى يكون واجبها أن تشرق وتسود وتعتز يكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط ولا تخضع ولا تذل وبتلك الأصول العظيمة التى ينشئها الدين الصحيح القوى فى النفس يتهيأ النجاح السياسى للشعب المحافظ عليه المنتصر له إذ يكون من الخلال الطبيعية فى زعمائه ورجاله الثبات على النزعة

السياسية والصلابة فى الحق والإيمان بمجد العمل وتغليب ذلك على الأحوال المادية التى تعترض ذا الرأى لتفتنه عن رأيه ومذهبه فى مال أو جاه أو منصب أو موافقة الهوى أو خشية النقمة أو خوف الوعيد إلى غيرها من كل ما يستميل الباطل أو يرهب به الظلم وباللغة العربية والدين والعادات يتحضر الشعب فى ذاته السامية بخصائصها ومقوماتها فلا يسهل إنتزاعه منها ولا إنتساقه من تاريخه وإذا ألجىء إلى حال من القهر لم ينخذل ولم يتضعضع وإستمر يعمل ما تعمله الشوكة الحادة إن لم تترك لنفسها لم تعط من نفسها إلا الوخز .

أمة الإسلام وعالم الخير

إن الإسلام دعوة إلى إزالة العوائق من طريق الإنسانية والمجتمعات والإسلام يدعوا إلى الإعتدال وبالتالى قصد إلى تفادى الخصومات والإحتكاك والصراع وإلى الخروج من المألوف الذى أصبح عرفا أو تقليدا وهو لا يقوم على إعتبار القيم الإنسانية فى الأفراد وحدها بل والمجتمعات لتعود فى أدراج إنسانيته ويزيل من الطريق عواقب مهما كانت المشقة وقول : القرآن الكريم

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة 170)

تنديد بإضفاء الشرعية على العادات والتقاليد فى سياسة الجماعة وتدبير أمرها تلك العادات التى لم تؤسس على ما أنزل الله وتنديد أيضا بالبقاء فيها وعدم الخروج عنها والسير نحو تحقيق ما دعا إليه الله جل شأنه فى كتابه الكريم والذى أنزله الله فى كتابه ليس إلا ما يعين الطبيعة البشرية على أن تكون إنسانية فى سلوكها وتصرفاتها وإنسانية فى تفكيرها وإنسانية فيما تنويه وفيما تريده وليس فيما أنزله الله سبحانه وتعالى سوى ما يحمل الإنسان على أن يجتاز العقبات فى سبيل نمو إنسانيته والتقدم فيها (إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الإسراء 9)

والطريق الأقوم هو طريق الإنسانية الفاضلة طريق المساواة فى الإعتبار الإنسانى طريق العدالة طريق المحبة والتآخى وإقامة العلاقات على أساس من المحبة والأخوة ودفع كل ما يعوق تحقيق ذلك من عرف أو تقاليد لا تستجيب لداعى الله يقول : تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (24) وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال 24-25)

الإستجابة إلى ذلك بما فيه إحياؤهم وفلاحهم وليس هناك أوضح فى تصوير العوائق من أن يحول بينه وبين اتباع ما دعا إليه الله جل شأنه من أن يسود التمسك بما كان عليه الآباء والأجداد من تقاليد ونظم تبعد فى أساسها عن كتاب الله وشريعته وتصبح دستورا للحكم والرعاية والأمة الإسلامية مأمورة من إسلامنا كذلك بأن تستجيب لداعى الله وإلى إحياء نفسها بذلك ولا يتم لها هذا إلا بأن تتغلب على ما يسد الطريق أمامها فى تحقيق ما يدعوا إليه الله سبحانه وتعالى .

نداء الفضيلة

أيها المسلمون أنتم جسد واحد وكل فرد من المسلمين ككل عضو من الجسد فتنبهوا لحفظ هذا الجسد فإن أصغر عضو منه لو مرض أضر جميع الجسد واعلموا أن الجسد ينبغى أن يحتفظ بكل قواه فى أيام الأوبئة فيحتمى من الشراب والطعام ويكثر تطهير جسده وثيابه وبيته ويبعد عن المرضى وكذلك المجتمع فى هذا الوقت الحاضر قد أحاطت به أعداؤه الذين يرونا ولا نراهم كالشياطين وقد انتشروا كالميكروبات فيظهرون الرحمة ويعلنون أنهم جاءوا لدفع المظالم عنا ولإنتشار الصنائع والعلوم والفنون بيننا وليجعلونا أحرارا فى بلادنا فنستسلم ولا نحتاط لأنفسنا منهم فإذا تمكنوا سلبوا البقية الباقية وإغتصبوا منا ميراثنا ونتائج جهودنا وإستبدلوا ذلك كله ثم قبحوا فضائلنا وذموا أشرافنا وإنتقموا من المتمسكين بديننا كل ذلك أمر هين لو أن الأمة يقظة ولكن البلاء الأكبر أن الأمة عظم بلاؤها برجال نعتقد أنهم أبناء المسلمين وتقوم حجة أعمالهم على أنهم شر من الكافرين عشقوا تلك المخازى التى كان يتمنى المسلم أن يموت ولا يراها فضلا عن أن يعملها أو يحبها أو يستحسنها وينشرها ولم يكفهم هذا حتى نشروا بين الأمة تلك المخازى فحسنوها زورا وبهتانا ومن أراد أن يمكن العدو من أمته بتقبيح ما هى عليه فهو شر من العدو ولا يشك العاقل أن هؤلاء وإن كانوا من أبناء المسلمين فهم مخطئون وإلا فما الذى جعله يسارع فى أعداء قومه ويستحسن ما هم عليه وحبيب العدو عدو قال : الله تعالى (لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ)

(آل عمران 28)

القول للعمل لا للجدل

إن القول للعمل لا للجدل : قد آن وقت العمل فأقلوا الكلام لأن العامل لا يرجع خائبا أبدا فإنه إما أن يظفر دينا ودنيا وأخرى وإما أن يستريح ضميره بأنه سن سنة حسنة لقومه فأرضى الله ورسوله وأحيا قلوب قومه .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الفهرس

مقدمة الكتاب

الباب الأول - الوحدة العربية

فصل - الدين والعصبيات

فصل - الإسلام ومثله الأعلى فى بناء الأمم

فصل - الإسلام ودعوته إلى وحدة العقيدة الدينية من جهة أن الأصل واحد

فصل - وحدة الأمة من الأهداف الرئيسية للإسلام

فصل - الإسلام والوحدة الدينية الإسلام دين الوحدة لا التوحد فقط

فصل - لتعارفوا رؤية المعرفة

الباب الثانى - وحدة الأمة الإسلامية

فصل - الإسلام والفكر الإسلامى

فصل - فريضة التفكير فى الإسلام

فصل - العقل والعلم والبرهان فى نظر القرآن

الباب الثالث

فصل - الإسلام والعقل

فصل - صلة العقل بالدين

الباب الرابع - الإسلام دين الحرية

فصل - شهادة المنصفون من كتاب الغرب بدور الإسلام

فصل - وعى الأمة الإسلامية

فصل - الحوار مبدأ أساسى فى الفكر الدينى الإسلامى

فصل - الأمن النفسى والإجتماعى من ضرورات الحياة
وبدونه تفقد الحياة أمنها

البا ب الخامس

- أمة الإسلام أمة واحدة

فصل - تشريع الإسلام يطابق إنسانيته

الباب السادس

- الشريعة الإسلامية جاءت لتحكم أمورالدين والدنيا كلها بالفقه الإسلامى

فصل - الفرق بين الشريعة والفقه الإسلامى

فصل - ضرورة تجديد الفقه الإسلامى

فصل - مشروعية الإجتهاد

الباب السابع

- الفهم عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم

فصل - معنى التكفير لغة واصطلاحا

فصل - ثورة الإعلام المعاصر وفتنة التكفير

الباب الثامن

- التقريب بين المذاهب الإسلامية

فصل - الإسلام والأزهر والتقريب

فصل - وقفة مع تدريس فقه الشيعة بالأزهر الشريف

الباب التاسع

- مفهوم التقدم فى الإسلام

فصل - الأصالة ومفهومها فى الفكر الإسلامى

فصل - العقيدة الإسلامية وصلاح الجماعة

الباب العاشر

- مشكلة تخلف العالم الإسلامى

فصل - الحضارة والفرائض الغائبة

الباب الحادى عشر

فصل - إحياء وظائف الحسبة الإسلامية فى مجال العلم والمعرفة

فصل - دور المثقفون والوعى بمصالح الأمة

فصل - الواجب على الأمة اليوم

- طريق الوحدة المتكاملة .

المراجع

- تفسير القرآن الكريم للإمام / الحافظ / ابن كثبر الجزء الأول
- كتاب – الروح
- للإمام / ابن قيم الجوزية
- كتاب التفكير فريضة إسلامية
- الأستاذ الأديب / عباس محمود العقاد
- كتاب – المسلمون وآخر حوار تفاهم وتبادل حضارى
- دكتور / عبد الباسط محمد أمين سليمان
- كتاب – التربية الوالدية رؤية إسلامية
- الأستاذ الدكتور / سعيد إسماعيل على
- كتاب – حقوق الإنسان فى الإسلام
- الأستاذ الدكتور على عبد الواحد وافى
- كتاب – الإسلام قلب تقى وعقل رشيد
- الأستاذ / عبد التواب إبراهيم رضوان
- سلسلة كتاب الإسلام وطن
- كتاب - وسائل نيل المجد الإسلامى

الإمام المجدد / السيد محمد ماضى أبو العزائم

- كتاب – الإيمان
- فضلية الإمام الأكبر الدكتور / عبد الحليم محمود شيخ الأزهر
- كتاب – التأخى بين المسلمين
- الأستاذ / عمرو خالد
- كتاب – آداب المسلم على الصراط المستقيم
- الأستاذ / عبد الهادى قنديل
- كتاب – فتاوى الإمام / محمد عبده

- المستشار الدكتور / محمد شوقى الفنجرى
- كتاب – فقه الإختلاف
- الأستاذ / مجدى القاسم
- كتاب – حرمة التكفير
- الأستاذ الدكتور / أحمد محمود كريمة
- كتاب – التربية الإسلامية بين العقيدة والأخلاق
- الدكتور / محمد فريد حجاب
- كتاب – التعصب والتسامح
- فضيلة الشيخ / محمد الغزالى
- كتاب – قضايا معاصرة فى الفكر الإسلامى
- الأستاذ الدكتور / محمد محفوظ
- كتاب – الإسلام وحاجة الإنسانية إليه
- الدكتور / محمد يوسف موسى
- كتاب – فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية
- الأستاذ الدكتور / محمد عمارة
- كتاب – اثقافة العربية والحضارة الإسلامية
- الدكتور / محمد الجوهرى حمد الجوهرى
- كتاب – مهمة الإسلام فى العالم
- الأستاذ / محمد فريد وجدى
- كتاب – مقاصد الشريعة الإسلامية
- الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق
- كتاب – مشكلات الفكر المعاصر فى ضوء الإسلام
- الأستاذ / أنور الجندى
- كتاب – من وحى القلم
- الأستاذ المفكر الأديب / مصطفى صادق الرافعى

- كتاب – الدين والحضارة الإسلامية
- الأستاذ الدكتور / محمد البهى
- كتاب – شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام
- الأستاذ / أحمد الشرباصى
- كتاب – هوامش على أزمة الفكر الإسلامى المعاصر
- الأستاذ الدكتور / محمود حمدى زقزوق
- مقالة – الإسلام دين العقل والعلم
- فضيلة الإمام / محمود شلتوت – مجلة الأزهر عدد يناير 2014
- مقالة – قراءة وحاشية التقريب بين المذاهب الإسلامية
- الأستاذ الدكتور / أحمد محمود كريمة
- مجلة الإسلام وطن عدد ينار 2014
- مقالة – الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح
- مجلة الإسلام وطن أبريل 2010
- مقالة – الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح
- مجلة الإسلام وطن يونيه 2010
- مقالة – الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح
- مجلة الإسلام وطن أبريل 2011
- مقالة – الدكتور / أحمد عبد الرحيم السايح
- مجلة الإسلام وطن عدد يناير وفبراير 2012
- مقالة – محمد علاء ماضى أبو العزائمم
- مجلة الأزهر عدد 2012
- مقالة – الأستاذ الدكتور / وصفى عاشور أبو زيد
- مجلة الوعى الإسلامى – عدد ديسمبر ويناير 2012/2011
- مقالة – الأستاذ / إبراهيم نويرى
- مجلة الوعى الإسلامى – عدد ديسمبر ويناير 2012/2011

- مقالة – الأستاذ / أسعد النوبى
- ومقالة – الأستاذ / يوسف فيصل العلى
- مجلة الأزهر عدد 2012
- مقالة – الأستاذ الدكتور / خالد فهمى
- مجلة الأزهر عدد مارس 2012
- مقالة – الأستاذ / يحيى رضا جاد
- مجلة الأزهر مارس 2012
- مقالة – الأستاذ الدكتور / عبد المجيد صبح .